بسم الله الرحمن الرحيم

مصـدر الفـهـرسـة : IQ-KaPLI ara IQ-KaPLI rda

رقم تصنيف LC: BP١٩٣,١٢.A٣ H٨٥ ٢٠٢١

المؤلـف الشخصي : الحلو، زيد محمد رضا، ١٩٧٤- ، مؤلف.

الـعـنـــــــوان : الفكر الاجتماعي للإمام الحسن (عليه السلام) /

بـيـان المسـؤوليـة : تأليف السيد زيد الحلو ؛ تقديم كاظم السيد محمد جواد الخرسان.

بـيـانـات الطـبـع : الطبعة الأولى.

بـيـانـات الـنـشـر : النجف، العراق : العتبة الحسينية المقدسة، مركز الإمام الحسن (عليه السلام) للدراسات التخصصية، ٢٠٢١ / ١٤٤٢ للهجرة.

الـوصـف الـمـادي : ٤٦٤ صفحة ؛ ٢٤ سم.

سـلـسـلـة الـنـشـر : (العتبة الحسينية المقدسة ؛ ٩٠٩).

سـلـسـلـة الـنـشـر : (مركز الإمام الحسن (عليه السلام) للدراسات التخصصية ؛ ٧٣).

تبصرة ببليوجرافية : يتضمن إرجاعات ببليوجرافية.

موضـوع شخصي : الحسن بن علي (عليه السلام)، الإمام الثاني، ٣-٥٠ للهجرة – آراء في علم الاجتماع.

مصطلح موضوعي : النظام الاجتماعي في الإسلام.

مصطلح موضوعي : علم الاجتماع – تراجم.

مصطلح موضوعي : علم الاجتماع – نظريات.

مـؤلـف اضـافـي : الخرسان، كاظم – مقدم.

اسم هيـأة اضـافي : العتبة الحسينية المقدسة (النجف، العراق). مركز الإمام الحسن (عليه السلام) للدراسات التخصصية – جهة مصدرة.

تمت الفهرسة قبل النشر في مكتبة العتبة الحسينية

الفكر الاجتماعي للإمام الحسن عليه السلام

السيد زيد الحلو

العتبة الحسينية المقدسة
مركز الإمام الحسن عليه السلام للدراسات التخصصية

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة للمركز

العراق - النجف الأشرف
www.imamhassan.org
info@imamhassan.org
+964 7803358020

هوية الكتاب

اسم الكتاب:.....الفكر الاجتماعي للإمام الحسن عليه السلام

المؤلّف:.....السيد زيد الحلو

الطبعة:.....الأُولى

سنة الطبع:.....١٤٤٤هـ / ٢٠٢٣م

عدد النسخ:.....١٠٠٠ نسخة

الناشر:.....مركز الإمام الحسن عليه السلام للدراسات التخصّصية

التصميم والإخراج الفني:.....وحدة الإخراج الفنّي

رقم الإيداع في دار الكتب والوثائق العراقية ببغداد ٢٥١٥ لسنة ٢٠٢١

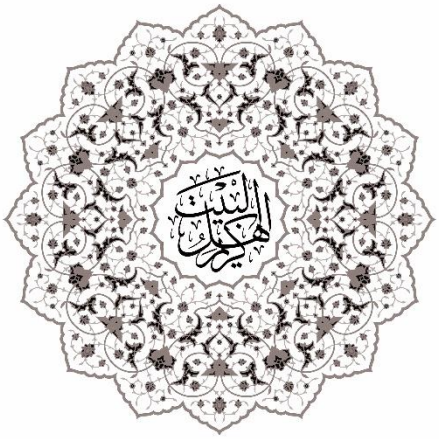
أهل البيت عليهم السلام

الإهداء

إلى من بذل عمره الشريف في خدمة أهل البيت عليهم السلام

ومن علمني أن أمسك بقلمي لنصرتهم

إلى روح العالم العامل السيد محمد علي الحلو قدس سره

أهدي صفحات هذا الكتاب

مقدّمة المركز

بسم الله الرحمن الرحيم، والحمد لله ربِّ العالمين، والصلاة والسلام علىٰ أشرف الخلق أجمعين محمّد وآله الطيِّبين الطاهرين، واللعن الدائم علىٰ أعدائهم أجمعين إلىٰ قيام يوم الدين، آمين ربَّ العالمين.

أهل البيت عليهم السلام شخوصٌ نورانيَّة وأشخاصٌ ملكوتيَّة، منها ولأجلها وُجِدَ الكَوْن، وإليها حسابُ الخَلق، يتدفَّقون نوراً وينطقون حياةً، شفاههم رحمة وقلوبهم رأفة، وُضِعَ الخير بميزانهم فزانوه عدلاً، ونَمَت المعرفة علىٰ ربوع ألسنتهم فغذّوها حكمةً.

أنوارٌ هداة، قادةٌ سادات (ينحدرُ عنهم السيل ولا يرقىٰ إليهم الطير)، ألفوا الخَلق فألفوهم، تصطفُّ علىٰ أبوابهم أبناء آدم متعلِّمين مستنجدين سائلين، وبمغانمهم عائدين.

لا يُكرِهون أحداً علىٰ موالاتهم ولا يجبرون فرداً علىٰ اتِّباعهم، يُقيِّد حبُّهم كلَّ من استمع إليهم ويشغف قلبَ كلِّ من رآهم، منهجهم الحقُّ وطريقُهم الصدق وكلمتُهم العليا، هُم فوق ما نقول ودون ما يُقال من التأليه، هُم أنوار السماء وأوتاد الأرض.

والإمام الحسن المجتبى عليه السلام هو أحد هذه الأسرار التي حار الكثير في معناها وغفل البعض عن وجه الحكمة في قراراتها وباع آخرون دينهم بدنيا غيرهم فراحوا يُسطِّرون الكذب والافتراءات عليه والتي جاوز بعضها حدَّ

العقل ولم يتجاوز حدَّ الحقد المنصبِّ علىٰ بيت الرسالة.

وقد اهتمَّ مركز الإمام الحسن عليه السلام للدراسات التخصّصية بكتابة البحوث والدراسات وتحقيق المخطوطات التي تُعنَىٰ بشأن الإمام الحسن المجتبىٰ عليه السلام ونشرها في كتب وكتيّبات بالإضافة إلىٰ نشرها علىٰ مواقع الانترنت وصفحات التواصل الاجتماعي التابعة للمركز.

بالإضافة إلىٰ النشاطات الثقافيَّة والإعلاميَّة الأُخرىٰ التي يقوم بها المركز من خلال نشر التصاميم الفنّية وإقامة مجالس العزاء وعقد المحاضرات والندوات والمسابقات العلميَّة والثقافيَّة التي تثرىٰ بفكر أهل البيت عليهم السلام وغيرها من توفيقات الله تعالىٰ لنا لخدمة الإمام المظلوم أبي محمّد الحسن المجتبىٰ عليه السلام.

وهذا الكتاب الذي بين يديك عزيزي القارئ هو أحد تلك الثمار التي أينعت والتي لا تهدف إلَّا إلىٰ بيان شخصيَّة الإمام الحسن المجتبىٰ عليه السلام بكلِّ أبعادها المضيئة ونواحيها المشرِقة، ولرفد المكتبة الإسلاميَّة ببحوث ودراسات عن شخصيَّة الإمام الحسن المجتبىٰ عليه السلام ومن الله التوفيق والسداد.

العتبة الحسينية المقدَّسة

مركز الإمام الحسن عليه السلام للدراسات التخصّصية

كاظم السيد محمد جواد الخرسان

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

واجه الإنسان منذ أن وجد على الأرض أحداثاً كثيرة ومشاكل جمة في أسلوب حياته وتعامله مع أفراد جنسه وكتلته الاجتماعية على مدى امتداده التاريخي مع تطور الحياة وتنوع الأنشطة فيها، فكان لا بد أن يكون له موقف تجاه كل ذلك، يمليه عليه خبرته الفكرية المكتسبة من تجاربه أو فطرته السليمة الموجهة له في تعامله مع تلك المواقف والأحداث. فاعتمد على أمرين، التجربة المتكررة أو الحدث المفاجئ غير المسبوق مما استدعى إلى إعمال الفكر واستحضار معلوماته من خزينه الفكري للوصول إلى أفضل الحلول المناسبة.

الإنسان في فطرته ومن طبيعته أنه اجتماعي يفتقر إلى الآخرين في وجوده نفسياً ومادياً.

بدأ الفكر الاجتماعي مراحله الأولى مع بدء النمو السكاني وتكوين الخلايا البشرية، فاحتاج الفرد لطريقة تواصل مع الأفراد الآخرين؛ ولذلك انقسمت العلاقة إلى علاقة الفرد مع الفرد، والفرد مع المجتمع، والمجتمع مع الفرد، والمجتمع مع المجتمع، واحتاج هذا التقسيم إلى قوانين تنظم هذه العلاقات وتضبطها وتطورها وترتقي بها للمجتمع لتكون وسائل تواصلهم الفكري أسهل وأيسر.

لم يكن لعلم الاجتماع وجود مستقل بل كان عبارة عن أفكار ومقولات متناثرة في كتب الفلسفة ونظرياتها، فكان أحد فروع الفلسفة الأصلية، لأن الفلاسفة كانوا هم المنظرين لجميع شؤون الحياة وتفاعلاتها الإنسانية (**وصار من همّ الفيلسوف -وهو رجل المعرفة الأول الذي عرفته البشرية بعد النبي- أن يتعرف على آليات الحياة الاجتماعية وقوانينها، ويدرس اتجاهاتها، ويصنف هذه القوانين والاتجاهات**)[1].

---

(١) دراسات في نهج البلاغة محمد مهدي شمس الدين، ص١٣.

وقد أبدع الفلاسفة اليونان أمثال سقراط وأفلاطون وأرسطو في نظرياتهم الفلسفية الاجتماعية التي تناولت تنظير شؤون الأسرة والدولة ووضع النظريات الاقتصادية وتهذيب الأفكار الإنسانية.

وقد لخص ابن خلدون في مقدمته هذا المعنى قائلاً (**إن الاجتماع الإنساني ضروري ويعبر عنه الحكماء بقولهم: الإنسان مدني بالطبع، أي لا بد له من الاجتماع الذي هو المدنية باصطلاحهم**)[1] وهي حقيقة فطرية في الإنسان، لأنه يميل إلى المدنية التي من شأنها توليف الطاقات والاختصاصات.

وقد يختلف الفكر الاجتماعي من مجتمع إلى آخر ومن بيئة إلى أخرى باختلاف ثقافات الشعوب وتقاليدها وعاداتها وأعرافها وطبائعها، فتختلف بذلك الرؤية الاجتماعية في التنظير بما يتناسب ومبادئ ذلك المجتمع، فأدبيات كل قوم تملي عليه إيجاد نسق من التعامل يوائم، ويحاكي ظروفه ومبتنياته العقدية والخُلُقية، ويقوم التنظير إما على أساس ديني في وضع القوانين، أي الأحكام الإلهية التي جاء بها الأنبياء والرسل من عند الله تعالى، بحيث تكون هي

---

(١) مقدمة ابن خلدون، ص٤١.

منـــاط أحكـــامهم التـــي تؤلـــف الأحكـــام الإلهيـــة وطبيعـــة البشـــر المخلـــوقين والمنقـــادين لأديـــانهم، أو يكـــون الوضـــع إنســـانياً يكتشـــفه الإنســـان بتجربتـــه واستقصـــائه لمتطلبـــات مجتمعـــه، ويضـــع عـــلى أساســـها قوانينـــه المنظمـــة لفعالياتـــه ونشـــاطاته اليوميـــة وإدارة المجتمـــع بآليـــات توافقية تبانى أفراد المجتمع عليها.

إذن لا بـــد مـــن قـــوانين حاكمـــة لحركـــة البشـــر، ســـواء كانـــت إلهيـــة أو إنســـانية، ولا يخفـــى كماليـــة الـــنظم الإلهيـــة الصـــادرة مـــن أحكـــم الحكـــماء، وهـــو الله تعـــالى وبـــين الـــنظم الإنســـانية القابلـــة للخطـــأ والصـــواب بســـبب طبيعـــة الإنســـان المحـــدودة وعـــدم إدراكـــه لكثـــير مـــن الأمـــور، لكنـــه يحـــاول أن يتماشـــى مـــع الوضـــع العـــام، ويطـــور مفاهيمـــه بحسب تطوره الحضاري والمعرفي والثقافي.

وتـــتجلى قيمـــة النظـــام الاجتماعـــي في تحقيـــق العدالـــة الاجتماعيـــة التـــي هـــي الغايـــة والهـــدف مـــن هـــذا التنظـــيم باعتبـــار أن النظـــرة الاجتماعيـــة المجـــردة عـــن أي طائفيـــة أو عنصـــرية أو مناطقيـــة أو عرقيـــة أو دينيـــة أو سياســـية أو اقتصـــادية تقتضـــي أن يكـــون البشـــر جميعـــاً عـــلى حد ســـواء، والتعامـــل مـــع الآخـــر مـــن منطلـــق إنســـاني لا يعتـــبر اللـــون أو

الفئـة أو الجماعـة بـل يضـع في ميزانـه أفـراد المجتمـع في كفـة واحـدة، وهـو مـا سـعى إليـه الأنبيـاء والمرسـلون والصـالحون والمنظـرون في تحقيق مجتمـع متكـافئ يعطـي للجميـع حقـه الإنسـاني مـن غـير التعـدي عـلى حقـوق الآخـرين كـما يوجـب عليـه الالتـزام إزاء المقابـل بحقـه واحـترام إرادتـه الإنسـانية، ومـا رسـالة الإسـلام إلا إرسـاء لمفـاهيم الإنسـانية والعـدل عـلى الأرض وتكـوين مجتمـع سـامٍ يتفاعـل مـع النظرية الإسلامية وتمتين البنية الاجتماعية للأمة الإسلامية.

فقـاد الرسـول الكـريم محمـد ﷺ الفكـر الاجتماعـي للبشـرية جمعاء بما جاء به مـن تعـاليم وأحكـام تربويـة وثقافيـة وقانونيـة، أتاحـت للفكـر الإنسـاني معرفـة خبايـا الـنفس البشـرية ومكنوناتهـا السـرية وطبيعتهـا الخلقيـة، فعمـل بهـا المسـلمون بنحـو مبـاشر، وغـير المسـلمين بنحو غير مباشر لما وجـدوه مـن أفكـار زاخـرة بالطريقـة المثلى للتعـاطي الاجتماعي، فعملـوا بهـا مـن حيـث يعلمـون أو لا يعلمـون مـدعين أنهـا نتـاجهم الفكـري وثـمار فلسـفاتهم الاجتماعيـة، ومـن ثـم قـاد الحركـة الفكريـة الاجتماعيـة أوصـياء النبـي ﷺ، وهـم أهـل البيـت عليهم السلام بسـيرتهم

العطـرة الناضـحة بـالكلمات والأحـداث والمواقـف المؤسسـة للفكـر الاجتماعي بأبهى صوره وأرقى معانيه.

ولعـل مـا نقـرأه في وصـية الإمـام عـلي بـن أبي طالـب عليه السلام لولـده الإمـام الحسـن عليه السلام أنمـوذج فكـري رائـع لا يمكـن لمنصـفٍ تجـاوزه لمـا يحمـل مـن قواعـد التعامـل الاجتماعـي بكلـمات قصـيرة، لكنهـا كبـيرة بمضامينها الرائعة.

حيـث يقـول «يـا بنـي اجعـل مـن نفسـك ميزانـاً فـيما بينـك وبـين غـيرك، فأحبـب لغـيرك مـا تحـب لنفسـك، واكـره لـه مـا تكـره لهـا، وأحسـن كـما تحـب أن يحسـن إليـك، واسـتقبح مـن نفسـك مـا تسـتقبح من غيرك، وارضَ من النـاس مـا ترضـاه لهـم مـن نفسـك»[1] وهـو أجمـل وصـف لمـا يجـب أن يكـون عليـه الإنسـان اتجـاه مجتمعـه وأبلـغ كـلام في معنـى العدالـة الإنسـانية وأروع وأكمـل نظـام اجتماعـي، وهـو بالفعـل تأسـيس لمبـادئ الفكـر الاجتماعـي، فحـين يجعـل الإنسـان نفسـه ميزانـاً فهو تصـريح بقاعـدة العدالـة الاجتماعيـة التـي مـن خلالهـا يـزن الفـرد

(١) نهج البلاغة، ٣: ٤٥، خ٣١.

وضعه في جماعته وطريقة التصرف معهم وعدم التعالي عليهم أو الخضوع لهم بل يكون في محل المساواة معهم.

ولا يخفى ما للإمام الحسن بن علي عليه السلام من أثر ريادي في وضع وتشريع وبناء الفكر الاجتماعي الإسلامي والإنساني، يتضح من أقواله ومواقفه التي أكمل بها نهج جده وأبيه في صناعة الحياة وبناء الإنسان الأنموذجي وتسوير الفرد والأسرة والمجتمع بسور حصين من الأحكام والآداب والأخلاق والالتزامات المتبادلة، خصوصاً وأن مرحلة الإمام الحسن المجتبى عليه السلام شهدت ارتداداً عن القيم والمفاهيم الاجتماعية الأصيلة مع قرب زمانهم من النبي صلى الله عليه وآله فلم يتوقف الإمام الحسن عليه السلام عن إرواء المجتمع من معينه الصافي وتحفيز النفوس إلى الارتقاء في درجات التحضر والتقدم نحو إيجاد أمة طموحة لفرض هويتها الإسلامية ومنهجها العقدي وتقديم صورة مشرقة ونضرة عن المفاهيم الإلهية التي جسدها أهل البيت عليهم السلام بأدائهم السلوكي في التعامل مع أفراد المجتمع ونشر الفضيلة والعدالة وأنسنة معاملاتهم الجماعية معتمدين على القرآن الكريم وسيرة النبي العظيم وما ورثوه من علم عملوا به، وصدقوا جهته،

فأصبحوا قادة الإنسانية بحق، ومن يطلع على مدرسة الإمام الحسن عليه السلام الفكرية، ويستقرئ دروس الحكمة والعظة منها سيخرج بحصيلة فكرية كبيرة ونتاج علمي ثرّ لا يجارى، ومن ينكره فقد أنكر حقائق الحلول الناجعة لمشاكل إنسانية في ميادينها الفكرية الرامية لإقامة الصرح الاجتماعي ورسم خططه ووضع ركائزه.

وسنحاول في هذه الصفحات القليلة قراءة نصوص وكلام إمامنا الحسن الزكي عليه السلام بنمط آخر غير الفقه والحكمة والمواعظ بل سنقرأها من زاوية أخرى، وهي المفاهيم والأفكار الاجتماعية في هذه النصوص والمحاورات، فكلام أهل البيت عليهم السلام يحمل مضامين كثيرة، فقط نحتاج إلى إدارة النظر لنرى مراداً آخر لم نلتفت إليه، ولم نتأمل فيه، فيا ليتنا نتجه إلى قراءات جديدة للاستزادة من معارفهم وسبر أغوار ألفاظهم الغنية بالكنوز المعرفية والتقاط جواهر بحرهم الزاخر ومن الله التوفيق، وعلى محبتهم والقرب منهم التحصيل.

****

الفصل الأول

الفصل الأول

لم يعرف علم الاجتماع على أنه علم مستقل بحد ذاته بل كان عبارة عن مسائل فلسفية متفرقة في كتب ورسائل الفلاسفة، لأن أغلب العلوم نتجت من الفكر الفلسفي، فالفلسفة هي أم العلوم باعتبارها تطرح تساؤلات عامة عن الطبيعة والإنسان، وتجيب عليها بالتحليل والتنظير حتى نضجت فيما بعد، وصارت فروعاً وعلوماً مستقلة، فصار لها مسائل ومصطلحات خاصة بها، واكبت تطور الإنسان وتوسع مداركه ونظراته بعد مروره بأطوار كثيرة بحيث أصبح يعي المشكلة وحلها، ولم تكن تلك المشاكل مدعاة للانهزام والاستسلام، بل كانت دافعاً للبحث والتقصي، وأصبح أكثر سيطرة على نفسه وعلى الطبيعة، لكنه مع هذا التقدم واجه مشاكل أكثر وأكبر كانت سبباً في زيادة خبرته وتجربته، فأصبح يبحث عن الأصلح والأفضل لإدارة نفسه ومجتمعه.

الفكر الاجتماعي:

إن ما يقوم الإنسان، ويرفعه نحو الكمال هو العقل الذي وهبه الله له، وجعله ناطقاً متميزاً عن باقي المخلوقات به، والعقل هو مجموعة من التأملات والمعلومات التي يرصدها ويخزنها، وجعل قاعدة بيانات يستل منها المعلومات عند تجواله الفكري، فالتفكر هو تأمل وربط بين المعلومات، والخروج بنتائج جديدة وأي فكرة جديدة أو معلومة أخرى تضاف إلى خزينه المعلوماتي.

فالفكر هو عملية تقصٍّ واستقراء وتأمل للوصول إلى حقيقة جديدة، سواء كانت طبيعية أو فلسفية أو علمية أو في أي مجال من مجالات الحياة.

والفكر الاجتماعي هو الوقوع في مشكلات اجتماعية تستوجب إحالة الفكر بين مخزونه التجريبي والخبروي للوصول إلى الحلول المناسبة.

وقد عرف الفكر الاجتماعي بعدة تعريفات نذكر منها:

١. الفكر كما عرفه سيد خير الله هو النشاط الذي يحل به الشخص المشكلة مهما كانت طبيعتها، سواء تطلب هذا النشاط تفكيراً أكثر أو اقل حسبما يكون الموقف أكثر أو أقل إشكالاً[١].

أو كما عرفه عبد الحليم محمود هو معالجة الأشياء والأحداث عن طريق الكلمات والمفاهيم والصور العقلية بدلاً من معالجتها عن طريق النشاط العقلي أو عن طريق النشاط المحسوس المباشر[٢].

وهو يطابق تعريفه اللغوي الذي جاء بمعنى **(إعمال الخاطر في الشيء)**[٣].

إذن الفكر إحالة للعقل بين خواطره وقواعده للوصول إلى الغاية.

فعند تعرض الإنسان لمشكلة يبدأ بوضع خطة للنجاح في إنتاج استجابة مناسبة، فالتفكير عملية إنسانية وجدانية تحدث للشخص المفكر تلقائياً.

---

(١) التعلم الحركي والنمو الإنساني، يوسف لازم ونايف زهدي، ص١٥٧.

(٢) المصدر نفسه، ص١٥٨.

(٣) لسان العرب ابن منظور، مادة فكر، ٥/ ٦٥.

وهو تارة يجري بأسلوب علمي ممنهج، وأخرى بنحو عشوائي.

ومع مرور الزمن أصبح للإنسان كم من الخبرة يستطيع بها التعامل مع الأحداث ومحفز لوضع أسس ومبادئ الطريق العلمي في التفكير، وبالتالي أصبحت مباحثه وتجاربه أكثر نضوجاً وواقعية في مختلف مجالات المعرفة.

علم الاجتماع:

بعد أن أصبحت طرق التفكير تجري بعلمية ودراسة، واختصت بعض العلوم بمناهج معينة تعبر عن مشكلاتها ومسائلها وبحث الحلول لها -ومنها علم الاجتماع- حيث عرفه البعض بأنه «**العلم الذي يعنى بدراسة الحياة المشتركة بين الناس، وصفة الحياة المشتركة هي التي تفرز علم الاجتماع عن غيره من العلوم**»[1] لأن الاشتراك يعني تجاوز ما هو فردي من حياة الناس من حيث التفاعلات فيما بينهم أو ما يميز ذلك المجتمع عن المجتمعات الأخرى.

---

(١) الإسلام وعلم الاجتماع/ محمود البستاني ص٢٩.

ومحور علم الاجتماع هو الإنســـان الفرد في مجموعته وكيفية تعامله ونوع علاقته معهم، وهو ضرورة إنسانية، فالإنسان بطبيعته مدني متعايش مع الآخرين، لكنه يحتاج إلى ما ينظم حياته المعيشـــية معهم، فهو بحاجة إلى الحفاظ على نفســه، وهو لا يتحقق إلا بتظافر جهده مع أبناء جنســه مما يوفر له الغذاء والدواء والدفاع عن النفس وغيرها من متطلبات الحياة المدنية والتي لا يمكن للفرد القيام بها جميعاً وحده؛ لأنه قاصر بتفكيره المحدود وقوته البدنية الضعيفة عن إنجاز كل ذلك.

إذن علــم الاجــتماع مــن شــأنه أن يضــع القواعــد والقــوانين التــي تلــزم الأفــراد في تعــاملاتهم بعــدم وقــوع الظلــم والغــبن والإجحــاف على أي فرد وتحقيق العدالة التي تؤمن العيش المطمئن للكل.

أهمية الفكر الاجتماعي:

لم يكــن الإنســان في بدايــة نشــوئه عــلى الأرض يملــك مقومــات المعرفــة التــي تؤســس لفهــم واعٍ وإدراك ســليم للســيطرة عــلى عالمــه الخارجي، فكان عرضــة للــوهم والخيــال والوقــوع في أخطــاء قــد تكلفــه حياتــه أو فســاد بيئتــه وعــدم التواصــل مــع مجتمعــه، فاحتــاج إلى أن يمــر

بعدة مراحل صاحبتها كثير من العثرات والإخفاقات، لكنه بالفعل بدأ يتخطى ذلك الفشل والنمو والتقدم لاكتشاف الحقائق والطرائق الصحيحة لصناعة عالمه الذي يخدم مصالحه الشخصية والجماعية.

وكلامنا في الفكر الاجتماعي لا في علم الاجتماع الذي تقدم تعريفه، فالأمران مختلفان، وليسا واحداً، فالفكر أوسع دائرة من العلم.

الفرق بين الفكر الاجتماعي وعلم الاجتماع:

ثمة فرق بين الفكر والعلم الاجتماعي، اقتضته الظروف الاجتماعية لكل مجتمع بحسب التنوع الديني والفكري والعرفي والفلكلوري لكل مجتمع، فتعدد الأفكار أفرز فهماً متفاوتاً ومختلفاً من مجتمع إلى آخر، فالمجتمع الديني يتخذ من الدين محوراً لطريقة حياته ووضع قواعد ومبتنيات محددة بأحكام شريعته بينما المجتمعات اللادينية جعلت من العقل منطلقاً لأحكام الحياة والتعامل مع الطبيعة المجردة للإنسان غير معتبرة لإمكانيات وقابليات البشر المتنوعة.

فـالفكر الاجتماعـي يتعامـل مـع المشـكلات الطارئـة والعارضـة على المجتمع، وهي متغيرة غـير ثابتـة مـن زمـان إلى آخـر ومـن مكـان إلى مكـان ومـن مجتمـع لمجتمـع، ترصـد الخلـل، وتضـع لـه الحلـول، وهـو يعايش روح المجتمـع، ويفسـر العجـز في نشـاطاته، سـواء كـان فـرداً أم جماعة.

ولا يتوقـف الفكـر عنـد حـدٍ معـين، بـل يبقـى مسـاوقاً لتطـوره وتدرجـه الروحـي والمـادي فـ (**إن الـدافع الاجتماعـي دافـع فطـري وإن الإنسـان حيـوان اجتماعـي يميـل إلى العـيش في جماعـات وإلى الاجـتماع ببنـي جنسـه والاشـتراك معهـم في أوجـه نشـاطاتهم، ويشـعر بالوحشـة والضيق إن حيل بينه وبين ذلك**)[1].

إذن المحركيـة للفـرد لوضـع خططـه هـو حاجـة المجتمـع التـي يرصـدها أثنـاء كونـه فـيهم ومعايشـته معهـم، فيسـتلهم فلسـفته الاجتماعيـة مـن مشـاكلهم وأسـلوب حيـاتهم، فيبـدأ بالمحاولـة لفـرز المشـكلة ومعالجتهـا ليكـون المجتمـع متماسـكاً متكـاملاً، أي أن الباعـث الخُلقـي هـو المسـبب لصـاحب الفكـر في البحـث والتقصـي في

(١) أصول علم النفس، أحمد عزت ص ٨٧.

المشكلات بعيداً عن المصالح والمنافع التي تجير للفرد أو للمجتمع بل غايته إصلاحية تربوية فـ (**ان بعض هؤلاء العلماء يقول بوجود عاطفة دينية فطرية لدى الإنسان، وإن هذا الأخير مزود بحد أدنى من الخبرة الجنسية والبر بالوالدين ومحبة الأبناء وغير ذلك من العواطف، وقد أراد بعضهم تفسير نشأة كل من الدين والزواج والأسرة على هذا النحو**)[1] فالعلاقات الاجتماعية يطغى عليها المعنويات أكثر من الماديات، فالترابط الروحي أهم من الوجود الجسماني، والفكر ناظر إلى المعاني الخُلُقية والأدبية والمعنوية أكثر من نظره إلى تنظيم الشؤون المعاملاتية بين البشر.

أما علم الاجتماع فهو أقرب إلى الآلية التي يضعها منظمو القوانين التي تتعلق باقتصاديات المجتمع وسبل تعاطيه وتوفير مستلزمات الحياة المعيشية له، وهي أبعد عن أدبيات المجتمع، فهو ناظر إلى بناء هيكلية العلاقات الإنسانية المادية، فعلم الاجتماع يبحث فيه عن التطور البشري ومراتب احتياجهم إلى هذه الشريعة أو تلك لإدارة نظام الحياة، أي أنه يُعنى بإدارة المجتمع

---

(١) قواعد المنهج في علم الاجتماع، إميل دوركايم، ص١٧٣.

أكثر من عنايته بمشاكلهم النفسية والروحية والأسباب الحقيقية للمشاكل، فهو مجرد آلة إدارية لتمشية وتسيير أمور المجتمع، يسن لها القوانين، ويخطط لمعالجة مشاكل آنية والتنظير على أساس اقتصادي أو سياسي أو عسكري أو فلسفي، فالعلم يحدد العلاقات من غير مراعاة لحقيقة الانسان وتركيبته النفسية وتفاعلاته ونشاطاته الذاتية.

وبما أن موضوع البحث يتعلق بالإمام الحسن المجتبى عليه السلام في هذا المجال، فلا بد من أن يكون أهل البيت عليهم السلام بما لهم من خاصية التشريع للأحكام وتأديب الناس وتنظيم حياتهم وتربيتهم وتعليمهم منبعاً للعلم والفضل، وهم القادة، فتكون نظرتهم نظرة شاملة وعامة وواسعة، لكن مرتكزهم واحد، وهو القرآن الكريم وسنة النبي صلى الله عليه وآله وما ورثوه من علوم عنه؛ ولذا فكلامنا يكون في الفكر لا في العلم، بل إن علم الاجتماع يدخل في دائرة الفكر، أي أن موضوع الفكر أوسع دائرة من العلم، وموضوع بحثنا الفكر الاجتماعي للإمام الحسن عليه السلام؛ وعليه سنخوض غمار هذا الفكر العظيم لاستجلاء مضامينه العالية ومعانيه السامية.

ولا يمكن لمن يتخصص في علم الاجتماع أن يتغاضى عن دراسة الفكر الاجتماعي في سيرة المعصومين لمزايا حركتهم الاجتماعية الغنية بمفردات العدالة ومساعدة الآخر والإيثار والاقتصاد والتربية وحسن التعامل وإعطاء الحقوق وفرض الواجبات وغيرها من المفردات الاجتماعية التي مارسها أهل البيت عليهم السلام في حياتهم اليومية، وحمل الآخرين على التأسي بهم وصناعة أنموذج إنساني متكامل للاقتداء به.

فقد خاطبوا في كلامهم وأفعالهم الكبير والصغير والرجل والمرأة والحر والعبد والإنسان بكل أصنافه فتركوا كماً هائلاً من القوانين والقواعد المصلحة للمجتمع والمصححة لمسيرتهم الخُلُقية والتربوية وفي جميع الأصعدة للوصول إلى الرفاهية الاجتماعية وتأسيس وإنشاء مجتمع قادر على التعايش السلمي وقبول الآخر والتعامل على أساس الإنسانية، إضافة إلى المشتركات الأخرى التي تجمع أفراد كل جماعة كالقومية أو اللغة أو الدين أو اللون أو العرق أو غيرها، فوضع أهل البيت عليهم السلام قواعد عامة تجمع، ولا تفرق، فكانت سياستهم الاجتماعية أرقى أنموذج اجتماعي وصورة حقيقية

لما يجب أن يكون عليه البشر، سواء في المسلمين أو لغيرهم ممن وجد في سلوكهم تجلٍّ للحالة الإنسانية بجوهرها وبما جبلت عليه وتحقيقاً لقوله تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[1].

نشأة الفكر الاجتماعي:

إن منطقية الإنسان في التعاطي مع قضاياه أفرزت نمطاً من المواقف إزاء الأحداث والوقائع التي تمر به، وهو في ديناميكيته المعرفية يخضع لقانون التساؤل المستمر بكيف ولماذا وما السبب، متنقلاً بين نظريته العقلية وممارسته الخارجية، وهي تختلف من مكان إلى آخر، ومن ظرف إلى غيره، فبعض المجتمعات تعيش حالة البداوة، وبعضها استوطن الريف، والبعض الآخر كوّن مدناً صغيرة، وهذا التفاوت في أنماط المعيشة عكس نوع التفكير لكل فئة.

---

(١) آل عمران: ١٠٤.

شهد الشرق بدايات التحضر المجتمعي، فشهدت مهد الحضارات الأولى في الصين والهند ومصر وبلاد الرافدين وبلاد فارس والرومان فيما بعد، وإنما صارت لها حضارة؛ لأنها أعملت فكرها، وأنضجت تفكيرها الاجتماعي، وبحثت عن سبل التواصل بين أفراد الأمة والبحث عن المشتركات التي تجمعها، فانصهرت العقول في بودقة واحدة، وشرعت ما يفي بحق الجميع، وقد شملت التشريعات نظام الأسرة والقضاء وإدارة الدولة وتنظيم شؤون المجتمع المعاشية في الزراعة والصناعة والحرف وعمليات التبادل والمعاطاة والبيع والشراء والأمن الإنساني، وقد استفادت الحضارات بعضها مع بعض بتواصلها المعرفي والعلمي والثقافي، فصار البناء تكاملياً والتطور أدوارياً، وكان محور هذا كله هو الفلسفة، فالفيلسوف هو المنظر لمبادئ الفكر الاجتماعي والتفريع لمسائله، ثم فيما بعد أصبح للاجتماع علم مستقل يختص بالحركة الإنسانية الفكرية والثقافية.

ودفعت الفلسفة أيضاً للتأمل الذي أو صله إلى الميتافيزيقيا، وبلورت الأفكار الاجتماعية، وعضد الفلسفة القانون الذي أصّل مبدأ العدالة بين

أفراد المكون الاجتماعي إضافة إلى التشـــريعات الدينية التي كان لها دور في بث روح التعاون والتأكيد على الإنسـانية، فالعلاقات الاجتماعية بصـورتها الخارجية ليست أكثر من اجتماع بدني خالٍ من الروح أو الجوهر الذي يعطي المعنى والروحية لهذه العلاقات.

الفكر الاجتماعي اليوناني:

اتسـمت الحضـارة اليونانيـة بالفلسـفة والفلاسـفة الـذين كـانوا يعـدون الآبـاء الـروحيين للشـعب والمنظـرين للقـوانين الحياتيـة لهـم حيـث أن طبقـة الفلاسـفة كانـت هـي الطبقـة الأشرف بـين طبقـات المجتمـع والعقـل المفكـر للأمـة، وانعكـس هـذا عـلى طبيعـة المجتمـع الـذي سـادت فيـه العلاقـات الاجتماعيـة المتناسـقة والحضـارية، وبهـذا تميـز اليونـان عـن سـائر الحضـارات الأخـرى كالهنديـة والصـينية والمصـرية وغيرهـا؛ إذ إن الإغريـق قـدموا عرضـاً تحليليـاً ومنطقيـاً في العلـوم الاجتماعيـة، وأسسـوا للديمقراطيـة التـي تكـافئ بـين الجميـع في الحقوق والواجبـات، وتعطـي صـورة نظـام حكـم عـادل يكـون الحـاكم الحقيقـي فيـه هـو الشـعب، ومـا الحـاكم المـدني إلا موظـف في هـذه

الدولة يقوم بعمله المناط إليه من غير ظلمٍ أو تعسف مع باقي الأفراد.

وقد اشتهر في هذا المضمار اثنان من الفلاسفة الذين كان لهم باع في رسم صورة المجتمع المثالي الذي تصبو إليه كل الأمم، وقد أبدعوا في تنظيراتهم تلك، وهم أفلاطون وأرسطو الذين تجاوزوا مرحلة الفلسفة إلى الحكمة، فكانوا حكماء عصرهم، وقد أسسوا للمدن الفاضلة على أنها تنظيم اجتماعي مبني على أسس منطقية وعلمية، قد سمّاه أفلاطون بالجمهورية إشارة إلى أن الجمهور يشمل مختلف الأديان والقوميات والألوان التي يمكن أن تتعايش مع بعضها بسلام وعدالة على مبدأ التخادم والمصالح المشتركة.

أفلاطون:

من الحكماء الذين أثرت حكمته على المفكرين والفلاسفة، وخصوصاً في موضوع التوحيد حيث يعده البعض أنه من الموحدين من خلال قراءتهم لأقواله ومحاوراته.

عُنـي كثـيراً بنظريـة المعرفـة، وتعـداها إلى نظريـة المثـل والعـالم المعقـول والوجـود وحـدوث العـالم والـنفس الإنسـانية والمنطـق والأخـلاق والفضـيلة التـي تنطلـق حسـب مفهومـه مـن الـنفس والعدالـة المدنيـة والمـدن غـير العادلـة والدولـة التيموقراطيـة والدولـة الديمقراطيـة والاسـتبدادية إلى آخـر مـا جـاءت بـه عبقريتـه الفـذة مـن علـوم ومعـارف ومحـاورات عقلانيـة شـاهدة إلى نشـر الأفكـار العقلانية في النفوس العارفة[1].

فكر أفلاطون الاجتماعي:

يظهـر الفكـر الاجتماعـي لأفلاطـون مـن كتابـه (الجمهوريـة) الذي يبـين فيـه سـلوك الإنسـان وتصـرفاته التـي يجـب أن تكـون عليـه في أنـه إنسـان يعـيش في دولـة أو مـواطن أنمـوذجي في محيطـه الاجتماعـي القـانوني، طـرح أفلاطـون أفكـاره في (الجمهوريـة) بلغـة عالية وبعـد نظـر، قـلَّ مـن يسـتوعبها أو يـدرك معانيهـا، فـإن أفلاطـون قـد سـبق مجتمعـه بمراحـل كثـيرة، فلـم يكـن الانسـجام الفكـري بهـذه

(١) افلاطون، مصطفى غالب، ص٩-١٠.

السهولة حتى أنه يطبق نظريته في المجتمع «**للربط بين عالمي الحق والمثل والنقص والكمال والمادة والمثال إنما يسمو بالفكر الأفلاطوني إلى قمته، ويترجم الإشكالية التي عانى منها أفلاطون، فالأشكال ناقصة في عصره على صعيد المجتمع والفكر والتدليل الحسي؛ لذا فهو لم يستطع أن يخلص المجتمع والعصر من مشاكله**»[1].

هذه المثالية الأفلاطونية هي خلاصة الفكر الإنساني في عصره، والتي تناقلها عبر الأجيال والاتكاء عليها في بناء النظريات الاجتماعية مع الفكر الأرسطي الذي ساهم هو أيضاً في دعم حركة المجتمع والتأصيل لقوانينه المعيشية والقانونية في الحياة.

يمكن تلخيص فكر أفلاطون الاجتماعي في النقاط الآتية:

١- العدالة: ينطلق أفلاطون في رؤيته للعدالة الاجتماعية من مفهوم الشيوع في الدولة العادلة حيث مناعية الأملاك وعدم الانطلاق من الرغبات الشخصية، حتى الزواج من النساء يكون مبدأه هو تكثير النسل وتقسيم المجتمع إلى طبقات ثلاث، هي طبقة الفلاسفة أو القادة وطبقة الجنود وطبقة الصناع، وهي الطبقة

---

(١) تاريخ الفكر الاجتماعي، متعب مناف جاسم، ص١٠٩.

الأدنى، واعتماد أسلوب التقشف وعدم البذخ حيث يتناسق عمل تلك الطبقات على أساس التخادم فيما بينهم وعدم الظلم؛ لأن الظلم يشوه الأشكال الأخرى كافة من الدولة حيث ترتبط العدالة بمفهوم السياسة؛ لأن السياسة تحقق الخير الأسمى عند أفلاطون، والعدالة هي أسمى مفهوم يمكن أن تشكل على أساسه الدولة الديمقراطية عند أفلاطون، والعدالة من أرفع الفضائل الاجتماعية التي يبتني عليها العقد الاجتماعي بين الشعب والدولة، حيث يعرف أفلاطون العدالة بأنها «**الصدق في القول والوفاء بالدين ومساعدة الأصدقاء والإضرار بالأعداء، وهذا يعني اتفاق أعمال الإنسان مع التقاليد الجارية**»[1].

ومن هنا تنشأ القوانين والاتفاقات المتبادلة، فيسمون ما يأمر به القانون أمراً مشروعاً عادلاً، فهي حل وسط أو توفيق بين خير الأمور.

ويعرف الدولة بأنها «**ما دامت حاجاتنا عديدة، وما دام من الضروري وجود أشخاص عديدين للوفاء بها، فإن المرء يستعين**

---

(١) أفلاطون الجمهورية، ص١٨٢٢.

بشخص من أجل غرض من أغراضه وبغيره من أجل تحقيق غرض آخر وهكذا، وعندما يتجمع أولئك الشركاء الذين يسعد بعضهم بعضاً في إقليم واحد نسمي مجموع السكان دولة»[1].

إذن التكافل الاجتماعي وإدراك أن الكل محتاج إلى الكل في المعيشة وتنظيم الأمور يملي عليهم ضرورة تشكيل تنظيم لإدارة أمورهم، سمَّوه الدولة، فمكونات الدولة عادة تشمل المزارع والصناعي والحرفي والنساج وغيرهم من الأصناف التي تضفي بمجموعها صورة متكاملة للحالة الحياتية للعيش المتضامن، فكل شخص منها عبارة عن مشروع حياة يفتقر إلى غيره في الاستمرارية، وهؤلاء يمثلون الطبقة الثالثة، وبالضرورة أيضاً أن هذا النظام يحتاج إلى حماية أمنهم وممتلكاتهم وحقوقهم، وهو دور الطبقة الثانية، وهي طبقة المحاربين والجنود، وهم من يتمتعون بخاصيات وقابليات تؤهلهم لخوض المعارك الخارجية ودفع الخطر الذي يحيط بهم، ويجب ان يتمتعوا باللين والشدة لكي يظهروا الوداعة مع مواطنيهم والشدة على أعدائهم.

---

(١) افلاطون، الجمهورية، ص٢٣٣.

ومن ثم يأتي دور الطبقة الأولى، وهم الحاكمون أو الإداريون المشروعون والمنظمون لأمور الدولة، وهي التي يتوقف عليها خلاص الدولة واستقامتها، ويجب على الحاكمين أن يتمتعوا بالحكمة واللياقة والذكاء والقدرة، ويكون اختبارهم من بين الآخرين على أساس إخلاصهم وحماستهم للقيام بما يرونه نافعاً للدولة، ويأبون أن يفعلوا بأي ثمن ما يتعارض والصالح العام[1].

ثم يقرر أفلاطون العدالة بأن الفضيلة والعدالة تقتضي أن يكون كل من الأطفال والنساء والعبيد والأحرار والصناع والحاكمين والمحكومين يؤدي عمله دون أن يتدخل في عمل غيره، وعدم الاعتداء والتعدي على ممتلكات الآخرين وحقوقه، وأن يوضع كل شخص في طبقته الصحيحة، فلا المزارع يكون حاكماً ولا الجندي يكون صانعاً، بل تأخذ الحياة مجراها بحسب قابلية كل شخص مما يؤديه، فسينتج مجتمع فاضل وحكومة أو دولة عادلة تضمن الحقوق للجميع من دون تفريط، ويكون الحكم فيها للشعب هذه باختصار فكرة أفلاطون عن العدالة الاجتماعية من الناحية الاقتصادية والناحية الإنسانية والنفسية.

---

(١) أفلاطون، الجمهورية، ص٢٩٥.

«أن تحصر الملكية في حدود معقولة، بحيث لا يثري الشعب، فيتهاون في العمل، أو يتركه، ولا تسوء حاله، فيعوزه المال للصناعة والتجارة، ولا يثري البعض دون البعض، فينقسم طائفتين متنابذتين، الأغنياء والفقراء، وهذا الانقسام آفة الدول غير المنظمة»[1].

بهذه الرؤية يطرح أفلاطون نظرته للعدالة الاجتماعية التي هي أساس انتظام أي مجتمع وسبب رفاهيته وتطوره واستقامته.

٢- سلوك الإنسان:

إن من أبرز مبادئ نجاح الدولة معرفة الإنسان سلوكه فيها على أنه مواطن صالح له ما له، وعليه ما عليه، فعند أفلاطون تنشأ الحاضرة من الحاجات واكتشاف الوسيلة العقلانية لإشباعها، وهذه الوسيلة هي تقسيم العمل وتوزيع الوظائف بما يناسب كل فرد من تلبية الحاجات للآخرين من مأكل أو ملبس أو مسكن، فالاختصاص سبب في نجاح العمل وكثرة الإنتاج، ان طبيعة التنوع البشري قاضية بتفاوت الأفراد وعدم التشابه بينهم، لكن وحدة المجموع تحقق ذات المجتمع على أنه كيان واحد متجانس.

---

(١) أفلاطون، مصطفى غالب، ٨٦.

ويحتاج الفرد في المجتمع لتنظيم نفسه بإنشاء المراكز التعليمية ووضع قواعد إدارة الأسرة ومعرفة كل فرد وظيفته وسلوكه خلال تلك التداخلات فـ«**إن افلاطون -وفي محاولته بناء مجتمع جديد- إنما طمح إلى الدمج بين التنشئة الاجتماعية (وظيفة العائلة) وبين التنشئة السياسية (وظيفة الدولة) لكي يتجاوز التقاطع بين العائلة والدولة**»[1].

يبحث أفلاطون عن مكامن الخير والصلاح في الإنسان والدفع نحو تكوين مجتمع صالح معتدل باحث عن الحقيقة، ويستمتع باللذة المشروعة دون الملذات الصاخبة، ويقبلا الملذات الصادقة العفيفة.

إذن سلوك الإنسان مهم في نظرية أفلاطون في صناعة مدينته الفاضلة والارتقاء بها على مستوى التعليم والفنون والجمال واحترام المقابل.

٣- الفضيلة والأخلاق:

إن قوام المجتمع الفاضل هو ما يمتلكه من أخلاق وفضيلة تقوم ذاته، وترجح رأيه، وتقاوم ملذاته، فتحوله إلى كائن اجتماعي

---

(١) تاريخ الفكر الاجتماعي، متعب مناف جاسم، ص١١١.

منضبط بجميع المعايير، و«**يرى أفلاطون أن الفضائل ثلاث، تدير قوى النفس الثلاث، الحكمة فضيلة العقل، تكمله بالحق، والعفة فضيلة القوة الشهوائية، تلطف الأهواء، فتترك النفس هادئة والعقل حراً، ويتوسط هذين الطرفين الشجاعة، وهي فضيلة القوة الغضبية التي تساعد العقل على الشهوانية، فتقاوم إغراء اللذة ومخافة الألم**»[1].

يعد أفلاطون الفضيلة هي المحرك للإنسان لاستكمال سجاياه النفسية وتربية نفسه ذاتياً ليحيا حياة طيبة مسؤولة، فيكون القانون وسيلة لتنظيمه، وليس غاية لعقابه أو إثابته، وبهذا لا يحتاج إلى أن يبحث عنه القانون، بل هو من سيقدم نفسه للقضاء إذا أخطأ، ويطلب العقاب، ولا يتهرب منه، فالتكفير هو أفضل الخيرات بعد البرّ. فالفضيلة علم، والفاضل هو الحاصل على العلم بالخير، فنظره شاخص إلى الخير المطلق، إذن الفضيلة والأخلاق متلازمان، يسدد بعضهما البعض، فالفضيلة تصنع الأخلاق التي تحرك الإنسان إلى

---

(١) أفلاطون، مصطفى غالب، ص٦٩.

تصحيح مساره الاجتماعي، وتجعل منه مواطناً أنموذجياً في المدينة الفاضلة.

والأخلاق التي يوجه نحوها أفلاطون هي الحب، فكل شخص يحب سد الحرمان والنقص الموجود عنده، ومن يفتقد الحب فهو شخص قلق دائماً، والحب في استكمال النقصان قد يكون في جمال الأبدان أو النفوس على السواء، باعتبار أن الإنسان مكون من روح وجسد؛ إذ فطرة الإنسان الخلقية متحركة في وسط من الإرادة والحرمان إلى الفضل والكمال.

وبمجموع الفضيلة والأخلاق سيتجه الإنسان تلقائياً نحو العدالة الاجتماعية التي هي غاية أفلاطون في بناء مدينته الفاضلة ومجتمعه الإنساني الفاضل.

هذا مجمل أفكار أفلاطون الاجتماعية في نظرياته الفلسفية، وقد فتح الباب لمن بعده من الفلاسفة لطرح آرائهم الاجتماعية وإصلاح الأمم إفاضة المعاني السامية المفعمة بمضامين الإنسان وجوهره النقي وفطرته السليمة وما يتلقاه من امداد سماوي بأي شكل كان.

فكر أرسطو الاجتماعي:

يعد أرسطو وريث المدرسة الأفلاطونية الفلسفية وإن كان قد خالفه في بعض مبادئه المثالية، إلا أنه اتفق معه في اعتبارية الإنسان على أنه الكائن الأساس في الحياة، وهو محور الطبيعة الملتفة به والمهيَّأة من أجله بشرط أن يحسن التصرف بها؛ لأنه مدار الأحداث والمتسلط بعقله على مد الجسور مع كيانه الاجتماعي وطبيعته البيئية.

يرى أرسطو أن التجمعات تتكون لكي تسعى نحو غاية معينة، ولما كانت الدولة هي أعظم هذه التجمعات وأشملها فلا بد أن تكون الغاية التي تسعى إليها هي الأعظم، وهذه الغاية هي الحياة الخيرة كما على مذهبه الخلقي في بناء مدينته الفاضلة.

فالإنسان بطبيعته كائن سياسي يسعى إلى حياة خيرة سعيدة، وهي تكمن في دوافعه الغريزية نحو السعادة والرفاهية، إضافة إلى توظيفه للبيئة الخارجية والموارد الطبيعية ووجوده ضمن أفراد نوعه الذي يحتاج إليهم للاكتفاء الذاتي، فلا يوجد إنسان يستطيع العيش وحيداً وصناعة حياة متكاملة إلا بتظافر جهوده مع الآخرين.

أبرز آراء أرسطو الاجتماعية:

١. الأسرة:

عُني أرسطو بالأسرة عناية بالغة على أنها الوحدة الاجتماعية الرئيسة في الدولة، وهي الخلية الحية المولدة لطاقة المجتمع، ومجموعة الأسر هذه التي تكون المجتمع هي وحدات منفصلة، وتكون بمجموعها القرية الصغيرة التي تنضم إلى قرى أخرى، فتكون الدولة، وتكون منفصلة في الوظائف، فلا بد من فكرة عامة توحد الجهود، سمّاها أرسطو الحكومة، وهو بهذا يخالف أستاذه أفلاطون الذي اعتبر أن الفرد هو الوحدة الرئيسية.

ويقرر أرسطو العلاقات الأسرية التي تربط بين أفراد الأسرة، وهي علاقة الزوج بالزوجة وعلاقة الآباء بالأبناء والعبيد بالسادة، وهذه الأسرة تكفي نفسها مؤقتاً، أما إذا ارتفعت الحاجات إلى ما بعد الحاجات اليومية فإنها في مثل هذه الحالة تكوّن مع غيرها من الاسر القرية، وإذا تعددت حاجات القرية احتاجت إلى غيرها من القرى، فتتكوَّن عن ذلك دولة، فالدولة كائن عضوي يجمع في نفسه

خلايا كثيرة، هي الأسر، ولكن الصلة بين هذه الأسر والدولة ليست صلة فردية[1].

يعتقد أرسطو أن الدولة هي المسؤولة عن تنظيم العائلة من حيث ترتيب شؤونها وتنظيم علاقاتها الشخصية والعامة من أجل الحرص على بقائها ونموها وسعادتها، ويجب أن يكون الرجل هو سيد العائلة؛ لأنه الأكثر ذكاءاً ومقدرة على أداء الأمور وإدارتها، وشجع على ضبط النسل تحت إشراف الدولة، ويصنف الأسرة تصنيفاً هرمياً، حيث يضع الرجل على قمة الهرم، ومن بعده الزوجة والأطفال، وهذا التصنيف خاضع إلى نظرة أرسطو في طبيعة الأفراد وقواهم الممنوحة لهم، سواء الذهنية أو العضلية، وكل فرد هو آلة إنتاجية للحياة، فالرجل مسؤول عن العمل وتوفير سبل المعيشة والمرأة وظيفتها العناية بالأولاد والمنزل، والعبيد عليهم العمل وتحصيل الثروة.

ونرى عند أرسطو وجود الطبقية الاجتماعية، فتصنيفه للأفراد على أساس أحرار وعبيد يرجع إلى نظرته الفلسفية في أن

---

(١) أرسطو، عبد الرحمن بدوي، ص٢٦٥.

الطبيعة البشرية تقتضي التفاوت، ولكنه بالمقابل يوصي بحسن معاملة السيد مع عبده في معاشرته وعدم توجيه الظلم له، بل إنه يرتقي إلى مفهوم أن ابن العبد لا يكون عبداً بالوراثة، فالحرية والعبودية أمر نسبي يرجع إلى تنظيم المجتمع وتحويله إلى خلية حيوية متكاملة.

إذن يضع أرسطو صورة مختلفة للمجتمع عن أفلاطون أكثر حيوية وجدارة وواقعية.

٢. الأخلاق:

من المبادئ الهامة التي يعتمدها أرسطو في فلسفته الاجتماعية موضوع الأخلاق وامتداداتها من الخير والشر، فالخير سبب للسعادة التي يطمح إليها كل إنسان وبالعكس، فإن الشر هو الدوافع غير الخيرة في الإنسان ومشكلة أي نظام اجتماعي فاضل، فالأخلاق ترتبط بالسعادة ارتباطاً وثيقاً بواسطة صفات الشجاعة والاعتدال والعدالة والفضائل النفسية والعقلية، والفعل الخُلُقي هو الذي يعطي للفضيلة صورتها وشكلها، وكل ما هو بالقوة إنما

يكون في حالة سكون وكمون، ويكون أقل درجة من الفعل[١]، ويقسم أرسطو الأخلاق إلى أخلاق فردية وأخلاق أسرية وأخلاق المدينة، وهي مترابطة بعضها مع البعض، وهي أشبه بالقوانين المحددة لطبيعة كل فئة بما ينظم سلوكها مع الفئات الأخرى.

والسعادة تكمن في التفكير الصحيح المبني على الحكمة فـ«**إن خير الإنسان وكمال وجوده في ممارسة حياة الحكمة والتأمل على أكمل وجه من حيث أنه كائن ناطق، أي أن سعادة الإنسان إنما تعود إلى استمرار الفعل الأكثر التصاقاً بطبيعته الناطقة، ويرى أرسطو إذا كانت السعادة هي الفعل المطابق للفضيلة فمن المعقول أن تكون مطابقة لأسمى فضيلة، وستكون هذه الفضيلة أحسن شيء فينا**»[٢].

فالأخلاق إذن علم عملي، وهي جزء من العلم السياسي كما يقرره أرسطو، ولا يقدح هذا بقيمة الأخلاق، والدولة قادرة على تحقيق الفضيلة للمجتمع؛ لأن الغاية واحدة وإن كان الناس

---

(١) الفلسفة نشأتها وتطورها، نازلي إسماعيل حسين، من كتاب أرسطو أستاذ فلاسفة اليونان، ص٥١.

(٢) أرسطو، مصطفى غالب، ص١٣٧.

يختلفون في معايير الخيرات بحسب ثقافتهم وإدراكهم، إلا أن الدولة تبقى هي المشروع لما فيه صلاح الجميع وتحقيق العدالة للكل بما يناسب السلوك الخُلُقي الموحد للجميع.

ينظر أرسطو إلى السعادة على أنها كمال الفعل، وهي اللذة الحقيقية للإنسان، و«**تمتاز الأخلاق اليونانية على أنها أخلاق سعادة لا أخلاق واجب، فإذا كانت هذه الأخلاق تضع قواعد يجب على السلوك الإنساني أن يسير وفقاً لها، فنقول له: افعل هذا؛ لأنه واجبك، فإن الأخلاق عند أرسطو التي هي مبعث السعادة أن تقول له: افعل هذا؛ لأنه يؤدي إلى سعادتك، فالخير والسعادة في الأخلاق اليونانية بوجه عام شيء واحد**»[1].

فإن سعادة المجتمع الخُلُقية هي الوصول إلى السلوك الكامل بالأفعال الخيرة التي يقوم بها أفراد المجتمع في الدولة للوصول إلى مجتمع إنساني يجد في داخله اللذة الشعورية بالكمال الممكن بالنسبة إلى الكائن أو إدراك الملائم بما هو ملائم، ويصف أرسطو اللذة بأنها كالتاج الذي يعلو هذا النشاط، أي أنها ستكون شيئاً مضافاً فاعلياً

---

(١) أرسطو، عبد الرحمن بدوي، ص٢٥٥.

بالفعل، وينظر لها على أنها الخير الأسمى، فيشيد باللذات الحسية المألوفة كالثروة والفن والتعليم وغيرها.

«ويصبح خير الإنسان كما يرى أرسطو في فعل النفس الناطقة المطابق للفضيلة، فإذا كانت هناك أكثر من فضيلة واحدة، فإن هذا الفعل يكون مطابقاً لأسماها وأكثرها كمالاً طوال الحياة»[1].

٣. العدالة:

إن مبدأ العدالة هو من أبرز المبادئ لأي مجتمع وأي حكومة أو دولة تبحث عن سعادة أفراد شعبها، بل هي العنصر الأساس لنجاح أي مجتمع لتحقيق ذاته وإنجاح مشروعه التعايشي الذي يعطي لكل ذي حق حقه بما يستحقه ومن غير أن يؤثر على حقوق الآخرين، ومن هذا المنطلق دافع أرسطو في نظريته عن مبدأ العدالة التوزيعية التي تتحقق عندما يتلقى كل فرد النصيب الذي يستحقه بما هو فرد فعال في المجتمع.

إن موضوع العدالة من أبرز المسائل التي تناقشها الفلسفة السياسية، ولكن اختلفوا في مبدأ الأفضلية في العدالة باعتبار

---

(١) أرسطو، مصطفى غالب، ص١٣٧.

التفاضل بين الناس في الثروة وفي النسب وفي النبل والجمال أو من حيث العلم أو العمل، فعلى أي أساس تقوم العدالة؟

«**يعتقد أرسطو أنه يجب أن يعطى امتيازاً خاصاً لشرف المولد والحرية والثروة؛ لأن الأفراد الأحرار هم أعضاء الدولة، ولن تكون هناك دولة إذا كان الكل فقراء أو الكل أرقاء**»[1]، ونرى أن أرسطو لا ينطلق من مبدأ المساواة بين أفراد الدولة؛ لأن المساواة تقتضي أن يكون الكل أمام الدولة سواء، من غير عنصر يميز شخصاً عن شخص، وهي ظالمة في نظر أرسطو، فالمساواة غير عدالة فللعدالة مفهوم آخر غير المساواة، وهي مقتضى الطبيعة الاجتماعية التي يتمايز فيها أفراد الشعب، فلا يمكن أن نساوي بين الحر والعبد أو بين الثري والفقير، فإنه خلاف العدالة الطبيعية، ويقسم أرسطو العدالة إلى عدالة طبيعية وعدالة قانونية وعدالة سياسية، وهي بمجموعها تحقق العدالة بالمعنى الأسمى التي هي العدالة الإصلاحية التي تنشر الإنصاف بين الناس، فالعدالة القانونية

---

(١) أرسطو أستاذ فلاسفة اليونان، فاروق عبد المعطي، ص١٤١.

تضع الجميع أمام القانون سواء، والعدالة السياسية ناظرة إلى مكانة الفرد الاجتماعية واستحقاقه، والعدالة الطبيعية بما يملكه كل فرد من إمكانات، وهي متداخلة مع بعضها، فيجب أن يكون هناك صيغة تتوافر على اقسام العدالة وتوازن بينها بصيغة جديدة تحمل طابعاً خُلُقياً إنسانياً اجتماعياً، ينهض بالمجتمع إلى مكانة أسمى وأعلى، وتحقق السعادة للجميع وبإشراف الدولة الفاضلة.

٤. الصداقة: يرى أرسطو أن موضوع الصداقة مهم في حياة الإنسان، فكل فرد بحاجة إلى أصدقاء، يشاورهم، ويرتكن إليهم في وقت الشدة، وهي امتداد لحرص المرء على ذاته كي يعيش حياة خيرة، ويرى أرسطو في الصداقة حالة تكاملية وضرورية للفرد، فاستئناس الآراء مع الآخرين سبب في تحقق السعادة للفرد بوصوله إلى كمال الرأي السديد والفكرة الناضجة، وهي من معاني الفضيلة عند الإنسان، فالصداقة يحيى بها في مجتمعه، ويميز أرسطو بين ثلاثة أنواع من الصداقة هي صداقة الفضيلة وصداقة المنفعة وصداقة اللذة، لكنه يخلص إلى قانون يجمع هذه الصداقات الثلاث تحت عنوان اجتماعي واحد هو الصداقة التي تحقق الخير والسعادة

للإنسان في حياته ضمن المجموع، وهي من المعاني السامية التي تمسك بها أرسطو في فلسفته.

٥. القضاء:

لعل من أساسيات نجاح أي مجتمع هو رضوخه لسلطات الدولة، سواء كانت التشريعية أو الحكومية أو القضائية، وهي الأهم؛ لأن سلطة القضاء هي المسؤولة عن إحقاق الحقوق ورد المظالم والحفاظ على توازن المجتمع وروح العدالة فيه، وأكد أرسطو على دور القانون إيقاناً منه أن الدولة إذا لم يكن فيها قانون، يحاسب، ويعاقب، فإن الدولة ستكون مسيسة، ولا يمكن ضمان أنها تصمد بوجه الفاسدين فـ«**إن حكم القانون خير من حكم الفرد، وإن من يعهد بالسلطة العليا لإنسان أياً كان، إنما يعهد بها إلى وحش من الوحوش؛ لأن شهواته تجعله في بعض الأحيان وحشاً، وللعواطف أثر كبير في من يتولون السلطة ولو كانوا خير من يتولاها، أما القانون فهو العقل مجرداً عن الشهوة، والدولة المقامة على هذا النظام تتولى تنظيم الملكية والزواج والأسرة والتعليم والأخلاق والموسيقى والأدب والفن**»[1].

---

(١) قصة الحضارة، ويل ديورانت، ج٢، ص٥١٣.

ويقسم أرسطو المحاكم إلى عدة أصناف بحسب وظيفتها الاجتماعية، فمنها لتصفية القضايا العامة، ومنها محاكم مدنية، ومحكمة لقاضي القتل، ومحكمة لما يلحق من أضرار في الدولة، ومحكمة فيما يتعلق بالدستور، وهو تقسيم يدل على نظرة أرسطو المدنية ونزوله إلى أدق التفاصيل في إنشاء الدولة، بل حتى القضاة يتم اختيارهم بدقة عالية وبشروط موضوعية توحي باهتمامه العالي بالحالة الاجتماعية والحفاظ على الهوية الإنسانية فيها.

لقد وضع أرسطو نظاماً قضائياً كاملاً من حيث اختيار آليات القضاء وكيفية تقديم الدعوى وجلسات المرافعة وسماع المتخاصمين والشهود بعناية فائقة، حتى ساعات العمل حددها أرسطو، وبما يناسب العمل في أوقات معينة من اليوم، وجعل محافل القضاء تتألف من خمسة أعضاء، وفي الدعاوى العامة ألف قاض وغيرها من التفاصيل التي عُني بها أرسطو كثيراً لتفعيل دور القانون المدني في دولته وتكوين مجتمع أنموذجي في جميع مجالات حياته، سواء المعيشية أو التربوية أو الخُلُقية أو القانونية، وهي ما

امتـدت فـيما بعـد لتكـون مبـادئ لوضـع قـوانين ودسـاتير الـدول المتحضرة المدنية.

هذه مـن أبـرز أفكـار أرسـطو الاجتماعيـة التـي ركـز عليهـا والتـي سـلطنا الضـوء عليهـا باعتبارهـا مـن أقـدم النظريـات في المجـال الاجتماعـي لأنضـج فكـر في ذلـك الوقـت، وهـو الفكـر الفلسـفي اليوناني المتمثـل بعمالقـة هـذا الفـن، وهـم سـقراط وأفلاطـون وأرسـطو والذين قـدموا نظـرات اجتماعيـة مميـزة في أفكارهـا وأسـاليبها؛ لمـا كـانوا يرونـه مـن ظلـم وجهـل وضـياع لحقـوق في محـيطهم الاجتماعـي، فسـارت فلسـفاتهم باتجـاه وضـع أسـس الحيـاة السـعيدة التـي يحلـم بهـا كـل فـرد أو مجتمـع أو أمـة، وهـي غايـة التفكـير البشـري الطـامح للوصول إلى كمالاته الإنسانية.

رواد علم الاجتماع:

احتـاج علـم الاجـتماع إلى مراحـل زمنيـة عديـدة ليصـل إلى نضـوجه كعلـم مسـتقل عـن الفلسـفة وإن كانـت الفلسـفة هـي روح علـم الاجـتماع، إلا أنـه أصـبح لـه مسـائل وفـروع ميزتـه عـلى أنـه علـم

مستقل وظل يتدرج حتى أصبحت له شخصيته الخاصة بسبب عناية علماء الفكر الاجتماعي، إذ أن أبرز ما كان يشغل بال الأمم وما زال هو إيجاد مجتمع ناضج متكامل، فدأبوا على دراسة وتحليل المجتمعات والأمم للوصول إلى حقائق التناسق الاجتماعي والتوافق الذي يجمع الناس على آراء موحدة وسلوك واحد؛ ولذا خاض علماء الفكر الاجتماعي التجارب الكثيرة، ومزجوا بين الفلسفات القديمة ومكتشفاتهم مع تطور الوضع الاجتماعي، واستنبطوا نظرياتهم في سبيل إصلاح المجتمع والأخذ بيده للعدالة والسعادة والامن والطمأنينة.

وكانت مراحلهم عبارة عن عمل تكاملي حيث يبدأون من حيث انتهى الآخر، وقد نجحوا تارة، وفشلوا أخرى، خصوصاً بعد الأحداث والحروب المريرة التي مرت بها المجتمعات والأمم والتي أزهقت فيها الأرواح، وأفسدت فيها البلاد، وضاعت بها الثروات، فشهد الفكر الاجتماعي انتكاسات كثيرة، ولكن هذا لم يثن علماء الفكر الاجتماعي عن مواصلة تصديهم للإصلاح الاجتماعي وسد الثغرات السلبية لإنجاح المشروع الاجتماعي

الباحث عن السلام والاستقرار وإن تنوعت الأفكار، وتباينت المبتنيات، واختلفت مصادر الاستنباط، إلا أن الهدف كان واحداً، وهو إيجاد صيغة قانونية فلسفية علمية لإدارة المجتمع وضبط سلوكه من الناحية الاقتصادية والسياسية والقانونية والخُلُقية والسلوكية وغيرها من أنماط الحياة المتعددة.

وسنذكر بعض رواد علم الاجتماع الذين ساهموا في وضع النظريات الاجتماعية، وبغض النظر عن انتماءاتهم الفلسفية أو الدينية أو العقَدية، فالكلام يخص موضوع علم الاجتماع مجرداً عن أي صلة أخرى على أنه فكر مستقل يدرس طبيعة المجتمع، وغايته وضع الحلول المناسبة لمشاكله ورفع معاناته وتحقيق سعادته، سواء كان الباحث موفقاً أم لا، فغايته هي الهدف، وهي إسعاد المجتمع.

١_ أوجست كونت: (١٧٩٨ – ١٨٥٧) م

عالم فرنسي كان مدرساً للرياضيات والطبيعيات، من أعماله (دراسة في الفلسفة الوضعية) وله مؤلف (مذهب في السياسة الوضعية) في أربعة مجلدات، طبق فيها مكتشفاته في علم الاجتماع

النظري، وله كتاب مشترك مع (سان سيمون) باسم (خطة العمليات العلمية اللازمة لإعادة تنظيم المجتمع).

عاش كونت إبان الثورة الفرنسية وما عاصرته من أحداث واكتشافات غيرت وجه المجتمع جذرياً حيث شهدت مرحلته انفجاراً صناعياً وتوجهاً علمياً، والذي شهد تخبطاً بين النظام والسلم، حيث أججت هذه الثورة الصراعات الاجتماعية بين بلدان أوروبا، فظهرت الآراء الإصلاحية للمجتمع الذي وقع في تهافتات الأفكار المتضاربة في فرض السيطرة على الأمم بالتعسف للالتزام بالنظام، فظهرت العقول المفكرة، وكسبت فكرة التقدم أرضية أوسع، وانفتحت آفاق مستقبلية أوسع للإنسان، وشرعت هذه العقول بتقديم تصوراتها عن النظام الاجتماعي الأمثل، ومن هؤلاء أوجست كونت الذي رفع شعار (التقدم هو تطوير النظام).

وقد أضاف أوجست إضافتين رئيستين في الفكر الانساني عامة والاجتماعي خاصة، وهو الطابع الإنساني والاجتماعي في الفكر.

استفاد أوجست من تلمذته على يد أستاذه (سان سيمون)، وكان هو الملهم له في أبحاثه الاجتماعية وترك أثره على منهج تفكيره، بل اعتمد سيمون على أبحاث أوجست في كثير من الأعمال العلمية والتدريسية لما كان يلمسه عنده من نبوغ، تأثر كونت بعدة فلاسفة وبأفكارهم الاجتماعية أمثال أرسطو ومونتسكيو وكوندرسيه، وكانوا مؤثرين في صياغته الفكرية لنظرياته الاجتماعية، كان للثورة الفرنسية أثرها البالغ في حياة كونت الفكرية لما شهدته من تغيرات وتقلبات اجتماعية ومنشأ إيمانه بالتقدم وتوجيهه توجيهاً علمياً غير متأثر بمتغيرات السياسية، بل كان همه هو ما طرأ على المجتمع من تداخلات أدت إلى فوضى عارمة بين المادية والقيم الاجتماعية.

أبرز مساهمات كونت في الفكر الاجتماعي:

١. اختط كونت لنفسه منهجاً اجتماعياً واضعاً أسساً جديدة في بنائه لعلم الاجتماع، حيث استخدم طريقة الاستقصاء للمشاكل الاجتماعية، فعُني بسمو العقل الإنساني، فكان رائداً في وضع العلوم الاجتماعية في مسارها الصحيح، ناظراً إلى أن العلم هو ما

تدركه حواسنا من حوادث طبيعية من فيزياء وكيمياء وميكانيك، وأن الفوضى العقلية راجعة إلى التناقض في التفكير العقلي في تفسير الظواهر الطبيعية والتفكير الديني الميتافيزيقي المتعلق بالإنسان والمجتمع؛ مما أدى هذا إلى الفساد في الأخلاق والسلوك فـ«**لقد وظف كونت توجهه الخاص بتأكيد أهمية الحقائق الملاحظة، والتي عد فيها الملاحظة هي القاعدة الأساسية للعلم كله في مجال العلم الاجتماعي، وذلك أثناء تحوله إلى علم وضعي إلى الحد الذي جعل فيه التخيل في مراحل دنيا قياساً بالملاحظة**»[1]، أي أن كونت كان واقعياً أكثر من كونه مثالياً في معالجة المشكلات الاجتماعية التي واجهها موافقاً بين العلم والدين في تفسير الأشياء ووضع الحلول.

٢. نظرية التقدم:

يرى كونت أن التقدم الحاصل في المجتمع هو عملية مقننة، وليست عشوائية أو ناتجة عن اضطرابات غير محسوبة، وأنّ كل تقدم حاصل في المجتمع يرجع إلى سببين، الأول مادي، والثاني تطور الانسان عقلياً وبدنياً، وأن علم الاجتماع -الذي يعد نفسه

---

(١) تاريخ الفكر الاجتماعي، متعب مناف جاسم، ص٣٥٠.

مؤسساً له- يتصوره كونت من جانبين، حركي وسكوني، أما السكوني فإنه يرى أن العناصر الاجتماعية مرتبطة فيما بينها ارتباطاً وثيقاً في وفاق اجتماعي بحيث يستحيل أن يتغير جزء من أجزائه تغيراً جذرياً دون أن تترتب على ذلك آثار خطيرة على المجتمع بأكمله، وأما ما يتعلق بالنوع الثاني -وهو الحركي- فقد رأى كونت أن التطور العقلي هو العلة الرئيسة للتغير الاجتماعي وأن المجتمع الإنساني -بناء على ذلك- يمر بنفس المراحل اللاهوتية والميتافيزيقية والعلمية الوضعية التي تمر بها العلوم؛ وعلى ذلك فقد كانت هناك بادئ ذي بدء مرحلة من الحكم الديني، وهي مرحلة تقليدية، اتسقت فيها السلطة بعد ذلك بين قوة الملوك الدنيوية وقوة الكهنة الروحانية، وفي المرحلة الميتافيزيقية حدث نوع من الفوضى، تعرضت فيها كل من السلطة الدنيوية والسلطة الروحانية للهجوم على أن مرحلة الانتقال تعقبها المرحلة الوضعية حينما يكون رجال العلم قوة روحية جديدة، حينئذ يقام مجتمع منظم على أساس التعاون الذي ستؤدي إليه المعرفة الوضعية بالوقائع الاجتماعية[1].

---

(١) الموسوعة الفلسفية المختصرة، ص٢٦٦-٢٦٧.

إذن يرى كومت أن مظاهر الفوضى الخُلُقية والاجتماعية ترجع إلى الفوضى العقلية؛ ولذا قسم إلى الساكن والمتحرك، أي المستقر والمتغير، وأن نظرية التقدم تشير إلى تطور اجتماعي حدث ابتداءً من المرحلة اللاهوتية ثم المرحلة الميتافيزيقية والمرحلة الوضعية التي يتوقف الفكر فيها عن تعليل الظواهر، ويبدأ بوضع قوانين للعلاقة بين الأشياء عن طريق الملاحظة والاستقراء والتجربة الحسية موافقاً بين العلم والمرحلة الوضعية، ويساعد على فهم الإنسان، وسمّاه بعلم الاجتماع.

٣. الإنسان:

آمن كونت بالإنسان على أنه هو الوحدة الرئيسة الذي تقوم عليه الحياة، فكان يخلد كل من أحسن إلى الإنسانية، ويرى كونت «**أن المجتمع العلمي قد يصيبه تحلل الفناء إذا لم تتوافر فيه العواطف التي توحد بين أفراده، وإن النشاط العلمي ذاته يتضمن نتائج أخلاقية، ومن هنا اعتقد أن الخضوع لوقائع الطبيعة يكبح جماح الأنانية وإن التسليم بحجة علمية لذي قرابة تصله بالعدالة**»[1].

---

(١) الموسوعة الفلسفية المختصرة، ص٢٦٧.

إن نظرية طبيعة الفرد الإنساني لازمة لعلم الاجتماع حيث يرى كونت أن الفرد نتاج المجتمع، وهو بدوره ممثلاً للجماعة، وهو يكتسب شخصيته المعنوية من المجتمع، فإذا ما سلبه المجتمع عقله وأخلاقه وخصائصه الاجتماعية أصبح مجرد جسم ذي طاقة طبيعية، وقد قسم كونت طبيعة الإنسان إلى فردية أنانية وخيرية الطابع، فإما أن ينمي الجانب الأناني فيه فيصبح شريراً، أو ينمي الجانب الخير؛ فيصير إنسانا خيراً نافعاً في المجتمع، وهذا يكون بحسب استعداداته أو غرائزه الداخلية، وبهذا يتحدد سلوك الفرد، إذن الفرد أو الإنسان عند كونت كائن طبيعي ينتمي إلى جماعته، فيؤثر فيهم، ويؤثرون فيه مكونين عقلاً جمعياً واحداً، يحدد سلوكهم الخُلُقي والسياسي والاقتصادي، ويعطي هوية المجتمع.

٤. الأسرة:

اعتمد أغلب علماء الاجتماع على الأسرة على أنها الخلية الاجتماعية الأولى المكونة للمجتمع، وهذه الأسرة تبدأ بالرجل والمرأة ثم الأولاد، ثم تتوسع إلى الأقارب والأصدقاء، فتكبر، وتتسع فـ«**العائلة تمثل الوحدة الاجتماعية الحقيقية، والتي انطلق**

منها المجتمع في نموه، هذه الوحدة أو الجماعة الصغيرة التي وجدت الاستعداد الأوليّ والعاطفة الإنسانية لها القدرة على إدامة وتوسيع كيانها مما يمكن المقارنة بينها وبين خلية الجسم البيولوجي، فالزواج المدفوع بالاستعداد والعاطفة والذي يتخذ الشكل الأحادي الذي كرسته الطبيعة الإنسانية وعن طريق العائلة بصفتها وسطاً يمكن أن يتعلم الفرد فيه كيف يعيش مع الآخرين»[1].

لذا يؤكد كونت على أثر العائلة في الاستقرار الاجتماعي كما يوعز إلى الحفاظ على توازن الأسرة وعدم ارباكها بالطلاق أو بأنانية الأفراد وإعطاء كل فرد عمله، فالرجل مسؤول عن نشاط العائلة الخارجي وتنظيم شؤونها، والمرأة عملها منح العاطفة وتنظيم الأسرة داخلياً. هذه باختصار فكرة كونت عن العائلة أو الأسرة في نظريته الاجتماعية، ثم ينطلق كونت من مفهوم العائلة إلى مفهوم أوسع يرتقي إلى دائرة المجتمع الذي يمنح العائلة أو الأسرة نطاقاً أكبر ومعنى أثرى مبنياً على أساس التعاون المشترك بين مجموع الأسر، فكل أسرة خلية فاعلة في اثراء المجتمع بما يحتاج من

---

(١) تاريخ الفكر الاجتماعي، متعب مناف جاسم، ص٣٥٩.

خـدمات أو تعلـيم أو أي مفـردة مـن شـأنها خدمـة المجتمـع، لكنهـا تكون خالية من العاطفـة، فالمبـدأ هـو توزيـع الأعـمال وتبـادل الخـبرات، وهو يشبه المجتمع بالجسم البيولـوجي الـذي يعتمـد كـل جـزء منـه عـلى الآخر من أجل استمرار الحياة.

هذا هو ملخـص فكـر كونـت الاجتماعـي وأبـرز مبادئـه التـي بنـى عليهـا أفكـاره الاجتماعيـة، وصـاغ عـلى أساسـها علـم الاجـتماع الوضـعي معتمـداً عـلى التجربـة الاجتماعيـة واسـتقرائه للأحـداث الحاصـلة وترابطهـا مـع طبيعـة الإنسـان وعـلى أيدولوجيتـه في فهـم الإنسان وإشكالاته النفسية والاجتماعية.

هربرت سبنسر: (١٨٢٠-١٩٠٣) م

يعـد سبنسـر الأب الثـاني لعلـم الاجـتماع بعـد كونـت، وهـو فيلسـوف ومفكـر بريطـاني وأحـد رواد علـم الاجـتماع، لـه كتـاب (أسـس علـم الاجـتماع) انطلـق في مبادئـه الاجتماعيـة مـن فكـره الفلسـفي محـاولاً تعليـل الأحـداث الاجتماعيـة والنشـاط الإنسـاني مـن فلسـفته التركيبيـة، امتـاز سبنسـر بطابعـه الفكـري المـادي، وحتـى الاخـلاق، فيرتـبط وجودهـا بتقـدم المجتمـع ماديـاً، أي أنهـا محكومـة

بالقانون الذي يكون هو الموجه للإنسان «**وقانون التطور يؤكد أن الأفعال التي نجدها سارة هي نفسها الأفعال التي تنمو نحو أن تكون ذات قيمة، تجعلها صالحة للبقاء**»[1].

إن نظرة هوبز للمجتمع لم تكن نظرة معنوية خُلُقية، بل مادية جامدة خالية من الروح الإنسانية والفطرة التي تبعث المروءة فيه، بل كان حدياً في تعاطيه مع الحقيقة الإنسانية القائمة على بث الهواجس البشرية من العطف والرحمة والتسامح.

حيث كان ينظر للمجتمع على أنه عبارة عن كائن حي يأكل، ويشرب، ويتناسل، ويمرض، ويتحرك، ويسكن، فهو كائن بيولوجي يحتاج إلى الصناعة أكثر من أي شيء آخر، فبالصناعة يتطور الإنسان، ويرتقي، وبالتقدم العلمي ينمو، ويكبر، فالمجتمع عبارة عن فرد يعيش في الطبيعة، ويتجانس معها، فالحياة عنده توائم بين البيئة الداخلية والبيئة الخارجية، ولكي يحيى الكائن الحي عليه أن يكون قادراً على تكييف طبيعته الخاصة تكييفاً مستمراً ليكون أقدر على معالجة بيئته.

---

(١) الموسوعة الفلسفية، ص١٨٠.

آراء سبنسر الاجتماعية:

تـأثر علـماء الاجـتماع في ذلـك الـزمن بمحـيطهم الاجتماعـي تـأثراً مبـاشراً حيـث سـادت الماديـة والتطـور الصـناعي، فعكسـت هـذه المؤثرات على أفكـار سبنسـر، فعُنـي بـالمحور المـادي للإنسـان أكثـر مـن عنايتـه بأخلاقـه وأدبياتـه المعنويـة، فكانـت نظرتـه البيولوجيـة هـي الطاغية على فكره في الأخلاق في نظريته في تنمية وتطور المجتمع.

١. تطور المجتمع:

قسـم سبنسـر المجتمـع إلى مراحـل متعـددة، انتقـل فيهـا مـن أنماط بسـيطة إلى أنـماط أكثـر تعقيـداً بحسـب تطـور الكيـان الاجتماعـي، فالوحدة الأولى التـي يبـدأ بهـا المجتمـع هـي الأسرة، وهـي اللبنـة الأولى التي تشتمل عـلى مجموعـة أفـراد، وهـذه الأسرة تلـتحم مـع بـاقي الأسر التي تمتّ لها بصلة مـن حيـث القرابـة، أي رابطـة الـدم، فتكـون مفهومـاً اجتماعيـاً أوسـع، وهـو العشـيرة، والعشـيرة تشـترك مـع أقرانهـا مـن العشائر التي تربطهـا بهـا ونتـائج القرابـة والمصـلحة الخاصـة، فتنتقـل إلى مفهـوم القبيلـة، ومجمـوع هـذه القبائـل المختلفـة والتـي يجمعهـا المكـان والمصـالح المشـتركة والبيئـة والأعـراف ترتقـي إلى مفهـوم أعـم وأكـبر

وأكثر تطوراً وتقدماً، وهو المدينة أو الدولة والتي تجمع كل هذه الأقسام بإطار واحد وبقوانين محددة تنظم كل هذه الفئات.

ولكنه يرجع إلى أن المجتمع هو عبارة عن فرد بيولوجي متكامل، يحتاج إلى كل أفراد المجتمع من أجل العيش والنمو والتطور بالتعاون المشترك، وكلما نما، وكبر ازداد تعقيداً.

«فموضوع علم الاجتماع كما يراه سبنسر هو البحث عن خطوط التطور العامة من خلال استقراء تاريخ الاجتماع الإنساني، وذلك لتعرف الارتباطات التي تتواصل فيما بينها هذه الخطوط التطويرية»[1].

إذن يرى سبنسر أن التطور الإنساني عملية ميكانيكية تطورية مرتبطة بفاعلية الإنسان الخارجية، فهو يرى أن تطور الإنسان يكون بتطور آلته الصناعية، فكلما تطورت الصناعة تطور الإنسان بعكس الحروب التي عاصرها سبنسر والتي يرى فيها هدماً للمجتمع وتأخراً لتطوره اقتصادياً.

---

(١) تاريخ الفكر الاجتماعي، ص٤١٦.

والتطور الصناعي من شأنه أن يحقق العدالة الاجتماعية، فتؤدي إلى الديمقراطية والسلام والازدهار، وتفتح آفاق استثمار الأموال، ويرتفع وضع المرأة والأسرة، إن نظرة سبنسر هي نظرة اقتصادية في تفسير الوضع الاجتماعي أكثر من كونها نفسية أو خُلقية بسبب نمو الفكر الفلسفي المادي إبان تلك الفترة التي عاصرها.

٢. الأخلاق في فكر سبنسر الاجتماعي:

لا تخلو نظرية اجتماعية في الفكر الاجتماعي من موضوع الأخلاق باعتبارها الجنبة النفسية والروحية عند الإنسان، ولا يمكن لأي مفكر إغفالها أو تجاوزها، ولكنها تختلف في مفهومها من عالم إلى آخر، فالبعض يرسم صورتها على أنها الفطرة الإنسانية السليمة والجهة المعنوية في إنسانية الإنسان التي تحدد معالم الخير والصلاح فيه، وترسم سلوكه الإيجابي في أنه فرد أو جماعة، وهو فوق القانون؛ لأن القانون ينظم السلوك الخارجي في التعامل وترتيب شؤون المجتمع.

أما الاخلاق فهي الدافع الذاتي والشخصي للإنسان للالتزام بالقانون والتعامل بمبدأ الإنسانية قبل كل شيء، وهي أقرب إلى طبيعته وفكره، ومنهم من يرى الأخلاق على أنها سلوك اجتماعي تفرضه المصلحة الشخصية أو العامة، فينطلق من منطلق مادي في مفهوم الاخلاق، ولا يختلف اثنان منهم على أن الأخلاق هي أساس الفكر الاجتماعي، فمثلاً عند كونت هي وضعية وعند ابن خلدون هي عمرانية، أما عند سبنسر فهي (ما فوق العضوية) كما يعبر عنها، أي تعاون أعضاء المجتمع بحيث يؤدي كل منهم وظيفته ضمن حالة تنظيمية فـ«**يرى سبنسر وجوب بناء الأخلاقية الجديدة على علم الأحياء، فالتسليم بنظرية النشوء العضوي يقرر مفاهيم أخلاقية معينة، ولكنه أحس بأن الشريعة الأخلاقية لا يمكنها الصمود أمام الانتخاب الطبيعي والصراع من أجل الوجود**»[1].

نادى سبنسر بشعار (البقاء للأصلح) دلالة على شعوره المادي اتجاه الأخلاق، وهو يرى أن الأخلاق ناتج وضعي للتنظيم الاجتماعي، وهو بذلك يبتعد عن الأخلاق الفطرية التي كانت

---

(١) تاريخ الفكر الاجتماعي، متعب مناف، ص٤٢٠.

سائدة عند المجتمعات البدائية، فهو يفرق بين الواقع الخُلُقي الوضعي والممارسات التي يقوم بها المجتمع وبين الأخلاق المعلنة على أنها النظام الذي يجب أن يتبع من قبل القانون والتناقض الواقع بين الامرين.

لقد وضع سبنسر وأمثاله أنفسهم في مأزق المفهوم الخُلقي الذي نظروا له وبين حقيقة الأخلاق الإنسانية الفطرية؛ ولذا نشهد تهافتاً لدى الغرب وضياعاً لمعاني الإنسانية السامية، فصارت الأخلاق عائقاً لهم، وليست توجيهاً لسلوكهم القسري للأخلاق، إن محاولة سبنسر لتنظيم المجتمع بربط الأخلاق بالمجتمع على أنها إفراز لصيغ التنظيم لإضفاء صفة خُلُقية معنوية على علم الاجتماع من أجل فتح أفق إنساني رحب للتكامل الإنساني وبناء مجتمع منظم وسعيد ومنتج يكرس التنافس الخُلقي في ظل التقدم الصناعي والحركي القائم في عصره.

٣. أنواع المجتمع:

قسم سبنسر المجتمعات إلى نوعين، المجتمعات العسكرية والمجتمعات الصناعية، ويرجع تقسيمه إلى طبيعة الفترة الزمنية

آنـذاك في أوربـا حيـث انتقـد سبنسـر المجتمـع الفرنسـي والألمـاني لعسـكرتهما، بينما كـان يـرى أن الأصـلح هـو كـون المجتمـع يجـب أن يتجـه باتجـاه الصـناعة كـما في إنكلـترا التـي ينتمـي إليهـا سبنسـر، فالتطور الصناعي هو من يصنع مجتمعاً مستقراً سعيداً.

اعتـبر أن المجتمعـات الحربيـة هـي مجتمعـات بدائيـة متخلفـة، وتسـودها النزعـة العسـكرية، وتسـيطر عليهـا المركزيـة والدكتاتوريـة، خصوصـاً في مظـاهر السـلوك الاجتماعـي، ويكـون الفـرد فيهـا مجنـداً لأغـراض شخصـية ومسـلوب الإرادة في تحقيـق السـلام الشخصـي والعـام، فهـي مجتمعـات لم ترتـق إلى بنـاء نفسـها وتحسـين معيشـتها وتوفير مستلزمات الحياة الرئيسة لانشغالها بالحروب.

أمـا المجتمعـات الصـناعية فهـي تتطـور، وتتمايـز بتعـدد الأفكـار والمعتقـدات وتطـور الـنظم وتعـاون أفرادهـا عـلى النهـوض بـواقعهم الاجتماعـي والاقتصـادي والفكـر والتعليمـي ونشـر السـلام وتحليهـا بالأخلاق الحسـنة والرخـاء واسـتقلالية أفـراد المجتمـع في اختيـار أنـماط حياتهم.

هـذه هـي أبـرز أفكـار سبنسـر في علـم الاجـتماع والتـي ارتكـز عليهـا المفكـرون الغـرب المـاديون في كتابـاتهم الاجتماعيـة، ويمثـل سبنسـر الواقـع الغـربي المسـتغرق بالماديـة والبراكماتيـة التـي أسسـت لظهـور الرأسـمالية الاقتصـادية وطغيـان الجانـب المـادي عـلى الجانـب المعنـوي في التربيـة الاجتماعيـة عنـد الغـرب، حيـث سـادت روح التنـافس الاقتصـادي ممـا أسـهم في جعـل أفـراد الأسرة والمجتمـع آلـة صـناعية إنتاجيـة أدت إلى تفكـك الأسرة وقطـع روابـط التواصـل فـيما بينهـا وفراغهـا مـن المعـاني الخُلقيـة وسـطوة السـلوك الفـردي الإنسـاني على التعامل الاجتماعـي، فتحـول المجتمـع لـديهم إلى حالـة عمـل دائمـة من غير الالتفـات إلى الإنسـان بـما هـو إنسـان روحـي، بـل تعـاملوا معـه عـلى أنـه كـائن مـادي يسـعى لتحقيـق غرائـزه الطبيعيـة مـن المأكـل والمشرب والجنس وسلب جميع معانيه السامية.

توماس هوبز: (١٥٨٨ – ١٦٧٩) م

فيلسـوف إنكليـزي مـن رواد علـم الاجـتماع، ومـن أقطـاب الماديـة الحديثـة عـلى حسـاب المثاليـة، ويعـده الكثـيرون مـن أكثـر الفلاسـفة آراء في شـتى المواضـيع مثـل البصـريات والفلسـفة المدنيـة واللغـة والسياسـة والقـانون والأخـلاق والـدين، فكـان عنصـراً مـؤثراً

في الحركة الفكرية الأوربية والإنسانية عموماً، وبغض النظر عن آرائه فهو من أصحاب النظريات الحديثة التي أصبحت منهجاً علمياً لكثير من المدارس الفكرية والموضوعات الحديثة مع النقد الذي وجه إليه، إلا أنه بقي لفلسفته الأثر البالغ في التاريخ الحديث، فهو يميل في نظرياته الاجتماعية إلى الاستبداد والدكتاتورية للسلطة الحاكمة على المواطن في نظريته في العقد الاجتماعي المستند إلى رضا الشعب لا إلى الحق الإلهي، وجاء هذا في كتابه الشهير (التنين) الذي عرض فيه آراءه بنحو لاذع في الإنسان والمواطن.

«**فقد وصف هوبز الحاكم بأنه المعبر عن إرادة الله وإرادة الشعب، ومنحه السلطة المطلقة في التصرف، ولم يعط للشعب حق عزله، واعتبر إرادته من إرادة الله تعالى**»[1].

يعد هوبز من الفلاسفة أصحاب النظرية النفعية أو مذهب المنفعة، حيث يقرر أن صواب أي عمل من الأعمال إنما يحكم عليه بمقدار ما يسهم به من زيادة السعادة الإنسانية أو في التقليل من الشقاء للإنسان، أن السداد الخُلقي لقانون أو قاعدة أو قيمة أي نظام اجتماعي تتوقف على هذه الاعتبارات نفسها.

---

(١) هوية التشيع، أحمد الوائلي، ص١٦٣.

كـان لدراسـاته العلميـة تـأثيراً مبـاشراً في فلسـفته الاجتماعيـة، حيـث حـاول ربـط علـوم الرياضـيات والهندسـة والفيزيـاء والطبيعـة بالمعرفـة الإنسـانية وإخضـاع الكنيسـة للدولـة المدنيـة، ولكـن بمادية نفعيـة وتصـوير الإنسـان عـلى أنـه فـرد سـلطوي، سـواء كـان حـاكماً أم محكوماً ضـمن إطـار النظـام الاجتماعـي، فيكـون مواطنـاً ملتزمـاً بنظامـه أكثر من كونه إنساناً حراً.

آراء توماس هوبز الاجتماعية:

امتـاز هـوبز بكثـرة أفكـاره الاجتماعيـة وتعمقـه بعلـم الاجـتماع، وخـاض في مختلـف مجالاتـه، وسـنذكر بعضـاً مـن هـذه النظريـات التـي سـادت الفلسـفة الاجتماعيـة الماديـة الغربيـة، واعتمـدوا عليهـا في تنظـيم المجتمع ووضع قوانينه:

١. العقد الاجتماعي:

العقـد الاجتماعـي هـو نظريـة اجتماعيـة تقتضـي التعاقـد بـين جماعة من الناس وبـين مـن يمـثلهم في أنـه سـلطة حاكمـة، سـواء كانـت ملكيـة أو جمهوريـة أو أي شـكل مـن أشـكال الحكـم، ويكـون انتخـاب

هـذه السـلطة الحاكمـة مـن قبـل هـذه الجماعـة بشـروط معينـة، وهـي نظريـة قديمـة تبناهـا الفلاسـفة القـدماء مثـل سـقراط وأفلاطـون وأرسطو في نظام مـدنهم الفاضـلة، وامتـدت هـذه النظريـة عـبر التـاريخ إلى الفلاسـفة الجـدد والمفكـرين الاجتماعيـين في طـرح نظريـاتهم الاجتماعية.

إلا أن هـوبز تمـرد عـلى النظريـة القديمـة نتيجـة تـأثره بماديـة عصـره والتطـور العلمـي، فـمازج بـين العلـم الحـديث والمعرفـة الإنسـانية بـالموروث الفكـري بكاملـه، فهـو يـرى أن المجتمـع لا بـد لـه من سلطة حاكمة عـلى أن تكـون مدنيـة تحـد مـن سـلطة الحـاكم، فيكـون التعاقـد بـين المحكـومين والحـاكم بشـرط أن يعـي المحكومـون قواعـد التعاقد بتعليمهم إياها فـ«**كـان هـوبز يصـطنع نظريـة العقـد الاجتماعـي لإثبـات ضرورة قيـام الحـاكم المطلـق المسـتند إلى رضـا الشـعب لا إلى الحق الإلهـي، وهكـذا يمكـن أن يتخـذ مذهبـه لتبريـر أيـة حكومـة قائمـة طالمـا كانـت تحكـم، فهـو يـبرر حكومـة كرومويـل قبـل كـل شيء ومـن بعده حكومة شارل الثـاني**»[1]، تبلـورت هـذه الفكـرة عنـده بعـد حـروب

(١) الموسوعة الفلسفية، ص٣٨٧.

أوربا المدمرة، فاستشعر هوبز ان أي نظام مهما كان نوعه هو أقل وطأة من الحرب، وأضاف أن من بين الأنظمة نظام الحكم المطلق هو الوحيد الذي ليس فيه احتمالية الاضطراب ووقوع الحرب فيه، فأسس نظريته في العقد الاجتماعي على هذين الأمرين؛ لأن طبيعة المجتمع الميل إلى الأمن والاستقرار، وهو ما يحققه عقدهم الاجتماعي مع هذه الحكومة، فوجود حاكم قوي يضمن لهم حياة آمنة ومستقرة، وبالمقابل فإن الناس ستقدم ولاءها اللامشروط للحاكم، وتبدي احترامها للحكومة، فتكون عبارة عن مصالح متبادلة أكثر من كونها تعاقداً اجتماعياً.

لم يميز هوبز بين الدولة والحكومة، ويرى أن الحكومة الفعلية هي التي يحددها القانون، وهو يفرق بين الإنسان والمواطن، فالإنسان هو النوع الذي فيه الفطرة والعقل وميله لنوعه الطبيعي، الا أن هوبز وبسبب الحروب كان ينظر إلى الإنسان على أنه نفعي يبحث عن مصلحته الشخصية، وغريزة البقاء هي الدافع له على الاستفادة من الثروات الطبيعية ومنافسة الآخرين عليها، فلا اعتبار عنده للقيمة الإنسانية فـ«**التعاقد الاجتماعي ليس عملية طوعية أو**

ترفيهية بالنسبة لنوع الإنسان، وإنما هو ناتج لقبول الإنسان نفسه للنظام الاجتماعي، أي أن التعاقد يأتي مكملاً لاجتماعية الإنسان ومؤكداً في الوقت نفسه على قيمة هذه الاجتماعية عاملاً ضد ما يمكن أن يؤدي بالإنسان إلى النكوص إلى الحالة الطبيعية حيث الفوضى والاحتراب»[1].

أما المواطنة فهي حالة ميكانيكية قانونية للإنسان، تخضعه إلى نسق حياة معين يجب عليه الالتزام به ليعيش بسلام وأمان مع باقي أفراد نوعه الإنساني فـ«**المواطنة هي تكليف للفرد ترتب عليه واجبات، في مقدمتها التزامه بهذه المواطنة التي توجب عيشه ضمن النظام الاجتماعي وقبوله بالعاقد الاجتماعي**»[2]، فيكون المواطن خاضعاً لقوانين الضبط الاجتماعي من قبل الحكومة وشروطها، وأي خروج عن هذه الشروط يوجب عقوبته، وهو ما يتطلب وجود حكومة قوية مطلقة اليد لكي تستطيع أن تحاسب أي مواطن يتجاوز حدود المواطنة.

---

(١) تاريخ الفكر الاجتماعي، ص٢٣٦.

(٢) المصدر نفسه، ص٢٣٧.

هذه أبرز أفكار هوبز في نظرية العقد الاجتماعي التي أسسها، ووضع شروطها على ما فيها من ثغرات وأخطاء فادحة ومجانبة للحق والصواب وامتهان للحق الإنساني وعدم مراعاة قيمه وإرادته الحرة.

٢. الأخلاق:

لم يتخطَّ أي فيلسوف أو مفكر في علم الاجتماع موضوعاً، لعله هو روح أي تجمع إنساني ومبدأ من مبادئ التعايش السلمي الآمن، وهو الأخلاق والتي تعبر عن السلوك الاجتماعي العام ومظهر الإنسانية فيه، إلا أن هوبز كانت نظرته مادية منطلقاً من منهجه الوضعي غير مؤمن بالقواعد الطبيعية ودور الفطرة في سلوك الإنسان، فهو «**يؤمن ... بأن المدنية قائمة على الخوف لا على النزعة الاجتماعية والطبيعية، ونقصد بكلمة (خير) ما يكون موضوعاً للاشتهاء وبكلمة (شر) ما يكون موضوعاً للنفور، وكان يؤمن بالحتمية، ولا يملك الإنسان حرية الإرادة**»[1]، وقد دمج هوبز الأخلاق التي تحمل قيم الإنسانية بالسياسة، فكل فعل يتفق مع

(١) الموسوعة الفلسفية، ص٣٨٩.

إرادة السلطة فهو أخلاقي؛ لأن السلطة حريصة على الحفاظ على التعاقد، وكل فعل ترفضه السلطة فهو لا أخلاقي، فهو يفسح المجال للممارسات الأنانية للفرد وعلى قاعدة البقاء للأصلح أو للأقوى، إذ لكل واحد الحق الكامل فيما يستطيع الحصول عليه والمحافظة عليه، وحتى تأسيس الدولة أو الحكومة هو ليس بدافع إنساني فطري، بل لخوفهم من وقوع الحروب، ورغبتهم بالسلام والأمن هو ما دفعهم لتأسيسها، وهو بهذا يبتعد عن المعنى الحقيقي للأخلاق، والتي هي المنظومة القيمية المشتملة على الخير والنافرة عن الشر والمسددة لسلوك الإنسان ذاتياً لا وضعياً.

«إن فصل الأخلاق عن المجتمع وربطها بالسياسة وإن خدمت غرض هوبز؛ إذ عجلت عملية بناء المجتمع البريطاني إلا أنها أعطت للأخلاق معنى نسبياً، وحولتها إلى سلاح سياسي مما يختزل التعاقد الاجتماعي إلى مجرد مظهر وواجهة، ويمكن أن تمرر، وتمارس خلفها أفظع وسائل انتهاك الحريات»[1].

---

(١) تاريخ الفكر الاجتماعي، ص٢٣٨.

هذه هي مبادئ هوبز الأخلاقية، والتي ربطها بسلطة الدولة، وجردها من كل قيمة معنوية من شأنها الحفاظ على السلوك العام للبشر بنحو طبيعي.

٣. القانون:

من أساسيات نجاح أي مجتمع وتعايشه السلمي بأمان واستقرار وتحقيق العدالة الاجتماعية وجود منظومة قانونية تقوم بإدارة المجتمع ومحاسبة المقصرين والحفاظ على النفوس والأموال؛ ولذا لم يغفل أي من منظري علم الاجتماع عن البحث في هذا الموضوع والقانون، سواء كان شرعياً أو وضعياً، فيبقى هو الركيزة الرئيسة لتنظيم شؤون المجتمع.

القانون من وجهة نظر هوبز هو أمر الحاكم استناداً إلى نظريته في العقد الاجتماعي القائمة على الوضعية أو القانون الوضعي، وهو قاعدة عامة أوجدها العقل، بموجبها يمنع الإنسان من العمل بنحو يسلب وسائل الحفاظ على حياته، ويسعى لتحقيق السلام وتجنب أي ضرر يلحق به.

وهو بهذا يخالف من سبقه؛ لأن القانون يرتبط بالأخلاق وميلها للسلام، بل إن القانون في نظره هو أن الناس يرتبطون بالمجتمع بهدف إخراج أنفسهم من الظروف القاسية للحرب التي قد يواجهونها، وبذلك يؤسس أن الإنسان لا يعيش مع أفراد نوعه على أساس السلام والمحبة، وهو القانون الطبيعي.

اعتبر هوبز أن الدولة لها حق مطلق في ممارسة القوة، فكل ما تقوله الدولة، وتقننه فهو صحيح ونافذ، وبعكسه فهو خطأ تحاسب عليه، وتعاقب، وبهذا سوف تتحقق العدالة المنشودة، إن رأي هوبز في القانون فيه تعسف شديد لإرادة المواطن والإنسان وظلم يجانب العدالة الاجتماعية، بل هو خلاف طبيعة الإنسان الحرة وخلاف طبيعة الانسان الاجتماعية، في اختيارها المصلحة، سواء كانت عن طريق القانون الإلهي أو القانون الوضعي، لكن هوبز انطلق من حقيقة مجتمعه والظروف السياسية التي أحاطت به، فكانت نتيجته هذه النظرية السلبية.

هـذه هـي أبـرز آراء هـوبز الاجتماعيـة، والتـي أخـذت مـداها في علم الاجتماع الذي يُعـد هـوبز الأب الثـاني لـه وإن كـان مـن جـاء بعـده خالفه في كثير من نقاطه التنظيرية.

جون لوك: (١٦٣٢ – ١٧٠٤) م

فيلسوف إنكليزي، ويعد هو الوريث لتوماس هوبز والمكمل لمسيرته الفلسفية في علم الاجتماع، كانت بداياته علمية حيث عُني بالعلوم الطبيعية، ثم اتجه إلى دراسة الطب، وحصل على تصـريح بمزاولته.

أيقـظ الفيلسـوف ديكـارت حـس الفلسـفة لديـه، وظهـر ذلـك في مصـطلحاته وأفكـاره وعملـه، وعُنـي لـوك بنظريـة المعرفـة الإنسـانية ومـا وراء الطبيعـة، وكـان هـذا في بـدايات دراسـاته الاجتماعيـة والسياسـية فـ«**إن التـأثير المبـاشر هـو الـذي أثـر في لـوك، وجعلـه يشـعر بالحاجـة إلى تكـوين أفكـار واضـحة واتجاهـات محـددة ومفهومـات أساسـية لتنظـيم اجتماعـي وسـياسي جديـد يقـوم عـلى الحريـة، ويعـود ذلـك إلى صـحبته وعملـه مـع لـورد أشـلي، والـذي كانـت لـه مسـاهمة كبيرة في ميادين السياسة والأخلاق**»[1].

---

(١) جون لوك، فاروق عبد المعطي، ص٨.

اعتبر مؤرخو الفلسفة أن كتاب جون لوك (مقالة في العقل البشري) أول محاولة منظمة لفهم المعرفة البشرية وتحليلها للفكر الإنساني، وكان لها تأثير في ميدان السياسة والاجتماع.

كان لوك نصيراً لسيادة الشعوب، وأثرت فلسفته في القرن الثامن عشر في حركة التحرير الكبرى في أوربا، انطلق لوك في فلسفته الاجتماعية من منطلق الأخلاق وتنظيم السلوك للإنسان وقاعدته الأخلاق للفرد، ثم علاقة الفرد مع باقي الأفراد، وهو ما يعبر عنه بالسياسة، ومن ثم تنظيم العلاقة بين الأمم، فهو فيلسوف أخلاقي بنى على مفهوم الأخلاق نظريته الاجتماعية، وارتقى بها من محيطه الضيق إلى العالم.

نظريته في علم الاجتماع:

١. التعاقد الاجتماعي:

يرى لوك في نظرية العقد الاجتماعي التي ورثها من هوبز وخالفه في بعض مضامينها أن المجتمعات ظهرت على حالة من حالات الطبيعة الفطرية، ونتيجة لعقد بين المجتمع والحاكم،

يخضعون من خلاله لحاكم أو مجموعة حكام للحصول على مصالح معينة.

يرى لوك في العقد الاجتماعي أو السياسة المدنية أن الإنسان يولد وذهنه صفحة بيضاء، والمجتمع يخط عليها ما يشاء، والمجتمع مسؤول عن تحديد سلوك الفرد، ويكون هذا عبر مؤسساته المدنية، وأن الحكومة التي جاءت عن طريق التعاقد الاجتماعي بينها وبين المحكومين ملزمة بتوفير الرفاهية والاستقرار والسعادة للمجتمع، وإلا إذا لم تلتزم فلا يجدر بقاؤها، وهو بهذا يخالف لوك القائل بالحكومة المطلقة، أما لوك فإنه يحدد سلوك الحكومة بالأبوي من جانب والقوة وفرض القانون من جانب آخر، فإذا تحقق ذلك صار الحكام أفضل أنماط الحاكمين، وبعكسه صاروا طغاة، لأن الحاكم يستمد شرعيته من المجتمع لفرض خدمتهم وبصيغة قانونية، ولا يحق له التعسف بحقهم ومراعاة الكل دون استثناء، وسمح لأفراد المجتمع بممارسة شعائرهم وطقوسهم وطرح أفكارهم بكل حرية، فهم أصحاب الرأي والقرار، وأراد لوك بنظريته أن تتخطى المستوى المحلي إلى المستوى العالمي لتحقيق الديمقراطية في العالم

فـ«**يجب على دول العالم أن تدخل في تعاقد فيما بينها لتحقيق ما سماه لوك بالديمقراطية الدولية التي يتم الانتقال إليها من مرحلة الديمقراطية القومية وصولاً إلى القضاء على الحروب والمنازعات على أنها وسيلة من وسائل حل الخلافات بين الحكومات**»[1].

إذن يرى لوك أن الإنسان كان ينعم بالسلام والحرية في حالته الطبيعية، على عكس هوبز الذي كان يصفها بالصراع مع الآخرين، وقد قسم لوك السلطات إلى سلطة تشريعية وقانونية وتنفيذية لضمان عدم تسلط الحكم وإحراز الحرية للمجتمع، هذا هو مجمل رأي لوك في التعاقد الاجتماعي ونظريته فيه، والتي تبدو أرقى مما هو عليه من تنظير عند هوبز لتغليب الجانب الإنساني على الجانب المادي، فهو أكثر انفتاحاً وواقعية في طرحه وتنظيره.

٢. الأخلاق:

يعتقد لوك أن حياة الإنسان فيها الخير والشر، والخير هو ما يجلب السعادة واللذة للإنسان، وبعكسه فإن الشر يجلب له الألم بشرط أن يتفق عمل الخير مع القانون الذي يحكم المجتمع.

---

(١) تاريخ الفكر الاجتماعي، ص ٢٤٥.

والقانون سواء كان إلهياً أو وضعياً، فكلاهما يحددان طبيعة الأعمال الخيرة أو الشريرة، فسلوك الإنسان الطبيعي هو المنطلق الأخلاقي في نظرية لوك القائمة على التطرف الاجتماعي إزاء الحكم المستبد فـ«**إن أقرب الوقفات إلى القول هي وقفة الإنسان من الإنسان على أساس من البر وسعة الصدر المتبادلين، وليس هناك من داع يمنع الإنسان من المحافظة على السلام والقيام بالخدمات الإنسانية العامة ومقتضيات الصداقة مهما تعددت الآراء، فلا تُحاربوا من أجل اختلافكم في نظم الحكم أو العقيدة، بل حاولوا أن تقنعوا إخوانكم بمنطق العقل، ثم أعطوهم الفرصة ليقيموا البرهان على صدق أفكارهم**»[1].

إذن الأخلاق بمفهوم لوك معنى سامٍ وراقٍ، يلامس الواقع الإنساني وحقيقة وطبيعة المجتمع وإن كان لم يصرح بجميع ما عنده من أفكار بسبب المعارضة الشديدة التي كان يلاقيها من أصحاب الفكر المتطرف والنزعة الشمولية المتطرفة في مفهوم الحكم المستبد.

---

(١) تاريخ الفكر الاجتماعي، ص٢٤١.

ماكيا فللي: (١٤٦٩ – ١٥٢٧) م

هو المفكر والفيلسوف نيكولو ماكيا فللي، إيطالي المولد والنشأة، اشتهر بأفكاره الاجتماعية، وحاز شهرة واسعة، له كثير من المؤلفات، أبرزها كتابه (الأمير) وكتاب (المطارحات)، وقد تنوعت كتاباته في الاجتماع والفنون العسكرية والأدب والتاريخ، حيث كانت له مقدرة كبيرة على الخوض في مختلف العلوم وطرح آرائه فيها، وقد كانت هذه الآراء قد أخذت مداها في إيطاليا وأوربا والعالم، لكن محور المسائل الرئيسة في كتاباته التي طرحها حول الدولة والسلطة ونظام الحكم هي ما تميز فلسفة ماكيا فيللي الذي اعتبر فلسفته فلسفة سياسية.

فقد كرس جل أفكاره عن السياسة التي تبني الدولة والدولة عنده هي الوحدة الأساس للمجتمع، وهو بهذا المفهوم يرتقي إلى معانٍ جديدة في علم الاجتماع الذي اتخذ بعضهم من الفرد الوحدة الاجتماعية هي الأساس، وبعضهم جعلها الأسرة، والآخر المجتمع نفسه، أما ماكيا فيللي فقد نظر لمفهوم جديد لرؤيته السياسية الاجتماعية، فصارت أفكار وكلمات ماكيا فيللي مناراً وقاعدة لكثير

مـن الحكـام والحكومـات، وقـاموا بتطبيقهـا مثـل مقولتـه الشـهيرة (الغايـة تـبرر الوسـيلة) والتـي أصـبحت منطلقـاً سياسـياً للاحـتراب والاسـتيلاء عـلى المـدن والإمـارات، ومقولـة (**عنـدما تفتقـر الدولـة إلى السـلاح الكـافي تنعـدم القـوانين الجيـدة، وعنـدما تكـون جميـع الـدول مسلحة تمـام التسـلح تكـون جميـع قوانينهـا جيـدة**)[1] وهـو مبـدأ سـياسي وقانوني واجتماعـي اتخـذه الكثـير مـن الحكـام في بنـاء سياسـتهم وتنظـيم حكوماتهم.

أغلـب تنظـيرات ماكيـا فـيللي هـي اجتماعيـة سياسـية، ونظـر لشـكل الحكومـات التـي يجـب أن تحكـم المجتمعـات، وبحـث نشـوء الحضارات واضمحلالها، وهـو مـا بحـث فيـه كثـير مـن علـماء الاجـتماع وهـو يقررهـا كـما يـأتي «**الشـجاعة تنـتج السـلم، والسـلم ينـتج الراحـة، والراحـة تسـتتبع الفـوضى، والفـوضى تـؤدي إلى الخـراب، ومـن الفـوضى ينشـأ النظـام، والنظـام يـؤدي إلى الشـجاعة، ومـن هـذا ينـال المجـد والحـظ الحسـن**»[2] فهـو يصـور نشـوء الحضـارة واضـمحلالها بصورة دورية، تبدأ بالشجاعة، وتنتهي بها.

---

(١) الأمير، مكيا فللي، ٣٩.

(٢) قصة الحضارة، ول ديورنت، ج٢١، ص٥٧.

تنظيرات ماكيا فيللي الاجتماعية:

١. الحكومة:

اعتبر ماكيا فللي أن الدولة هي الوحدة الأساس للمجتمع والمقوم لكيانه، أما الأفراد فمن شأنهم تقرير مصير هذه الدولة، وتتضح رؤية ماكيا فللي في نظام الحكم في كتابيه (الأمير) و(المطارحات) حيث يرسم ملامح دولته المنشودة.

يعني ماكيا فللي بالأمير الحاكم الذي يحكم الدولة، وما يجب أن يكون عليه وصفاته المثالية لأجل أن يحكم، فعليه أن يتمتع بالشجاعة والمكر وأن يكون عسكرياً محنكاً ومتمرساً في سلك الجندية للحفاظ على السلم المجتمعي، وأن يكون سياسياً يحسن التعامل مع الأمراء والحكام لباقي الدول، وأن يكون ذا معرفة تمكنه من كسب ود الشعب، وهذه لا تنسجم مع بعض مقولاته مثل «الغاية تبرر الوسيلة»، وأن لا يكون طيباً أكثر مما يلزم، وأن الذي يريد أن يصل للحكم يجوز له اختيار شتى الطرق للوصول حتى لو كانت عن طريق الشر والأعمال القبيحة وإلغاء منافسيه وممارسة

المكر للوصول إلى العدل مع الشعب، وهذه الصفات التي ذكرها ماكيا فللي هي التي تصنع السياسي كما جرى فيما بعد في بلدان العالم.

ويقول ماكيا فللي بالعلاقة الجدلية بين القانون والقوة العسكرية، في أن القوة العسكرية هي التي تحمي القانون، وتعطيه السلطة للتنفيذ فـ«**من أراد أن ينشئ دولة، ويضع لها قوانين فليفترض في بادئ الأمر أن الناس جميعاً أشرار مستعدون على الدوام لأن يكشفوا عن خبث طويتهم إذا وجدوا الظروف الملائمة لهذا العمل، فإذا ما ظلت ميولهم الخبيثة مختفية إلى حين، فيجب أن يعزى اختفاؤها إلى سبب غير معروف، ومن واجبنا أن نفترض أنها لم تجد الظروف الملائمة للكشف عن نفسها، ولكن الزمن لن يعجزه الكشف عنها، والرغبة في الاقتناء من الغرائز الفطرية العامة في واقع الأمر، والناس جميعاً يقتنون حين يستطيعون، ولهذا فإنهم يمدحون على ذلك، ولا يلامون عليه**»[1].

يقسم ماكيا فللي نظام الحكم إلى ملكي أو جمهوري، والملكي إلى ملكية وراثية وملكية الاستيلاء، أما الوراثية فهي تقوم على

---

(١) قصة الحضارة، ول ديورنت، ج٢١، ص٥٨.

أساس إمارة شخص أو أسرة، وتوارثها إلى الأبناء، وهي ملكية مستقرة، أما ملكية الاستيلاء فهي مختلطة حيث يكون الأمير من عامة الشعب، ويقوم بالاستيلاء على الحكم، وهو يكون غير مؤهل عادة للحكم مثل الوراثية التي يعتبرها مبنية على سلالة من النبلاء يمتلكون مقومات الحكم ومؤهلين لها خصوصاً وأن ماكيا فللي قد وضع صفات وشروطاً للأمير يجب أن تتوافر فيه وأن يتحلى بها.

إذن الدولة في منظور ماكيا فللي تعتمد على عقد بين الحاكم والمحكوم، وهي بمجموعها العنصر الأساس في المجتمع، لكنه يعطي الأهمية الكبرى للحاكم الذي سماه في فلسفته بالأمير باعتباره السائس لشؤون الشعب، ويشترط فيه صفات، بموجبها يستطيع أن يحكم الدولة، ويحافظ على كيانها وعلى دوره في أنه حاكم.

٢. نظرة ماكيا فللي للبشر:

يبدو من اقتباسات كتاب (الأمير) أن نظرة ماكيا فللي للبشر نظرة سلبية ووحشية وحكم جوهري على طبيعة البشر بنحو عام، وهو يبني علاقة الشعب المحكوم مع بعضهم ومع الحاكم على أساس النفعية والمصالح، وأن كل ما يجمعهم هو الحصول على

المصلحة الشخصية، فيحدد طبيعة العلاقات الأنانية الإنسانية في نفوسهم؛ ولذا جعل الدولة هي العنصر الاجتماعي الأساس لعدم اعتباره لأفراد للشعب، بل اتهمهم بالخمود الاجتماعي وأن التنظيم الحكومي هو من يصنع المجتمع.

جاء في كتابه المطارحات «**أشار جميع كتاب السياسة عبر التاريخ الطويل إلى أن التاريخ حافل بأمثلة تقيم الدليل على أن من الضروري لمن يعد جمهورية، ويعلن فيها نظماً أن يفترض أن جميع البشر خبثاء، وهم دائماً على أهبة الاستعداد لاستخدام خبثهم حين تواتيهم فرصة خاصة لذلك. إن البشر لا يفعلون أي خير أبداً إلا بالضرورة، ولكن هناك حيث تتوفر الحرية وحينما يمكن أن تكون لدينا فوضى يمتلئ كل شيء في الحال بالاضطراب وعدم النظام**»[1].

إذن يرى ماكيا فللي البشر خبثاء ماديين يبحثون عن مصالحهم الخاصة، ولا يمتلكون عاطفة كما جاء في كتاب (الأمير) أن البشر متقلبون مراؤون ميالون إلى تجنب الأخطار شديدو الطمع، يبذل كل ما عنده في سبيل فائدتهم؛ ولذا حذر ماكيا فللي

---

(١) ماكي فللي أمير فلسفة السياسة، إبراهيم شمس الدين، ص٧٨.

الحاكم من المحكومين بعدم الركون إلى وعودهم والوثوق بهم، فهو يرسم صورة سوداوية لطبيعة البشر، وينتزع منهم صفاتهم الإنسانية، ويتعامل معهم بمادية مطلقة.

ربما كان ينظر إلى الجانب السلبي للإنسان في سلوكه، فالإيجابيات لا تحتاج إلى نقد كي يسلط الضوء عليها، ولكن تبقى النظرة الميكافللية نظرة مصلحية براكماتية لا تصلح تفسيراً لطبيعة الإنسان المكون من غرائز من الممكن أن تهذب، ومن الممكن أن تجمح، فلا يمكن أن ننظر إلى الأشياء من زاوية واحدة.

هذا هو رأي ماكيا فللي في الشعب أو المحكومين في نظريته الاجتماعية.

كارل ماركس: (١٨١٨ – ١٨٨٣) م

يعد ماركس من أشهر منظري علم الاجتماع الحديث، ولا يعده البعض فيلسوفاً، بل منظراً حاول دراسة سلوك الإنسان، فدخلت الفلسفة في نظريته عرضاً، وقد أخذت نظريته مداها في العالم الحديث، وأسست عليها حكومات وأنظمة، تميزت نظريته

الاجتماعية بالمادية في تفسيرها لسلوك الإنسان والمجتمع، ويرى ماركس أن النشاط الكلي للإنسان يقتضي دراسة الأفكار كلها غير متجزئة، فدراسة كل منها على انفراد تبدو غير معقولة؛ ولذا ينبغي أن لا نرى النظرية شيئاً منفصلاً عن التطبيق، لأن سلوك الإنسان يظهر دوافع الناس ورغباتهم وميولهم وتصوراتهم عن الأشياء فـ«**يعتقد ماركس أن الإنسان شيء من الطبيعة وكتلة ذات ثلاثة أبعاد من اللحم والدم والعظم، تنطبق عليها قوانين الطبيعة التي اكتشفتها العلوم كما تنطبق على غيرها من الأشياء المادية الأخرى**»[1].

إيمان ماركس المطلق بالمادية دفعه للاعتقاد بعدم وجود الروح أو أي جواهر روحية أو معنوية للإنسان، وكانت نتيجة هذا إنكاره لوجود إله، فإن رأي ماركس في علم الاجتماع هو إثبات الطابع الإنساني والاجتماعي للمجتمع، فهو يعتبر علم الاجتماع حلقة وصل بين العلوم الطبيعية والعلوم الإنسانية؛ ولذا عُني ماركس بدراسة فلسفة التاريخ لمعرفة سلوك الإنسان عبر مجريات التاريخ

---

(١) الموسوعة الفلسفية، ص٢٨٩.

وأحداثه، وكيف تطور وضع الإنسان والمجتمع من الظواهر الاجتماعية في دراسة منهجية علمية للوصول إلى قوانين محكمة، لكنها مادية صرفة، لم تتخذ من الجانب الديني وسيلة للتفسير والتعليل، فأنكر ما وراء الطبيعة، وتكرس جهده على التجربة «**بالرغم من إصرار الماركسية على الطابع العلمي لفلسفتها، ورفض أي لون من التفكير الميتافيزيقي. نجد أن الماركسية لا تتقيد في فلسفتها بالحدود العلمية للبحث؛ ذلك أن الفلسفة التي تتبع من الخبرة العلمية يجب أن تمارس مهمتها في الحقل العلمي، ولا تتجاوزه إلى غيره**»[1]، فليس من صلاحية الفلسفة العلمية أن تتناول البحث في مسائل ما وراء الطبيعة، وتحكم عليها؛ لأن رصيدها العلمي لا يساعدها في ذلك.

المجتمع في النظرية الماركسية:

جاءت النظرية الماركسية ردَّ فعلٍ على النظرية الرأسمالية التي صنعت الطبقية الاجتماعية مما تسبب بظواهر سلبية في المجتمع أدت

---

(١) فلسفتنا، محمد باقر الصدر، ص٩١.

إلى انحرافات خُلقية وخروج عن العدالة الإنسانية ومظهر من مظاهر الاستعباد للمجتمع.

فأصحاب رؤوس الأموال والإقطاعيين أصبحوا هم من يتحكم بمصير المجتمع، ويفرض إرادته وسلب حقوق الناس في العيش في أنه مجتمع متكافئ متعادل، فتشكل في العقل الجمعي ضرورة التغيير وكسر هذا الطوق الاجتماعي والاقتصادي، فنشأت النظرية الاشتراكية الماركسية لإنصاف المجتمع ورد حقوقه، فبنيت النظرية على تناقض الرأسمالية، فوقعت بالمشكلة نفسها حيث أن الرأسمالية ميزت بين فئات الشعب، فجعلت طبقة كادحة عاملة وطبقة مالكة مسيطرة، وأعطت حق الملكية المطلق للفرد، فأصبح صاحب رأس المال قوة اقتصادية واجتماعية، قد استحوذ على أكبر قدر من الملكية على حساب باقي أفراد المجتمع، في حين أن الاشتراكية عملت على العكس من توجه الرأسمالية، حيث رفضت الملكية المطلقة، وجعلتها عامة للمجتمع على حساب الأفراد، فسلبت حق الفرد في التنمية الاقتصادية وتكوين رأس المال، فأصبح أفراد المجتمع الاشتراكي عبارة عن أدوات للعمل وآلة إنتاجية ليس لها الحق في تكوين الثروة والتنمية مما أدى إلى غبن

اجتماعي، فغابت العدالة الاجتماعية التي هي أساس التكوين الاجتماعي، وفقدت الحرية الفردية التي كفلها الله تعالى للإنسان وناقضت طبيعة الإنسان في حبه للتملك، فوقع المجتمع الاشتراكي في تناقض المساواة والعدالة، مع أن ماركس طالب بحق الإنسان في النمو والتقدم في ظلال الحرية، حيث ربط ماركس علم الاجتماع بالاقتصاد، فاعتبر أن البناء الفكري والخُلقي للمجتمع هو انعكاس لطبيعة العلاقات الاقتصادية السائدة في المجتمع، وبنى نظريته على أساس الصراع الطبقي، ودعا إلى حكومة طبقة العمال.

جعل ماركس الإنسان محور العالم، وأنه هو من يخلق الأشياء، وهو من يتحكم بها، وأنه قادر على تحمل الآلام وتقديم التضحيات، ليس لسعادته الشخصية، بل للمصلحة العامة، فالإنسان في تصوره عنصر تفاعلي مع البيئة يؤثر بها، وتؤثر به حيث يقول: إن البيئة تشكل الناس، والناس يشكلون البيئة، إذن الإنسان الماركسي آلة مادية تؤمن بالعمل أكثر من التنظير، وهو من يصنع الحياة، لكنه في الوقت نفسه يعطي له صورة أخرى من كونه لا يملك مقوماته الفردية الشخصية على أنه إنسان، بل هو يتبع الحقيقة المصوغة من قبل ماركس وليس له حق الوصول

للحقيقة، وليس له الحق المقدس في الملكية وفي الأسرة، وهما صورتان متناقضتان للإنسان الماركسي، وحاول ماركس تحقيق العدالة الاجتماعية بتساوي جميع أفراد المجتمع بالحقوق والعدالة بتوزيع الثروات على الجميع من غير تمييز وظيفي أو منصب حكومي أو اجتماعي، وجعل الكل سواسية أمام القانون لتحقيق المساواة، فالمجتمع في النظرية الاشتراكية يمثل كياناً واحداً وطبقة واحدة في مستوى واحد، وسماه دولة العمال، أي أن العمال الذين هم وسائل الإنتاج يجب أن تسود طبقتهم، لأن ماركس ونظرته الاقتصادية للمجتمع تحكمت في فكره الاجتماعي بناءً على أن أفراد الشعب مسخرون للإنتاج والنفع العام ولا خصوصية اجتماعية لهم، وكذلك نادى بسيادة الشيوعية ضد مفهوم الدولة الذي حاول إلغاءه، فالمجتمع هو من يقود نفسه عن طريق حكومة منظمة لإدارة المجتمع.

جرد ماركس الإنسان من قيمه الروحية والمعنوية بمحاربته للدين على أنه هو السبب في الملكية الفردية التي أطاحت بالحقوق البشرية، وقال: إن فكرة الإله وهم ابتدعه البعض لاستغلال الناس وتخديرهم والتحكم بهم وبثرواتهم؛ ولذا فسر التاريخ

الإنساني تفسيراً مادياً، فسميت نظريته بالمادية التاريخية حيث يعرفها السيد محمد باقر الصدر بأنها فلسفة خاصة للحياة وفهم مادي لها على طريقة ديالكتيكية، وقد طبق الماديون الديالكتيكيون هذه المادية الديالكتيكية على التاريخ والاجتماع والاقتصاد، فصارت عقيدة فلسفية في شأن العالم وطريقة لدرس التاريخ والاجتماع ومذهباً في الاقتصاد وخطة في السياسة[1]، إذن فكرة النظرية الماركسية الاجتماعية قائمة على أساس الصراع الطبقي بين المجتمعات الحاملة للمتناقضات حتى تجتمع متناقضاتها، فنتج وضع جديد، هو عبارة عن طبقة متكافئة لجميع فئات المجتمع.

إذن هذه هي الفكرة العامة للمجتمع الماركسي الذي نادى به، ونظر له، وعمل عليه في أنه رد فعل على النظام الاقتصادي الرأسمالي لاعتقاده أن الاقتصاد هو الذي يحرك المجتمع، وينميه، ويرقيه، واتخذت من المادية مبدأ لانطلاقها الفكري والتنظيري للحياة الاجتماعية وتفسيرها لظاهرة الإنسانية على أنها تفاعل مع البيئة التي تؤثر به، ويؤثر بها، فكل ظاهرة اجتماعية هي انعكاس

---

(١) المدرسة الإسلامية، محمد باقر الصدر، ص٥٣.

لفعل إنساني مادي على أساس حركته وتفاعله الاجتماعي مع الآخرين، وإن البشر هم وسائل إنتاجية؛ لأن الحياة عبارة عن إنتاج وتوزيع، فجميع شرائح المجتمع هم وسائل للإنتاج، ويجب أن توزع الثروات على الجميع بالمساواة لتحقيق العدالة الاجتماعية وعدم التمييز الطبقي، وليس للفرد حق الملكية الخاصة، ولا حق السلطة على الأسرة، لأن الجميع يخضع لقانون الإنتاج، فحرمت النظرية الماركسية الإنسان من حريته الشخصية وحقه الشرعي في الملكية، وسلبته حرية الفكر والوصول للحقيقة؛ لأنها حددته بالقوانين، فهو رازخٌ تحت وطأتها، فالمجتمع هو محور الفكر الاجتماعي لماركس على حساب الفرد.

إذن إرادة النظرية الاشتراكية الماركسية تحقيق العدالة الإنسانية والمساواة بين فئات الشعب والحث على العمل والإنتاج والعناية بالجانب الاقتصادي والمعيشي للناس وحق الملكية العامة للجميع من أجل إيجاد مجتمع متوازن طبقياً وفكرياً ومتكافئ بين أفراده بغض النظر عن نوع وظيفته أو مقدار إنتاجه ليعيش المجتمع في سعادة وأمان، وهو هدف أي مجتمع عبر التاريخ.

****

الفصل الثاني

رواد علم الاجتماع من المسلمين:

لا يخفى أن للعرب حضارة لا تقل شأناً عن الحضارات في العالم القديم، وقبل ظهور الإسلام ظهرت في الجزيرة العربية، وأسست دول عريقة، ارتبطت بحضارات العالم اجتماعياً واقتصادياً وعلمياً وسياسياً وثقافياً، حتى جاء الإسلام ليميز الصحيح منها، وينبذ الخاطئ في رسالة الإسلام المحمدية التي أقرت بعض الممارسات الاجتماعية الصائبة مضيفة لها مبادئ جديدة مرتقية بها إلى أسمى درجات الحضارة الإنسانية.

يقول رسول الله ﷺ (**لقد شهدت في دار عبد الله بن جدعان حلفاً ما أحب أن لي به حمر النعم، ولو دعيت به في الإسلام لأجبت**)[1] دلالة على أن ملامح الحضارة العربية كانت مزدهرة ببعض السمات الإنسانية والخُلقية حيث أن هذا الحلف هو لدفع المظلومية عن أي شخص في مكة بغض النظر عن مكانته الاجتماعية؛ لأن المجتمع العربي كغيره من المجتمعات كان يتكون من الطبقية الرأسمالية وطبقة العبيد حيث كانت الثروة مجتمعة عند

---

(١) السيرة النبوية، ابن كثير، ١: ٢٥٨.

التجار والأسياد وبالمقابل طبقة فقيرة لا تملك قوت يومها مما أدى إلى غياب العدالة الاجتماعية بسبب التفاوت في توزيع الثروات، فجاء الإسلام للقضاء على هذه المظاهر الظالمة وعدم المساواة بين أفراد المجتمع ورفع الحيف عن المستضعفين، وقد نقل النبي محمد صلى الله عليه وآله المجتمع المسلم نقلة نوعية بعد هجرته إلى المدينة المنورة، حيث بدأ بتأسيس مجتمع متحضر قائم على العدالة والمساواة والتكافؤ الإنساني والتوزيع العادل للثروة وتبديد الطبقية ووضع أسس اقتصاد واجتماع إسلامي.

وقام بخطوة جبارة، تمثلت بالمؤاخاة بين المهاجرين والأنصار، حيث شملت المؤاخاة المشاركة في الأموال والأعمال والسكن والمعيشة، فحول المجتمع إلى مجتمع متجانس يعيش على أساس المحبة والمودة والاحترام المتبادل بين شرائح المجتمع، وامتد الإصلاح الاجتماعي للنبي صلى الله عليه وآله حتى إلى باقي الديانات الأخرى حيث عقد حلفاً مع اليهود في المدينة، هو من أبرز الوثائق الاجتماعية في التاريخ حيث أعطى لليهود حق العيش بسلام وأمن ما زالوا مسالمين، عرفت بصحيفة المدينة، فأنشأ النبي صلى الله عليه وآله في المدينة

مجتمعاً مدنياً متحضراً متآلفاً يجمع القوميات والأديان والألوان على أساس الاحترام المتبادل واحترام الحقوق والالتزام بالواجبات.

١- ابن خلدون: (٧٣٢ – ٨٠٨) هـ

هو عبد الرحمن بن أبي بكر، محمد بن خلدون الحضرمي، يعد ابن خلدون عند علماء الاجتماع المؤسس الأول لعلم الاجتماع، اشتهر بتأليف كتابه (التأريخ)، وخصوصاً مقدمته المعروفة بمقدمة ابن خلدون، حيث وضع فيها عصارة فكره وجهده الفلسفي عندما جاء بمباحث جديدة سمّاها (العمران)، وهي عبارة عن علوم الاجتماع والاقتصاد والقانون وفلسفة التاريخ، وهي عمران للمجتمعات والارتقاء بها، فقد كانت له الريادة في الخوض بهذه العلوم، ومن جاء بعده استفاد من نظرياته، وأضاف عليها.

يرى ابن خلدون أن الإنسان قاصر عن الإحاطة بالعالم؛ لذا عليه الاعتماد على التجربة الإنسانية مجموعاً بعضها إلى بعض للكشف عن الحقائق ومعرفة العالم؛ ولذا يجب دراسة التاريخ دراسة مستفيضة ودقيقة للاطلاع على حركة الإنسان عبر التاريخ وكيفية تقدمه ونموه الاجتماعي؛ لأن «**موضوع علم التاريخ هو**

الحياة الاجتماعية وما يعرض فيها من ثقافة مادية وعقلية، فالتاريخ يبين أعمال الناس وطرائق معاشهم ومنازعاتهم وحكوماتهم وصناعاتهم وعلومهم، ثم يبين كيف تزدهر المدنية قليلاً قليلاً بادئة من مبادئ بسيطة، ثم تأخذ في الزوال وتتقلب الجماعة في صور مختلفة، هي حالة البداوة ثم القبلية ثم الدولة في مدينة»[1].

اذن يقرر ابن خلدون أن كل جماعة تمر بثلاثة أطوار هي طور البداوة وطور القبيلة وطور المدنية أو الحضارة، وهذا التقسيم يعتمد على منهج ابن خلدون التكاملي في التجربة الإنسانية المتطورة، فكل ظاهرة إنسانية اجتماعية هي معلولة وعلة في الوقت نفسه معلولة لما سبقها من ظاهرة، وعلة لما بعدها حتى استطاع الإنسان أن يرتقي من البداوة إلى القبيلة إلى المدينة، والمدنية تقتضي طبيعة الإنسان الاجتماعية، وهو ما يسميه العمران.

أما بالنسبة للدين فإنه يجعله عاملاً ضرورياً لكمال المدنية أو الدولة، فبالإمكان بناء الدولة من قبل جماعة ووضع القوانين لها وتنظيمها، إلا أن نظامها لا يكون متكاملاً، فالدين يرتقي بها إلى

---

(١) الموسوعة الفلسفية، ص١١.

الكمال، والمدن المبنية على أساس الدين قليلة ونوعية، فللدين الأثر في تسديد الأفكار وتصحيح التجربة، فيوجد كثير من الممالك والدول التي تعيش بغير دين سماوي، ولها ملك واسع وأنظمة وقوانين ومدن عامرة، فالدين عند ابن خلدون ليس ضرورياً لتأسيس المدينة أو الدولة، ولكنه ضروري في رقيها وكمالها؛ لأنها تجمع منافع الدنيا والآخرة.

العمران البشري:

العمران البشري هو عملية اجتماع مجموعة من الناس، تسكن في محلة أو مصر للتعايش والتكافل فيما بينها وسد حاجات بعضها البعض لما تقتضيه طبيعتهم الاجتماعية التعاونية، وقد قسمه ابن خلدون إلى عمران بدوي وعمران حضري، والبدوي ما يكون في الضواحي والجبال والصحراء، أما الحضري فهو الذي يكون في المدن والأمصار، حيث يقول ابن خلدون (**إن الاجتماع البشري ضروري**)[1] أي أن طبيعة الإنسان هي اجتماعية؛ لأنه بحاجة إلى توفير سبل المعيشة من الغذاء والسكن وغيرها ولتأمين وضعه من

---

(١) مقدمة ابن خلدون، ابن خلدون، ٤٦.

العاديات احتاج إلى الجماعة للتعاون معهم على جلب المنفعة ودفع الضرر لبقاء الانسان وحفظ نوعه.

ولعدد السكان في نظر ابن خلدون علاقة بتطور العمران، فكلما كان عدد السكان أكثر كانت الصناعات والأعمال أغزر؛ لأن الصنائع تستجد كلما احتيج إليها، وكثر طلبها، وإذا انتقض عمران المصر، وقلَّ سكانه تناقص فيه الترف، ورجع الاقتصاد على الضروري فقط، والتطور الاجتماعي يشمل جميع الكائنات الحية، ومنها الإنسان، فهو مظهر من مظاهر التطور العام على أن يرتبط ماضي الظاهرة بحاضرها والمقارنة بينهما ودراسة تطور الظواهر والنظم العمرانية دراسة تاريخية؛ لأن العمران متطور متبدل حتى يصل إلى مرحلة صياغة القوانين الحاكمة للعمران ليصبح علماً بالملاحظة الحسية والتاريخية لجميع مواد موضوع البحث العلمي الاجتماعي أو عن طريق الاستقراء للظواهر العمرانية والوصول إلى نتيجة عقلية.

إن ما يحرك الإنسان اجتماعياً هو الحاجة والعمل، وهاتان المقولتان أساسيتان للوجود الإنساني فـ«**الواحد من البشر غير**

مستقل بتحصيل حاجاته في معاشه، وإنهم -الناس- متعاونون جميعاً في عمرانهم على ذلك»[١].

أما العمران البدوي فيقول عنه ابن خلدون (**أهل البدو الذين عدلوا عن الشظف الذي في الضواحي إلى الترف الذي في الحضر، فأحوال الحضارة ناشئة إذن عن أحوال البداوة، وحتى البدو مختلفين متفاوتين، فرب حي أعظم من حي، وقبيلة أعظم من قبيلة**)[٢] فالحياة البدوية هي الطور الأول لكل جماعة أو قبيلة، تبدأ بالتطور والانتقال إلى مرحلة متقدمة، ويكون الدافع لها هو العصبية، وهي التي تدفع بالقبيلة للألفة والاتحاد والدفاع عن المصالح المشتركة، فتنتقل إلى طور آخر، وهو طور الغزو وتأسيس الدولة، فتنتقل إلى طور المدنية والتحضر، وتبدأ مرحلة التمصير والتقنين والصناعة والتجارة وغيرها من مظاهر الحضارة.

يمتاز العمران البدوي بقوة العصبية بسبب قوة تلاحم القبيلة لتوحيد صفوفهم للدفاع عن أنفسهم مما يزيد تلاحمهم الاجتماعي،

---

(١) المقدمة، ابن خلدون، ص٤٣٥.

(٢) المقدمة، ابن خلدون، ص١٦٧.

وهم يكونون أقل اختلاطاً في الأنساب من أهل المدن، وهم يعيشون على الفلاحة والرعاية، فهي من مختصاتهم، فأجيال البدو طبيعية كما يقول ابن خلدون «**اعلم أن اختلاف الأجيال في أحوالهم إنما هو باختلاف نحلتهم من المعاش، فإن اجتماعهم إنما هو للتعاون على تحصيله والابتداء بما هو ضروري منه وبسيط قبل الحاجي والكمالي، فمنهم من يستعمل الفلح من الغراسة والزراعة، ومنهم من ينتحل القيام على الحيوان من الغنم والبقر والنحل، وهؤلاء القائمون على الفلح والحيوان تدعوهم الضرورة، ولا بد إلى البدو، لأنه متسع لما لا يتسع له الحاضر**»[1]، إذن العمران البدوي هو أقدم وأكثر أصالة من العمران الحضري؛ لأنه يعتمد على الخشونة وعدم الترف حيث ينظر ابن خلدون إلى الحضارة على أنها التفنن في الترف والكلف بالصنائع الكمالية، ويتميز البدو بشظف العيش وكثرة الترحال والانتقال، ويكونون أقرب إلى الخير من أهل الحضر، ويكونون أكثر شجاعة، وهي صفات عامة للبدو، ليس بالضرورة أن تشمل الجميع كما يقول ابن خلدون.

---

(١) مقدمة ابن خلدون، ابن خلدون، ج١ ص١٢٠.

العمران الحضري:

وهو طور متقدم للعمران البدوي يعد أكثر رفاهية وتطوراً وأوسع أحوالاً، عملوا على توسيع السكن واستحداث الملابس واستكثار الأقوات واختطاط المدن والأمصار.

تتبدل فيه أحوال المجتمع تغيراً تدريجياً من حال إلى حال بتغير وتطور طبيعة العيش والإنتاج وتطور الاقتصاد ونماء الأعمال والإبداع في الحرف من الضروري إلى الكمالي، وانتقال الحكم من بسيط إلى سلطة قائمة حاكمة منظمة ذات دواوين ونظم تحكم المجتمع قانونياً، وهذا التغير طبيعي حقيقي يقتضيه النمو الفكري البشري حتى يصل إلى مفهوم الدولة وتكوين الحضارة، ولا يكون هذا إلا بتكاتف أفراد المجتمع وسعيهم لتحقيق الإنجاز العمراني.

ولا بد أيضاً من جعل حاكم بمواصفات معينة يكون قادراً على إدارة الدولة بعدالة، وإنصافاً للعصبية دور في تهيئة هذه الأسباب عند ابن خلدون، فبوجود العصبية تظهر الدولة، فعندما تضعف العصبية تضعف الدولة، وتميل إلى الخمول والدعة، وبالتالي الانهيار، وهو يشبه الدولة والمجتمع الإنساني بالكائن الحي، له

مراحل ولادة، ثم تكبر، ثم تهرم حتى تسقط، وتنهار، وتحل مكانها دولة ذات عصبية أقوى، فتفرض سلطتها.

يقول ابن خلدون: «**إن الدولة والملك للعمران بمثابة الصورة للمادة، وهو الشكل الحافظ لنوعه لوجودها، فالدولة دون العمران لا تتصور، والعمران دون الدولة والملك متعذر لما في طباع البشر من عدوان الداعي إلى الوازع، فتتعين السياسة لذلك، إما الشرعية أو الملكية، وهو معنى الدولة**»[1]، فالدولة حالة متطورة عن الرئاسة والحكم من حيث المفهوم والتطبيق، وتكون أوسع رفعة وأكثر تنظيماً، فكلما كانت الدولة مستقرة كان العمران أكثر رسوخاً، وتضم هذه الدولة في كنفها عدة أمصار أو ممالك، وهو بحد ذاته تطور اجتماعي واقتصادي وسياسي، ويكون هذا التطور بمرور الدولة بعدة مراحل، هي مرحلة الظفر ومرحلة الاستبداد ومرحلة الفراغ والدعة ومرحلة المسالمة ومرحلة للإسراف والتبذير حيث تنقرض في مرحلتها الأخيرة، هذا هو خلاصة مفهوم ابن خلدون للعمران البشري ومراحل متقدمة وأطواره، وهي نظرية جديدة،

---

(١) مقدمة ابن خلدون، ابن خلدون، ج١ ص٣٧٦.

اكتشفها ابن خلدون بملاحظاته لاستقراء التاريخ وأسباب نشوء الحضارات، وأصبحت هذه النظرية مذهباً في علم الاجتماع.

وجوه المعاش:

من ضرورات الحياة للإنسان الاعتياش، ومن حيث الغذاء والسكن والملبس وغيره من المظاهر الحياتية التي يفتقر لها بطبعه البشري، فهو يحتاج إلى أبناء جنسه في ميدان الاكتفاء الذاتي لتحصيل معاشه بالكسب والإنفاق قد وضع ابن خلدون المصطلحات لطبيعة الكسب إن كان في اقتناص الحيوان سماه صيداً، وإن كان في استخراج ثمرة النبات بالزراعة سماه فلاحة، وإن كان في الأعمال الحرفية سمي صناعة، وإن كان بالتبادل السلعي والبضائع سمي تجارة، وإن الحاصل والمنتج إنْ صرف على الإنسان، وأنفقه في مصالحه ومنافعه سمي رزقاً، وإن لم ينتفع به في مصالحه سمي كسباً.

وقد درس أسباب تغير الأسعار وأثر انخفاضها وارتفاعها، ونادى بحرية التجارة، ورفض الاحتكار، وشجع على الصناعات

وقانون العرض والطلب فـ«**إن وجوه المعاش الإنساني ليست نتيجة لميول فردية شخصية بمقدار ما هي نتيجة للظروف الاجتماعية التي تنشأ فيها هي من جملة الظواهر الاجتماعية التي تجري عليها السنن والأحكام العامة؛ لأنها تابعة لأحوال العمران، فعلى مقدار عمران البلد تكون جودة الصنائع وكثرة التجارة بحيث تتوافر دواعي الترف والثروة**»[1].

أي أن طبيعة النظام الاقتصادي يعتمد على طبيعة الظروف الاجتماعية وما يحتاجه المجتمع في تطوره وتقدمه العمراني، وليس هو حالة شخصية فردية راجعة إلى هوى نفسي أو غرض شخصي؛ ولذلك بناء المجتمع يكون على أساس المصلحة العامة وسبل الوصول إلى السعادة والرفاهية للشعب، وإن لكل عمل قيمة، ولكل عامل أجراً يحدده قيمة عمله، وذهب إلى أن الكسب له معنى عام، فعرفه بأنه «**قيمة الأعمال الإنسانية**»[2]، أيْ أن قيمة أي عمل تتمثل في قيمته الإنسانية والنقلة اجتماعية في ميدان الحياة، ولم

---

(١) ابن خلدون مؤسس علم الاجتماع، عبده الحلو، ص١٣٥.

(٢) مقدمة ابن خلدون، ج١ ص٣٨١.

يولِ ابن خلدون للجانب الاقتصادي عناية كبيرة، وإنما عُني بطريقة العمل وسبل العيش وتنظيم الحياة الاجتماعية.

هذه هي الأفكار العامة لابن خلدون في علم الاجتماع الذي عرف به، وتخصص، وعده كثير أنه مؤسس علم الاجتماع، إلا أنه لم يكن يبني نظرياته بمنأى عن الدين، ولم يتجاوز الفكر الإسلامي في تقويمه للأحداث واستقرائه العلمي، بل جعل الدولة الدينية هي الدولة الكاملة من حيث البناء الاجتماعي المتكامل، فمن الممكن أن تؤسس مجتمعات ودولاً اعتماداً على التنظير الإنساني، وتقوم، وتنمو، وتقوى، إلا أنها لا تصل إلى الكمال لافتقارها إلى القوانين الإلهية غير القابلة للخطأ، فتكون تلك الدول أقوى وأكثر رفاهية وأطول عمراً من غيرها.

الفارابي: (٢٦٠ – ٣٣٩) هـ

أبو نصر محمد بن محمد بن أوزلغ الفارابي، ولد في فاراب من مدن الترك، من الفلاسفة المسلمين، ومن أشهر علمائهم، هاجر إلى بغداد، وبدأ الدراسة فيها، واشتغل بجميع العلوم، ويعد الفارابي المؤسس الأول للدراسات الفلسفية في العالم الإسلامي؛ ولذا سمي

بالمعلم الثاني إشارة إلى المعلم الأول أرسطو، وسمي بالمعلم الثاني لما قام به من تأليف كتاب يجمع، ويهذب ما ترجم قبله من مؤلفات أرسطو خاصة، فمنذ أيام الفارابي أحصيت كتب أرسطو، ورتبت على صورة لم تتغير في جملتها، وصارت تفسر، وتشرح على طريقة الفارابي[1].

عرف الفارابي بقوة التفكير وإتقانه لعدة لغات، ألّف كتباً كثيرة في مختلف العلوم، منها كتب إحصاء العلوم ورسالة في العقل وفي علم اللسان واللغة وفي المنطق وفي العلوم الطبيعية وكتاب المدينة الفاضلة في علم الاجتماع، وهو من أبرز كتبه، وجرت عليه دراسات عديدة لما طرح فيه من نظريات اجتماعية، وبناء مدينته الفاضلة يختلف عن مدن أفلاطون وأرسطو، إلا أنها مؤطرة بإطار ديني، وقد وفق الفارابي بين فلسفة أفلاطون وأرسطو وبين الفلسفة الإسلامية، وجاءت فلسفته الاجتماعية بعد ما عاصره من أحداث مرت بالأمة الإسلامية وما شهدته من اضطرابات والتنافس على السلطة وتعرض المجتمع الإسلامي إلى هزات بسبب الحروب والتناحر بين الدول.

---

(١) الموسوعة الفلسفية، ص٢٠٨.

المدينة الفاضلة:

كان حلم الفارابي في دولة متكاملة يسودها السعادة والعدالة الاجتماعية كسائر الفلاسفة والمفكرين، حيث عرفها بأنها «**المدينة التي يقصد بالاجتماع فيها التعاون على الأشياء التي تنال بها السعادة الحقيقية**»[1].

حيث يرى الفارابي أن الناس تدعوهم الضرورة الطبيعية إلى الاجتماع، وينظر إلى المجتمع الإنساني من حاجة الفرد للاجتماع، فالإنسان من الأنواع التي لا يمكن أن توفر الضروري من أمورها إلا بالاجتماع والتعاون، وهو ينبع من فطرته الإنسانية البشرية بحيث يقوم كل فرد بتوفير شيء من مستلزمات الحياة المعيشية حتى يصل إلى الكمال بالتعاون وقيام كل فرد بواجبه الاجتماعي، يمليه عليه واجبه في أنه فرد ضمن مجتمع بدافع إرادي لا غريزي، ولكن هذا الاجتماع يحتاج إلى تنظيم وتقنين وتحديد للمسؤوليات والتعريف بالحقوق والواجبات، وهذا كله يكون بإنشاء المدينة

---

(١) آراء أهل المدينة الفاضلة، الفارابي، ص١١٨.

الفاضلة التي تكون أنموذجاً للمعيشة الاجتماعية، وإلا مجرد الاجتماع لا يحقق شيئاً من مستلزمات المجتمع، «**فالمدينة التي يقصد بالاجتماع فيها التعاون على الأشياء التي تنال بها السعادة في الحقيقة هي المدينة الفاضلة والاجتماع الذي به يتعاون على نيل السعادة هو الاجتماع الفاضل والأمة التي تتعاون مدنها كلها على ما تنال به السعادة هي الأمة الفاضلة**»[1].

يشبه الفارابي المدينة الفاضلة ببدن الانسان الذي تتعاون أعضاؤه في القيام بحياته المعيشية، وهذه الأعضاء نفسها متفاوتة في الإمكانات، فبعضها عمله رئيس، والآخر ثانوي، كذلك المدينة، فيها من يرأسها، وفيها من يكون مسود، وللمدينة عمر محدد، كما لبدن الإنسان عمر محدود.

وقد قسم الفارابي المجتمعات إلى مجتمعات كاملة وغير كاملة، والكاملة على ثلاثة أصناف عظمى ووسطى وصغرى بحسب نوع الاجتماع، فما كان اجتماعهم في مدينة ضمن الأمة هو مجتمع صغير، واجتماع أمة في جزء من المعمورة هي الوسطى، أما

---

(١) الفارابي، مصطفى غالب، ص٩٤.

العظمى، والتي جعلها أكمل المجتمعات وأنضجها هي اجتماع الأمم في أرجاء المعمورة كأمة واحدة.

أما المجتمعات غير الكاملة التي تكون أضيق دائرة كاجتماع المحلة أو القرية أو أهل البيت الواحد فهي لا تحقق جميع مطالبها، فكلما كانت دائرة المجتمع أوسع ضمت أفراداً أكثر، وأصبح الاكتفاء أكثر، فالتكامل في المدينة يكون تصاعدياً حتى يصل للكمال، الإنسان يبحث عن السعادة التي تتأتى من الفضائل وأعمال الخير، وهي لا تتحقق إلا بالتعاون مع الآخرين، ليكمل بعضهم بعضاً بما يحتاج إليه الآخر، إذن فهو بحاجة للتوحد مع أفراد مجتمعه للوصول إلى الكمال المنشود الذي تحققه الجماعة على أنها وحدة واحدة.

وبالمقابل فإن هناك مدن جاهلة، لا تكون غايتهم السعادة والكمال والاعتدال، فلا يملكون عقيدة الفضيلة في المعيشة؛ إذ يعتمد أهل هذه المدينة على آلية المدينة أكثر من روحها، فيعدون الصناعات غاية لمعيشتهم ليس إلا، من غير أن تكون سبباً في إسعادهم، وكذلك المدينة الضرورية التي يعمل أهلها على تحصيل

الضروري، مما به قوام الحياة من المأكل والمشرب والملبس والمسكن بالاقتصاد والتجويع، وبأي وسيلة كانت حتى لو خالفت القانون وكذلك مدنية النذالة التي تقتصر غاية أهلها على استحصال الثروة وكسبها، وهي أشبه بالرأسمالية التي تغلب رؤوس الأموال على المصالح العامة، ويسلكون أي طريق، سواء كان شرعياً أم غير شرعي للتكسب والحصول على اليسار والثروة واستخدام الخداع واللصوصية وغيرها من أنواع المدن مثل المدينة غير الفاضلة التي تنظر للمدينة الفاضلة، ولكنها تطبق أعمال المدينة الجاهلة.

ومنها المدينة الضالة والمبدلة، وهي كلها لا تنتهج الفضيلة في بنائها وتأسيسها على أساس سعادة المجتمع وتحقيق ذاته الكمالية والسعي للوصول إلى مجتمع عادل منصف، فالمدينة لا بد لها من نظام وقانون، إما إلهي أو إنساني لإرشاد المجتمع وتوجيهه وضبط سلوكه ومعاقبة المقصرين لتحقيق الخير ومحاربة الشر لتأمين الوضع الاجتماعي والحفاظ عليه من الانهيار والاستبداد ونشر الفضيلة ونبذ الرذيلة والاعتدال والتوسط لا التطرف والفساد، أي على قاعدة أمر بين أمرين فلا إفراط ولا تفريط فالشجاعة فضيلة

بين الإقدام والتهور وكذلك السخاء فضيلة بين الإنفاق والبخل، هذا هو رأي الفارابي في معنى الفضيلة.

ولا بد للمدينة الفاضلة من حاكم أو رئيس، يقوم بتطبيق القانون والحفاظ عليه حيث يصفه الفارابي «**أن الرئيس الحقيقي هو رئيس الأمة الفاضلة ورئيس المعمورة كلها، ولا يجوز أن يكون فوقه رئيس أصلاً، ويكون إنساناً قد استكمل جميع الصفات الحسنة، فصار عقلاً ومعقولاً بالفعل، ويكون في أكمل مراتب الإنسانية وفي أعلى درجات السعادة ثم يجب أن يكون له مع ذلك قدرة بلسانه على جودة القول والتخيل وقدرة على جودة الإرشاد والسعادة**»[1] أي أن يكون رئيس المدينة كامل التعقل بما يفيض الله عليه وأن يكون قد وصل إلى أقصى مراتب الإنسانية وأسمى درجات السعادة المعنوية، فلا بد لإدارة المدينة الفاضلة من رئيس متكامل أعلم من غيره، يكون مرشداً ومسدداً لأمور الدولة، ويكون هو العقل المدبر لها والمنظم لشؤونها، فالرئاسة مهمة في ديمومة المدينة والحفاظ عليها من أي خرق قانوني ويبسط العدالة الإلهية في المجتمع،

---

(١) آراء أهل المدينة الفاضلة، الفارابي، ص١٢٤.

ويساوي في الحقوق بين الجميع، وهذا لا يتوفر في أي شخص، بل تأهيله يكون إلهياً تكوينياً حسب نظرية الفارابي، وعزا عدم المساواة بين الناس في مجتمعه إلى غياب الحاكم الحصيف الذي يقود الدولة من غير حكمة أو معرفة.

هذه هي أبرز مبادئ المدينة الفاضلة لدى الفارابي التي حاول من خلالها إيجاد مخرج من المشاكل الاجتماعية التي كان يعاصرها، ووضع الحلول لها بالتنظير لمجتمع فاضل متكامل اجتماعياً واقتصادياً وسياسياً وقانونياً مستفيداً من فلسفة الحكيمين أفلاطون وأرسطو متخذاً الوسطية في طرحهما متفوقاً عنهما بوضع الدين أساساً لبناء المجتمع الفاضل، فمن غير الدين لا يصل المجتمع إلى السعادة والعدالة والكمال والرقي، ولا يكون هذا إلا بوجود رئيس للمدينة بصفات خاصة بمقدوره إدارة المدينة بفكره وشجاعته وعدالته، ويكون المجتمع محتاجاً إليه، وليس العكس، وهو ما يصطلح عليه بالعقد الاجتماعي، وقد أشار الفارابي لإصلاح المجتمع، فقال: «**تتكون من ثلاث حلقات، الأولى الحلقة الاجتماعية حيث يتم إعادة بناء المدينة من الداخل بالقضاء على الصراع**

الاجتماعي المتمثل في التفاوت بين الشرائح والفئات مما يحول دون الالتزام بصبغة فاعلة للعدالة الاجتماعية، يأخذ وفقها كل ذي حق حقه وفرصته، تليها حلقة سياسية خاصة برأس المدينة أو رئاستها، وذلك لتحقيق العدالة السياسية التي تكرس العدالة الاجتماعية موفرة السند اللازم لها، فإذا أمسكت أحكام بناء الحلقات الاجتماعية والسياسية فإن ديمومة استمرارها إنما يرتبط بحلقة أسمى تمثل الإرادة الإلهية التي تظلل المدينة أو الدولة أو المعمورة بكاملها، وتكون الحكمة سبيل الوصول إليها، وهي الذروة الفكرية التي نشدها الفارابي لمجتمع أرضي صالح، تتوسط الحكمة بينه وبين الإرادة الإلهية التي تظلله»[1].

السياسة المدنية:

اتسمت أفكار الفارابي السياسية بالمعاني الإنسانية في العلاقات الاجتماعية والروابط البشرية سواء في تعامل الإنسان مع أسرته أو تعامله مع مجتمعه متمثلة بالأخلاق وعلاقات الصداقة والسياسة المدنية، أما بالنسبة للصداقة التي عُني بها في كتابه

---

(١) تاريخ الفكر الاجتماعي، متعب مناف جاسم، ص١٨٥.

«السياسة» فإنه يصف الصداقة بأنها صداقة خالصة، فيقول في كتابه: إن هناك أصدقاء اعتياديين، يجب معاملتهم بملاطفة مصحوبة بحذر، وأن لا نثق بهم أو نستشيرهم أو نركن إليهم، فهم أصدقاء، وليسوا أعداء بهذا المقدار، وهي درجة متدنية من الصداقة، وهناك أصدقاء حقيقيون مخلصون نثق بهم، ونؤمنهم، ونستشيرهم، وهم يجب أن نعيش معهم إذا أردنا أن تكون المدينة فاضلة، فإن جوهرها يمكن أن يتحقق في أفراد يقر لهم بانتمائهم لهذه المدنية وتكوين مجموعات من الأصدقاء المخلصين الذين يساعدون في الوصول إلى السعادة والكمال.

وقد يكون الأكفاء من الناس أعداء ذوي حقد وضغينة، فيجب الاحتراس منهم، أو يكونوا حساداً، فيجب إغاظتهم وإيذاءهم، وقد يكون لا صديقاً ولا عدواً، فأما يكون ناصحاً أو سفيهاً، فنحلم معهم، ومن السياسة سعي الإنسان لجمع المال من دون الإخلال بالدين والمروءة والعرض، فهو حق اقتصادي طبيعي مكفول لكل إنسان ممارسته وتحصيله.

أمـــا بالنســـبة لقـــوى الإنســـان التـــي يتحـــرك بهـــا في المجتمـــع، فيقسمها إلى قسمين، همـا القـوة الناطقـة والقـوة البهيميـة التـي يولـد بهـا الإنسان، وينشـأ، ويـدرج، ويبـدأ بتطـوير ذاتـه وإمكانياتـه العقليـة حتـى يصـل إلى مرحلـة الإدراك والناطقيـة التـي تنـزع نحـو الأمـور المحمـودة مثـــل العلـــوم والفنـــون والآداب وغيرهـــا، فوصـــول الإنســـان إلى الفضـــيلة إنـــما يتحقـــق بالناطقيـــة، وبخلافـــه إذا بقـــي يتعامـــل بقوتـــه البهيمية فإنه سيبقى متعلقاً بالرذائل والاحتيال والفساد.

هـذه بعـض أفكـار الفـارابي الاجتماعيـة، والتـي تركـت أثـراً بالغـاً على من جاء مـن بعـده في دراسـة المجتمـع وتطـوره وإمكـان وصـوله إلى الكمال والسعادة والفضيلة.

ابن رشد: (١١٢٦ – ١١٩٨) م

هـو محمـد بـن أحمـد بـن محمـد مـن فلاسـفة المسـلمين، ولـد في قرطبـة مـن بيـت فقاهـه، تـولى القضـاء في أشـبيلية، ويعـد مـن أشـهر فلاسـفة المسـلمين، لقبـه الغـرب بـ (أفـيروس)، وهـو مؤسـس مـذهب الفكـر الحـر الـذي كـان سـبباً في عـدم فهـم وجهـة نظـره، فقـام الـبعض

بتكفيره حيث أنه حاول التوفيق والتقريب بين الدين والفلسفة، حيث اعتقد بوجود حقيقة واحدة مع تعدد الطرق إليها، وهو أساس حرية الفكر، وعليه كان يقول ابن رشد بالاستفادة من جميع العلوم بغض النظر عن تدين صاحبها، فالمعيار هو صحة المعرفة.

عرف ابن رشد بأنه شارح أرسطو، فقد شرح كتبه أغلبها، ويعد أفضل من شرحها من الفلاسفة المسلمين مثل ابن سينا وابن باجة والفارابي، وكذلك له شرح على كتاب الجمهورية لأفلاطون، مع التزامه في فلسفته في شرح كتب أرسطو، إلا أنه لم يتخل عن معتقده الديني وانتمائه الثقافي الإسلامي، بل أخذ على عاتقه التوفيق والتقريب بين الشريعة والفلسفة، «**على أنّ دفاع ابن رشد عن الشريعة باعتبارها دستوراً للدولة الإسلامية المثلى مصحوب بنقد مدعم بالبراهين يوجهه للدولة الإسلامية في عصره**»[1].

---

(١) الموسوعة الفلسفية، ص١٢.

الفلسفة الاجتماعية والسياسية لابن رشد:

تأثر ابن رشد بالفلسفة الاجتماعية الأرسطية والأفلاطونية بشرحه لكتاب الجمهورية لأفلاطون، وتتبعه لكتب أرسطو وترجمتها صار عنده معرفة بآرائه ونظرياته، وهو يتبنى مشروع المدينة الفاضلة لمجتمع فاضل متكامل سعيد، وهي تتكون عنده من ثلاث طبقات أو قوى ابتداء من رأس المدينة، وهم الرؤساء، ومن ثم وسيلة حماية المدينة، وهم الجنود، وهي الطبقة الثانية، وبعدها الطبقة الثالثة، وتشمل المنتجين والخدميين من الصناع والفلاحين والحرفيين وغيرهم من القوى العاملة.

وعلى الرئيس للمدينة أن يتصف بالحكمة والعقلانية، وهو تقسيم أنموذجي طبيعي، واختيار الناس في الطبقات يعود إلى قواهم النفسية، فمن يتمتع بالحكمة والعقل يكون رئيساً، ومن يتمتع بالقوة الغضبية والشجاعة يكون جندياً أو عسكرياً، ومن يملك فضيلة القوة المنتجة فإنه يكون عاملاً في تلك المدينة، إذن التقسيم تقسيم نفسي واستعدادي للناس، يضع كلاً منهم في طبقته المناسبة، وهذا التصنيف هو تصنيف منطقي واقعي، وبالإمكان

تحقيقه على أرض الواقع، وهو إصلاح اجتماعي، يأتي تدريجياً على مراحل زمنية طويلة إذا حكمها رؤساء وفضلاء يرعون، ويؤثرون في مدنهم إيجابياً بالآراء الصائبة والعدالة الاجتماعية، ولا يكون هذا بالأقوال فقط، بل يحتاج إلى فعل حقيقي لتحقيقه، اما إذا استبد الملك أو الحاكم بالمدنية وخالف موازين الظلم والعدل، وأجبر الرعية لمصلحته الشخصية باستخدام القسوة والظلم، فتنشأ دول استبدادية، فيفقد الشعب سعادته والمدينة جمالها، وهو ما حصل في الحكومات الأموية وما جرى من ظلم على الناس وضرب العدالة الاجتماعية في صميمها.

يتحدث ابن رشد عن المدينة الديمقراطية أو الجماعية التي تكون إدارة حكمها وشؤونها بيد الناس باستشارة كبرائهم ورؤسائهم على مستوى القبيلة أو القرية أو المدن الكبرى، ويسقط ابن رشد هذه النظرية على الدول الموجودة في وقته الراهن واصفاً إياها بأنها مدن أسرية، تحكمها الأسر مما قد يتسبب بظهور الطغيان والاستيلاء على الحقوق وتكوين الاقطاعيات على حساب حقوق الناس، ويرى ابن رشد أن الطغيان والتسلط للحاكم بعد تسليم

النـــاس أمـــورهم إليـــه وتفويضـــه في إدارة شـــؤونهم بقصـــد حمـــايتهم، وعنـدما يـرون أن فعلـه عكـس إرادتهـم، يحـاولون طـرده مـن المدينـة، فيقسو علـيهم، ويسـتعبدهم، ويسـتولي عـلى معـداتهم وممتلكـاتهم، وإنـما يحـاكي ابـن رشـد بنظرياتـه هـذه حـال الـدول الإسـلامية في وقتـه ومـا أصـابها مـن الضـعف والـوهن بسـبب تسـلط حكامهـا عـلى الشـعوب واختلال الميزان الاجتماعي وفقدان العدالة والمساواة في الحقوق.

تميـزت نظريـات ابـن رشـد الاجتماعيـة بعنايتـه بـالمرأة في المجتمـع ومـا تمثلـه مـن ثقـل، لا يمكـن إنكـاره، فكـان يطالـب بتحريـر المـرأة، حيث كـان يقـول: (**إن المـرأة تقـل عـن الرجـل في الدرجـة لا في الطبيعـة، فهي لهـا القـدرة عـلى ممارسـة عمـل الرجـال كـالحرب والفلسـفة، ولكـن بدرجـة أقـل مـن الرجـل، أي بالكميـة لا بالنوعيـة، وكـذلك في بعـض الفنـون كالموسـيقى، بـل لهـن القـدرة عـلى ممارسـة دور الرئاسـة للمـدن والجمهوريات**).

ويعلـن أن لا فـرق بـين الرجـل والمـرأة، فهـما مـن حيـث النـوع واحـد، بـل إن لكـل مـنهم قـواه الخاصـة، فالرجـل لـه قابليـة تحمـل الأعـمال الشـاقة والمـرأة أحـذق في أعـمال أخـرى، فهـم مـن حيـث

الطبيعة الإنسانية لا فرق بينهما، فيجب أن تلقى المرأة التربية نفسها التي يحظى بها الرجل ومشاركته في سائر الأعمال، ويقول ابن رشد: إن الحالة الاجتماعية لا تؤهلنا للإحاطة بكل ما يعود علينا بمنافع المرأة بسبب استعبادها وإهانتها والقضاء على أفكارها فافتقدت كثيراً من الفضائل، فأصبحت عالة على المجتمع.

وبما أنها نصف المجتمع فقد كان مردود تخلفها واضحاً على المجتمع، مع أنها قادرة على استكمال فضائلها الإنسانية، وباستطاعتها المشاركة بأعمال الرجال وحرفهم، ولكن بنحو أقل.

وإنما جبلت المرأة على الانجاب والتربية والرضاعة، فليس لها أكثر من هذا العمل لتمارسه في الحياة، فهي أشبه بالأعشاب، فصارت النساء سبباً للتعاسة وفقر المدن مع قيامهن ببعض الأعمال البسيطة كالغزل والنسج لكسب الأموال.

هذه هي فلسفة ابن رشد الاجتماعية وطبيعة نظرته للمجتمع ومكوناته وطريقة إدارته معتمداً على أفكار أفلاطون وأرسطو في صياغة مدنهم الفاضلة مع أنه اختار طريقاً وسطاً وأكثر اعتدالاً وواقعية في النظر لتلك المدن غير متناسٍ لخلفيته الدينية الإسلامية، وخصوصاً في موضوع الحاكم أو الرئيس للمدنية.

هـذه هـي بعـض الـنماذج لعلـماء الاجـتماع المسـلمين، فلقـد زخـر هـذا العلـم بعلـماء مسـلمين كُثُـر مثـل ابـن سـينا وابـن باجـة وإخـوان الصـفا والـرازي، وقـد أبـدع الجميـع بنظريـاتهم الاجتماعيـة النابعـة مـن فلسـفاتهم الأخلاقيـة والسياسـية، فقـد قسـم إخـوان الصـفا النـاس إلى مراتب وأصـناف سـبعة، بحسـب سـجايا وأخـلاق تختلـف عـن الطبقـة الأخـرى، ولـيس التصـنيف عـلى أسـاس السياسـة أو الاقتصـاد، وإن البشـر مـنهم مـن ينفـق بقـدر حاجتـه، فيكـون محمـوداً منصـفاً مكرمـاً، أما إذا لم يحسن الإنفاق فيكون متعوباً مذموماً.

وعُنـوا أيضـاً بالصـداقة، فيجـب اتخـاذ الصـديق المخلـص المجربـة أخلاقه وسجاياه والتعـرف عـلى أحوالـه، أمـا مـن يخـرج عـن الاعتـدال فـلا يصـلح أن يكـون صـديقاً، واكتسـاب الصـديق مـن الصـعوبة بمكان، وللصـداقة شروط يجـب الالتـزام بهـا مـن حفـظ الصـديق وأداء حقوقـه، بـل إن الصـديق يكـون مفضـلاً عـلى الأقربـاء والعشـيرة، هـذه نظرة اجتماعية لإخوان الصفا في هذا المجال.

أمـا ابـن باجـة فكـان لـه رأي في طبيعـة العلاقـة بـين الفـرد والحكومـة، فـالفرد الـذي أسـماه المتوحـد هـو الـذي يكـون أقـرب إلى

الكمال، ومع وجود الحكومة الكاملة التي بحسب فكره لا يحتاج أهلها إلى الطبيب والقاضي وغيرهم، لأن أهلها سيكونون في طريق الكمال، فلا يأكلون ما يضرهم، وهم ملتزمون بقوانين الحكومة غير مخالفين، فلا حاجة للقضاء، فهي حكمة كاملة كفيلة بأن يبلغ الفرد فيها أرقى مراتب الكمال لاعتدالهم والتزامهم بقوانينهم غير مداهنين أو مغالطين.

ويقسم الأعمال إلى أعمال غايتها شكل الإنسان، وأعمال غايتها جوهر الإنسان، أما الأعمال الشكلية مثل الأكل والشرب واللبس والسكن، وهي من شأنها المحافظة على شكل الإنسان وديمومته، والأعمال التي تعنى بروح الإنسان، وغايتها نفسية مثل النبل والكرم والعلم والفن وغيرها التي تنمي روح الإنسان وقابلياته النفسية.

وعبر عن الإنسان المتوحد بالنبتة أو النوابت إشارة إلى النبتة التي تتنحى لتأخذ لها مساراً آخر في نشأتها، ومجموع المتوحدين هم النوابت.

أما ابن سينا الطبيب والفيلسوف المسلم فقد كان له أيضاً أفكار اجتماعية، تمثلت بتصويره للاجتماع الإنساني على أنه وحدة واحدة متكاملة، يتخادم أفرادها لتوفير ضروريات الحياة من الزراعة والصناعة والخياطة على نحو الكفاية، فلا يستطيع الفرد الواحد كفاية نفسه بنفسه من كل شيء، بل يحتاج إلى من يعينه على ذلك، بخلاف الحيوان الذي يقتات بنفسه، ويستغني عن أصناف نوعه، فالإنسان بطبيعته اجتماعي.

لابن سينا آراء في المدينة الفاضلة هي أكثر نضجاً من غيره وأكثر واقعية عندما يصنف العمل على ثلاث دعائم، هي المدبرون والصناع والحفظة، وكل طبقة يكون لها رئيس، وتحته رؤساء وهكذا حتى تصل إلى كل الناس أي التصنيف الهرمي الذي يشكل هيكلية أي مؤسسة حكومية، وهي نظرة حديثة للعمل، والعاطل يجب ردعه أو نفيه، وأما المعاق فيجب توفير ما يحتاجه من فرض الضرائب على العاملين، وهذا التقسيم يدل على الروح العصرية لابن سينا وتفهمه لطبيعة المدن المعاصرة له، ولكن يرى أن يكون هناك أنموذج للمدن بالمدينة الفاضلة.

بهذا ننهي الحديث عن رواد علم الاجتماع من الغرب ومن المسلمين الذين ساهموا مساهمة فاعلة في تطوير النسق الحياتي للمجتمعات، ووضعوا الحلول لبضع مشكلات عن طريق وضع فلسفات لمدن فاضلة تتضمن أساسيات العدالة الاجتماعية، وتوفر أسباب السعادة ومشاركة الكل بالحقوق وتحملهم لواجباتهم عن طريق العقد الاجتماعي الحاصل بين الناس وبين رئيس المدنية أو الدولة أو الحكومة الذي يتعهد بتنفيذ ما يصبو إليه أهل المدينة من الكمال والسعادة والرفاهية، ولم يختلف الجميع، سواء علماء الغرب أو المسلمون على وضع الإنسان في أولويات اهتماماتهم الاجتماعية، والاهتمام بالأسرة كونها اللبنة الأولى لإصلاح المجتمع أو إفساده وتنظيم المجتمع باعتبار أن الإنسان كائن اجتماعي بطبيعته، ويحتاج إلى تنظيم أمور حياته لكي يتسنى له العيش بأمان وطمأنينة وسلام، وهذه المدن التي تحدث عنها علماء الاجتماع هي مدن أنموذجية قد تكون على مستوى القرية أو المدينة أو الدولة أو المعمورة، فالطموح بالإصلاح الاجتماعي ناظر إلى جميع البشر والأمم دون استثناء بغض النظر عن الدين أو الجنس أو اللون أو القومية.

علم الاجتماع في الإسلام:

من سمات الدين الإسلامي على المستوى العلمي أنه عُني بالمجالات العلمية، وأسس لها، وعمل على تطويرها والاستفادة من النتاج البشري المؤيد بالنظرية الإسلامية التي لم تقتصر على الاحكام والأخلاق والآداب، بل ساهمت أيضاً في فتق العلوم وتفريعها ودراستها، وإلى الآن -ونحن في الألفية الثانية- ما زالت الاكتشافات تؤكد، وتبين ما جاء في القرآن الكريم في بعض الآيات التي نظّرت في مجالات علمية لم يكن العقل ليدركها في حينها في العلوم الطبيعية والفلكية وعلوم الأرض والطب والهندسة وغيرها.

أما في العلوم الإنسانية فقد حاز علم الاجتماع على عناية المسلمين؛ لما جاءت به الرسالة الإسلامية من قواعد وقوانين اجتماعية، فغاية الدين هي تنظيم شؤون المجتمع والأمة، فاغلب التعاليم الإسلامية داخلة في صلب الفكر الاجتماعي من حيث تنظيم شؤون الفرد والأسرة والمجتمع وتنظيم العلاقة فيما بينهم، فالإسلام يحث على الجماعة والتكافل بينهم والالتفات إلى طبيعة الإنسان الاجتماعية، فالأحكام الإسلامية تنطلق من حقيقة أن

الخالق هو المدبر، وهو العالم بخفايا الأمور، وما يحتاج الانسان بما يتوافق مع طبيعته البشرية.

امتاز المجتمع الإسلامي بقوته وتماسكه ونموه وهيمنة الشريعة الإسلامية على العادات والتقاليد القبلية، وقد شهد اختلاط الجنسيات وتداخل الحضارات بعد دخول البلدان غير العربية في الإسلام وحدوث الهجرة إلى البلاد العربية، فتلاقحت الأفكار، واكتسبت بعض التقاليد والأعراف، وتعد هجرة النبي صلى الله عليه وآله من مكة إلى المدينة نقطة تحول في التاريخ الإسلامي من حيث التغييرات التي قام بها الرسول الكريم وتطبيقه المبادئ الإسلامية والقواعد الاجتماعية وتشكيل مجتمع جديد على أساس النظرية الإسلامية، فقد شهدت المدينة عدة أعمال، قام بها النبي صلى الله عليه وآله من أبرزها المؤاخاة بين الأنصار والمهاجرين، فقد آخى بين كل واحد من الأنصار مع مهاجريّ، وقاسمه ماله في السكن والعمل ورؤوس الأموال، فجعل المسلمين طبقة اجتماعية واحدة، لا تفاوت بينهم.

وكذلك من الاعمال البارزة التي أسسها النبي صلى الله عليه وآله الصلح بين المهاجرين والأنصار وبين اليهود القاطنين بالمدينة، وهي خطوة

جبارة في عالم الاجتماع للتعايش السلمي وقبول الآخر بغض النظر عن دينه أو جنسه أو لونه.

وعرف هذا الحلف باسم صحيفة المدينة لما حملته من قواعد أخلاقية وتنظيمات اجتماعية، وأوجد بيئة آمنة للمسلمين، وأتاح حرية الفكر في اختيار الدين الذي يريده، وقد ساوى النبي ﷺ بين المسلمين واليهود في الحقوق والواجبات، وهو ما يفسر تغيير اسم يثرب إلى المدينة؛ لأنها تحولت إلى مجتمع مدني بأسلوب حياة متحضر، فدعوة الرسول الكريم ﷺ إلى المساواة بين أفراد النوع الإنساني من حيث إنسانيته، وهو غاية التحضر المدني الاجتماعي حيث يقول النبي ﷺ (**يا أيها الناس إن ربكم واحد، وأن اباكم واحد، ونبيكم واحد، كلكم لآدم، وآدم من تراب، ولا فضل لعربي على أعجمي ولا أعجمي على عربي ولا أحمر على أسود ولا أسود على أحمر إلا بالتقوى إلى آخر كلامه**)[1] وقول الإمام الصادق عليه السلام (**الناس سواء كأسنان المشط**)[2] وقول الإمام علي عليه السلام (**الناس إلى آدم**

---

(١) تحف العقول، ابن شعبة الحراني، ٣٤.

(٢) ميزان الحكمة، محمد الريشهري، ٤: ٣٣٩٤.

شرع سواء)[١] **(المرء كثير بأخيه) (لا خير في صحبة من لم ير لك مثل الذي يرى لنفسه)**[٢] كلمات نورانية إنسانية لتجعل الإنسان محور الكون كما جاء على لسان أهل البيت عليهم السلام في كلماتهم، وهو منهج الفكر الاجتماعي بأصالته وحقيقته.

الإسلام وضع نظاماً كاملاً للأمة، أُرسيت فيه القواعد، ووضحت فيه كيفية حل المشكلات الجزئية، وعالج الأخطاء التي كانت تمارس اجتماعياً، طبق النبي صلى الله عليه وآله أيام حياته مبادئه وأساسياته الأولية، ثم جاء أهل البيت عليهم السلام تبعاً له مواصلين التطبيق على منهجه القويم عملياً وسلوكياً، فمن يتابع سيرة الأئمة المعصومين سيشاهد عنايتهم بتقويم المجتمع وتربيته وتعليمه على الأساس الإسلامي، ومن يستعرض كلام الإمام علي عليه السلام الزاخر بالفكر الاجتماعي المستمد من القرآن وسنة النبي صلى الله عليه وآله يرى العجب في ذلك، وسيرى مدى إحاطته بالاجتماع الإنساني والنفس البشرية ورسم خارطة الطريق لكمال النفس وسموها، حيث اتحف الإمام أمير المؤمنين عليه السلام الفكر الإنساني بالقواعد والنظريات بوصاياه ورسائله إلى عماله

---

(١) المصدر نفسه، ٤: ٣٣٩٤.

(٢) بحار الأنوار، المجلسي، ٧٥: ٢٥١.

ومواعظه إلى أصحابه وما ترشحت عنه من صناعة شخصيات اجتماعية فاعلة ومؤثرة في محيطها، ولعل من أبرز وصاياه الاجتماعية هي وصيته لولده الإمام الحسن عليه السلام والتي ذكر فيها عدداً من قواعد التعامل الاجتماعي وتزكية النفس مما يصلح أن يكون مشروعاً كاملاً متكاملاً في علم الاجتماع حيث يقول «**أحبب لغيرك ما تحب لنفسك، واكره له ما تكره لها، ولا تظلم كما لا تحب أن تظلم، وأحسن كما تحب أن يحسن إليك، واستقبح من نفسك ما تستقبح من غيرك، واعلم أن الإعجاب ضد الصواب وآفة الألباب، فاسع في كدحك، ولا تكن خازناً لغيرك، قارن أهل الخير تكن منهم، وباين أهل الشر تبن عنهم**»[1] فسترى أن هذه الكلمات هي في صميم التآلف الاجتماعي وتنظيم العلاقات بينه، وهي من أروع الوصايا التي تحث على تعليم الفرد كيفية التعامل مع الآخرين في المجتمع.

وكذلك من وصاياه عليه السلام عهده إلى مالك الأشتر وما حمل هذا العهد من تنظيم عالٍ لما يجب أن يكون عليه رئيس الدولة أو

---

(١) نهج البلاغة، ٣: ٤٥-٤٦.

الحكومة في إدارياته وتعامله مع شعبه، حيث يقول عليه السلام «**وأشعر قلبك الرحمة للرعية والمحبة لهم واللطف بهم، ولا تكونن عليهم سبعاً ضارياً، تغتنم أكلهم، فإنهم صنفان، إما أخ لك في الدين أو نظير لك في الخلق**»[1].

وهذا الكتاب من أبرز ملامح الفكر الاجتماعي الذي يتجلى فيه تنظيم الدولة والمجتمع تنظيماً أخلاقياً وقانونياً بين المسؤول والرعية، وفيه اسمى معاني الإنسانية، ولا شك أن أهل البيت عليهم السلام ورثة علم النبي صلى الله عليه وآله، وقد عُنُوا كثيراً بشؤون الأمة والعلاقات الاجتماعية، فعن فاطمة الزهراء عليها السلام أنها كانت تدعو لجيرانها ثم تدعو لأهل بيتها، فيسألها الإمام الحسن عليه السلام عن ذلك، فتجيبه (الجار ثم الدار) إشارة إلى أهمية الجار والاهتمام بالعلاقة الاجتماعية به، وكذلك عند استقبالها لخادمتها فضة، فتخيرها في العمل في البيت بين العجن والخبز[2] فعلمتنا الزهراء عليها السلام مبادئ وأساسيات العلاقة مع العامل وكيفية مخاطبته بما لا يجرحه، ولا يذله، فمدرسة أهل

---

(١) المصدر نفسه: ٣: ٨٤.

(٢) الإصابة، ابن حجر، ٨: ٢٨١.

البيت عليهم السلام هي مدرسة الحياة والمجتمع الصالح الفاضل الذي أعطى نماذج من الشخصيات التي أصبحت قدوة للباحثين عن الفضيلة والكمال والسلام، وقد سلك أهل البيت عليهم السلام في منهجهم طريق القول والفعل، فكانوا أول من يطبق التعاليم الإسلامية، وأول من ينتظم بالنظام الإسلامي، وتعاملوا مع الناس على أساس الطبيعة الإنسانية ومراعاة حقيقة الفرد البشري من حيث تكوينه من جوهر ومادة، فأعطوا لكل حالة حقها التشريعي والخُلقي.

وقد اتسمت سياسة أهل البيت عليهم السلام المدنية بالرقي في التعامل واحترام إرادته والنظر إليه بمنظور ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ﴾ من غير تمييز في الجنس أو اللون أو القومية أو الدين، فذا علي أمير المؤمنين عليه السلام يشاهد رجلاً نصرانياً مكفوفاً في شوارع الكوفة يتكفف، وهو شيخ كبير، فقال: ما هذا؟ فقالوا: نصراني كبُر وعجز، ويتكفف، فامتعض أمير المؤمنين عليه السلام من ذلك الوضع قائلاً: ما أنصفتموه، استعملتموه حتى إذا كبر، وعجز تركتموه، أجروا له من بيت المال راتباً.

هـذه قمـة النظـرة الاجتماعيـة، وأسـمى معنـى اجتماعـي يمارسـه حـاكم مـع رعيتـه، انـتهج أهـل البيـت عليهم السلام المـنهج القـرآني في فكـرهم الاجتماعـي، فـالقرآن لمـن يتـدبر آياتـه، ويتأملهـا هـو أعظـم كتـاب اجـتماع، تضـمن نظريـات أخلاقيـة وأدبيـة ونفسـية واقتصـادية وسلوكية، مـا يجعلـه منهجـاً للحيـاة الصـالحة الفاضـلة السـليمة مـن أي مـرض روحـي، قـد جعـل للأخـلاق مرتبـة شريفـة، بـل إن القـرآن وصـف النبـي صلى الله عليه وآله، وميـزه بـالخلق العظـيم ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ إشارة إلى أهمية الأخلاق في تربية الفرد والمجتمع.

وأيضـاً عُنـي بالسـلوك النفسـي والخـارجي مؤدبـاً للفـرد في تعاملـه مـع الآخـر ﴿فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ﴾ مـا أعظمهـا مـن آيـة تفسـر طبيعـة الإنسـان الاجتماعيـة التـي تسمو على الخلافـات الشخصـية، وترفـع مـن شـأنه الروحـي، وتبـين لـه شخصية أليفة محبـة وقويـة، لا تتعامـل بـردود الأفعـال، بـل تتعامـل مـع الفعـل نفسـه، وهـو تصـحيح لسـلوك الإنسـان الخـاطئ مـع أخيـه الإنسان عنـد حـدوث أي مشـكلة، فهـو عـلاج نـاجح لحفـظ العلاقـات

الإنسانية الاجتماعية من التفكك والانحلال والضعف ودعم تماسكها ورص أواصرها وتمتينها.

ينظم القرآن الكريم كل العلاقات الاجتماعية ابتداء من الفرد مع الفرد والفرد ضمن الأسرة وعلاقة الأسرة مع بعضها وعلاقة الأسر مع بعضها المكونة للمجتمع وعلاقة الفرد مع المجتمع وعلاقة المجتمعات مع بعضها بنظام متكامل رصين، يثبت الحقوق للجميع، ويثبت الواجبات عليهم، فلا تجد فيه أي اختلاف أو أي تخلف يسبب المشاكل في التطبيق، يقول تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ﴾[1]، اذن التعارف صفة ذاتية ملازمة للإنسان في صميم طبيعته الإنسانية، تكون دافعاً له للانسجام والتعايش مع أفراد جنسه والتكامل معهم للوصول إلى الحياة السعيدة الفاضلة.

أكد الإسلام على التعايش السلمي والتكافل الاجتماعي وإزالة جميع الفوارق الاجتماعية ونبذ الطبقية ومحاربتها على المستوى الاقتصادي والأخلاقي والنسبي والوظيفي، وجعل الناس سواسية

---

(١) الحجرات: ١٣.

كأسنان المشط، فأساس كمال المجتمع هو وضع جميع أفراده في مستوى واحد، وهذا ما عمل عليه الأنبياء والأوصياء، ونرى أن اهل البيت عليهم السلام قد جسدوا هذه المعاني، ومارسوها، فلم يتكبروا على الباقين على رغم نسبهم الشريف وعلمهم وإمارتهم على الناس، بل استخدموها لتربية المجتمع وتعليمه على التواضع والأخلاق والسلوك المعتدل والإنساني، فعند دخول أحدهم على النبي محمد صلى الله عليه وآله في المسجد لم يميزه عن باقي المسلمين، فيسأل: أيكم محمد صلى الله عليه وآله، دلالة على ممارسة النبي صلى الله عليه وآله لحالة التواضع والتعايش مع الباقين بمستوى واحد وبأعلى مستوياته، ولا شك فهو نبي الرحمة والرأفة، ونرى الإمام علياً عليه السلام وأولاده المعصومين عليهم السلام يحملون الطعام إلى الفقراء والأيتام ليلاً على ظهورهم وإيصالها إليهم بكل محبة ومودة مع تسنمهم لأعلى سلطة مدنية، لكن لم يمنعهم ذلك من ممارسة عملهم الاجتماعي فكان هذا له الأثر الكبير على نفوس الناس وتأثرهم بهذه المشاهد ومحاولة الاقتداء بهم.

يعد الإسلام نظام حياة متكاملاً بتشريعاته وأحكامه ومبتنياته الخُلقية ومنظومته العقدية وتربيته وتهذيبه لإنشاء مجتمع

صحيح فاضل متكافل قريب من الله تعالى، وهو نظام اجتماعي إلهي في نظرياته وقواعده، وليس تشريعاً إنسانياً قابلاً للنقاش والإشكال عليه، بل هو أفضل نظام اجتماعي إذا ما قيس، وقورن بالأنظمة والأفكار الاجتماعية السائدة للفلاسفة الغربيين الذين وضعوا أسس علم الاجتماع، وحاولوا الوصول إلى أفضل النظريات لإدارة المجتمع، لكنهم لم ينجحوا؛ لعدم إلمامهم بجميع خصوصيات الإنسان والمجتمع وقصورهم عن إدراكه.

أما النظام والفكر الاجتماعي الإسلامي فإنه وضع القواعد والقوانين والحلول لجميع المشاكل الإنسانية والاجتماعية على مستوى الفرد والأسرة والمجتمع والأمة وعلاقتها بباقي الأمم في المعمورة، وصار القرآن الكريم هو الدستور للتشريعات الاجتماعية والمصدر للرجوع إليه في حل المشاكل التي تظهر بتطور الزمن وتقدم المجتمعات في وسائل الحياة، والمعيشة تتطلب إيجاد الطرق والسبل اللازمة للتعامل مع تجدد الحياة وظواهرها الحديثة ووضع الإجابة لأي تساؤل فكري اجتماعي.

من يتأمل آيات القرآن الكريم يجدها حافلة وزاخرة بالآيات الاجتماعية التي تشير إلى النظم الخُلقية والسلوكية بين أفراد

المجتمع، فتارة تخاطب الفرد، وأخرى الأسرة، وحيناً آخر المجتمع، ونرى أن كثيراً من آيات القرآن بدأت «يا أيها الذين آمنوا ويا أيها الناس» وهو خطاب جماعي يخاطب العقل الجمعي لتوجيهه في المسار الصحيح، فقد أغنى القرآن الكريم الساحة البشرية الإنسانية بالثقافة الاجتماعية وقواعد التعامل والمبادلة، فهي لا تقتصر على المسلمين فقط، بل جاءت بأسلوب حياة راقٍ وحضاري، يتناغم ويتفاعل مع الطبيعة الإنسانية الصحيحة.

أما على مستوى حفظ النفس البشرية واحترامها فيقول تعالى ﴿وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾[1] ويقول ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا﴾[2]، هذا قانون لحفظ الإنسان وحمايته من الفناء والحفاظ على نوعه بالتحذير والتشديد بعقوبة قاسية على من يخالف أمر الله تعالى، وهي من أبرز المسائل الاجتماعية، فالإنسان هو محور الكيان الاجتماعي، ولأجله سخر الله كل شيء، فالحفاظ عليه ضرورة.

---

(١) الإسراء: ٣٣.

(٢) النساء: ٩٣.

وأكد الإسلام على حفظ الأمن الاجتماعي واحترام الفرد الإنساني واحترام حقوقه وملكيته وعدم التعدي عليها، سواء بصورة مباشرة ام غير مباشرة.

يقول تعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡخَمۡرُ وَٱلۡمَيۡسِرُ وَٱلۡأَنصَابُ وَٱلۡأَزۡلَٰمُ رِجۡسٞ مِّنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَٱجۡتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾[1]، إن المنهيات المذكورة في الآية الشريفة تدخل في صلب الحقوق الاجتماعية التي تحفظ للإنسان والمجتمع كيانه وعدم التفريط بحقوقه، والإخلال بهذا النظام يستلزم عقوبات صدرها الشرع لردع الفرد من التجاوز على أي مفردة من مفردات الحياة الإنسانية ولضمان التعايش السلمي، وهو تشخيص لحالات اجتماعية خاطئة وأمراض تصيب المجتمعات لتفسدها.

وأيضاً من الآيات الاجتماعية التي من شأنها الحفاظ على الكيان الأسري من التفكك والانهيار والحفاظ على الفرد من الضياع بالحد من شهواته وحفظ النوع البشري من الفساد قوله تعالى ﴿وَلَا

(١) المائدة: ٩٠.

﴿تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا﴾[1] وأيضاً قوله ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِا۟ئَةَ جَلْدَةٍ ۖ﴾[2]، ففيها عقاب صارم وحاسم لمن يحاول إفساد القوانين الشرعية التي جعلها الله تعالى، وهو أعلم بمن خلق؛ إذ جاءت التشريعات الإلهية موازنة لحالة الإنسان الطبيعية والاجتماعية وتحديد سلوكه البشري من أجل أن يبقى المجتمع متوازناً صحيحاً من أي عيب أو خلل قد يؤدي بالمجتمع إلى الانهيار والفناء.

ونطالع حالة أخرى أشار إليها القرآن الكريم في حفظ الملكية العامة والخاصة وعدم التجاوز على حقٍ جعله الله حلاً للإنسان في امتلاكه للمال وتنميته إذ يقول تعالى ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓا۟ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا﴾[3]، وهو تشخيص الخلل وتشريع العقوبة المناسبة، وهو يجري في مصلحة الإنسان وإلا لو

---

(١) الإسراء: ٣٢.

(٢) النور: ٢.

(٣) المائدة: ٣٨.

خلي الإنسان وطبعه، فإنه سوف لن تبقى حقوق محترمة، ويختل النظام الاجتماعي والاقتصادي، وسيظهر الظلم والفساد، فجاءت العقوبة بقدر الفعل حماية لحق الإنسان في الحياة والعمل والامتلاك المشروع.

ويوجد هناك حقوق أخلاقية وآدابية أيضاً شرع لها الإسلام، وهي مهمة في الحفاظ على حياة المجتمع الروحية وبنائها الروحي، فالعلاقات الاجتماعية لا تقتصر على الحقوق المادية، بل هناك حقوق أهم، وهي الحقوق المعنوية كحق الوالدين على الأبناء وحق الأبناء على الوالدين وحق الأخ على أخيه وحق الجار على جاره وحق الصديق على صديقه وحق الفرد على المجتمع وحق المجتمع على الفرد في تبادل الاحترام والانبساط نحو الآخر والإيثار وحسن الخلق وطيب الكلمة.

فهذه حقوق كثيرة لخصها الإمام علي بن الحسين زين العابدين عليه السلام (في رسالة الحقوق) والالتزام بهذه الحقوق يربي الإنسان داخلياً، ويجعل له قاعدة إيمانية تردعه عن فعل المحرمات قبل العقوبة الخارجية التي صدرها الشرع، يقول تعالى في وصفه

للنبي محمد صلى الله عليه وآله ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ فعلى رغم صفات النبي الجليلة والعظيمة الكثيرة إلا أنه تعالى أكد على صفة الأخلاق، فبها يحيى الإنسان إنساناً.

ويقول تعالى في حق الوالدين ﴿وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا﴾[1] إشارة جميلة ولطيفة في التعامل مع الوالدين، وهي تربية اجتماعية للفرد الذي سيكون أحد الوالدين، فهي علاقة ممتدة متناقلة من فرد إلى فرد ومن جيل إلى جيل.

وفي العلاقات الاجتماعية يقول تعالى ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾[2] ويقول تعالى ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ﴾[3] في هذه الآيات حث ودعوة إلى علاقة المحبة والمودة التي يجب أن تسود أوساط المجتمع بالكلمة الطيبة (**الكلمة الطيبة**

---

(١) الإسراء: ٢٤.

(٢) آل عمران: ١٠٤.

(٣) التوبة: ٧١.

صدقة) وعمل الخير على أنه سلوك اجتماعي وطريقة تعامل تنمي في النفس الشعور بالثقة والاطمئنان نحو المجتمع، وهو طريق الكمال والفضيلة الذي أكد عليه جميع مشرعي علم الاجتماع.

وهناك آيات كثيرة تبين، وتحدد السلوك الاجتماعي والتربية النفسية، زخر بها القرآن الكريم، وجسدها النبي ﷺ وأهل بيته الكرام عليهم السلام، فكانوا أنموذجاً اجتماعياً كاملاً، والفرد الأمثل للإنسان على كل مسلم ومسلمة، بل لكل إنسان الاقتداء بهم وبسيرتهم العطرة التي تعد منهاج حياة متكاملاً على المستوى الأخلاقي والروحي والاجتماعي والاقتصادي والعلمي، لم يكتفوا بالقول فقط، بل كانوا أول من يطبق التعاليم الإسلامية، فأسسوا لحالة اجتماعية سليمة، وعملوا على تركيزها في العقل الجمعي للمجتمع، ولم يختلف النبي ﷺ وأهل بيت العصمة عليهم السلام في فكرهم الاجتماعي، فكانوا حالة واحدة ومبدأ واحداً وقيمة واحدة، إلا أنهم تعاملوا بحسب الوضع الاجتماعي في عصرهم وما يتطلبه في ذلك الوقت الذي يحدده الظرف الاقتصادي والسياسي والتفاعلات التي تتمخض عن التغيرات التي شهدتها الساحة الإسلامية، فعاشت

الأمة الإسلامية صراعات عقدية وسياسية وعسكرية، آلت إلى تشتت المجتمع فكرياً، مما أدى إلى تفكك اجتماعي وضعف في بنيته، فعمل أهل البيت عليهم السلام على معالجات عديدة لحفظ القيم الإنسانية والاجتماعية وتسديد المسار الاجتماعي إلى طريق الصواب والصلاح بكلماتهم النورانية وبأفعالهم التي أثرت في النفوس لمكانتهم في قلوب الناس وحبهم الذي ملك قلوب الناس، فحافظوا على التوازن الاجتماعي على رغم كل الظروف العصيبة التي واجهتهم وما لا قوة من قتل وسجن ونفي، إلا أنهم قلبوا المعادلة لتكون وبالاً على من ظلمهم وسبباً في إنقاذ المجتمع من براثن الفساد والظلم الذي مارسه الحكام وأمراء الجور، فغاية الأئمة عليهم السلام تبليغ الرسالة المحمدية الصحيحة والحفاظ عليها من الاندثار والضياع والحفاظ على القرآن الكريم من التجيير لمصلحة الظلمة والمتاجرة فيه، فكانوا أئمة البشرية والإنسانية جمعاء.

****

الفصل الثالث

الفكر الاجتماعي للإمام الحسن عليه السلام:

بعد هذه المقدمة في الفكر الاجتماعي القديم والحديث عند المسلمين وغيرهم، وأثر الإسلام في البناء الاجتماعي الفاضل الساعي للكمال، والذي كان قادته وساسته النبي صلى الله عليه وآله والأئمة عليهم السلام بالروايات العديدة والقصص الكثيرة التي يذكرها التاريخ في تعاملهم مع أفراد المجتمع، وفي مختلف نواحي الحياة وفي جميع العلاقات الإنسانية على أساس مبدأ الإسلام والقاعدة القرآنية، وذلك مما لا يختلف عليه اثنان، فلم يكن تعاملهم مقصوراً على المسلمين فقط، بل على جميع شرائح المجتمع وبمختلف دياناته وانتماءاته.

ولعل من المراحل البارزة في التاريخ الإسلامي هي مرحلة الإمام الحسن عليه السلام التي شهدت تغيرات وتقلبات اجتماعية عديدة بسبب الخلافات السياسية والعقدية، ولكن استطاع الإمام الحسن عليه السلام بفكره الاجتماعي التعامل معها وحل مشاكلها ووضع الأسس الاجتماعية المتينة من أجل لم الشمل الاجتماعي الذي عصفت به الأهواء والتناحرات الشخصية على رغم صعوبة المرحلة

وشدة الفتن التي شهدتها الأمة الإسلامية ومحاولات التشويش عليها من أعداء الإسلام واستغلال ذلك الضعف الفكري، وسنحاول فيما يأتي تسليط الضوء على المبادئ التي أسسها الإمام الحسن عليه السلام في المجتمع الإسلامي من الخير والصلاح واحترام الحقوق وبناء الفرد والأسرة والمجتمع بطريقة تكاملية رائعة هي خلاصة الفكر الإنساني الاجتماعي.

اتسمت فترة خلافة الإمام الحسن عليه السلام بالتقلبات الاجتماعية والتغيرات السياسية التي أضفت طابعاً خاصاً على سلوكيات المرحلة، فالمجتمع الإسلامي إبان خلافته عليه السلام تنوع من حيث الانتماءات العقدية والولاءات السياسية وعدم اكتمال صورة الإسلام وفكره بما يؤهل الناس إلى الاختيار الصائب وتميز الحق من الباطل إلا الثلة القليلة التي لازمت الأئمة عليهم السلام وخبرتهم، وأدركت حقيقتهم فاتبعوهم على هدى، وهم شريحة اجتماعية قليلة نسبياً.

عمل الأئمة عليهم السلام على تربية أصحابهم، خصوصاً وأن الأمة عموماً على مبادئ الإنسانية وأسس العدالة الاجتماعية والأخلاق والسلوك الحسن واحترام الآخر، وهو أهم ما أكدوا عليه في كلماتهم

وأقوالهم ومواقفهم التي كان لها الأثر البالغ في تنشئة مجتمع صالح وفاضل، ولم يقتصر نشاطهم الاجتماعي على المسلمين فقط، بل اتسع إلى جميع الشرائح الإنسانية بمختلف أديانهم وجنسياتهم وألوانهم، فالحالة الاجتماعية عادة لا تنحصر بطابع واحد، بل تتنوع، وتختلف، لكن يبقى التعايش السلمي هو شعار وثقافة أهل البيت عليهم السلام الذين كانوا هم المصداق الأمثل للفرد الاجتماعي المتكامل وأنموذجاً للإنسان الذي اجتمعت فيه المعاني الإنسانية وأخلاقيات التعامل السامي، فارتبط الناس بهم بثقة وطمأنينة متفاعلين مع كل ما يصدر منهم.

وكان لإمامنا الحسن الزكي عليه السلام من الشواهد الكثير في تربية وتعليم المجتمع بالقول والعمل مع ما يملكه من شخصية، لها مكانة في قلوب الناس من حيث كونه ابن رسول الله صلى الله عليه وآله وإمام المسلمين، إضافة إلى الصفات والمزايا التي كانت عنده من الخلق العالي والهيبة والسماحة والحلم والعلم والكرم والجود كل هذه الصفات دفعت الناس إلى التعلق بشخصيته والانقياد له والاستجابة لقوله والتأسي به والعمل على طبق تعاليمه مما أتاح

للإمام المجتبى عليه السلام صناعة قاعدة اجتماعية رصينة تتمتع بأصول السياسة الاجتماعية وأخلاقها من العدالة والمساواة وحقوق الإنسان، حيث تنوعت مبادرات الإمام الحسن عليه السلام في إصلاح المجتمع بين الموعظة والنصيحة ودفع الظلم ودفع الحيف ومساعدة الناس وإرشادهم إلى الخير وحثهم على التمسك بالدين الذي هو منظومة الأخلاق وسلوك التعامل بين أفراد المجتمع، وقد زخر تراث أهل البيت عليهم السلام بأحاديث وروايات العِشرة، وهي مجموعة أحكام الآداب والسنن الإسلامية المستحبة في تفاصيل وأشكال العشرة التي من شأنها تقوية الروابط الاجتماعية وخلق أجواء المحبة والتوادد والتسامح، وقد دخلت تلك الروايات إلى أدق التفاصيل الحياتية دلالة على تكامل منهج أهل البيت عليهم السلام الذي هو امتداد للمنهج الإلهي ومكمل له.

واجه إمامنا الحسن المجتبى عليه السلام كثيراً من التحديات على المستوى الاجتماعي والاقتصادي والسياسي وغيرها باعتبار طبيعة المرحلة التي عاشها ومعاصرته لمناهج الجاهلية والعصبية والنقص المعرفي للدين وللرسالة المحمدية، وهي ظروف صعبة، يصعب

التعامل معها فضلاً عن تأسيس قواعد اجتماعية واقتصادية وأدبية وعلمية، لكن الإمام الحسن عليه السلام استطاع وبثقة عالية بالله وبرسوله وحتمية انتصار الحق ومنهج الرشاد أن يوظف كل إمكاناته لسد الثغرات وبناء المجتمع على أساس التقوى والأخلاق والآداب والسنن الإسلامية، ففرض حتى على اعدائه سلوك الخير وقول المعروف وتطبيع الناس بطابع السماحة والرأفة والرحمة، فشهد له الأعداء قبل الأصدقاء بالحلم والعلم والكرم وجميع خصال الخير وصفات الشرف والعزة والسؤدد، ولا ريب فهو ابن رسول الله ووريثه الشرعي ومتمم حركته الإصلاحية الاجتماعية.

ربما أبرز ما يميز مرحلة الإمام الحسن عليه السلام هو الصلح الذي وقع مع معاوية، والشروط التي وضعها الإمام الحسن عليه السلام وما تلتها من أحداث اجتماعية للمسلمين كان للإمام الحسن عليه السلام الأثر الكبير في الحفاظ على أسس الإسلام وتعاليمه التي حاول الطرف الآخر طمسها ودرسها وإشاعة الروح الجاهلية التي حاربها الإسلام، فكان التحدي كبيراً في صناعة الجماعة الصالحة بعد أمة جاهلية يسودها الظلم والتعسف والمنكر، فاستطاع الإمام

الحسن عليه السلام وبكل جدارة تسيير الأمة نحو سبيل الحق والفضيلة وإشاعة روح الإسلام السمحة وتحقيق العدالة الاجتماعية والحفاظ على حقوق الفرد والجماعة وإنقاذ المسلمين من براثن الحقد والجور والطغيان التي مارسها جماعة معاوية، فهي إذن تحدٍّ بين الجماعة الفاضلة الصالحة والجماعة الطالحة في تسييس المجتمع، وكان ما أراده الإمام الحسن عليه السلام من اثبات الهوية الإسلامية في المجال الاجتماعي والاقتصادي والخُلقي والديني والعقدي ليسجل التاريخ مواقف الإمام المجتبى وأقواله على أنها مبادئ وقواعد في الفكر الاجتماعي ومنهج يتبع للوصول إلى الكمال والفضيلة والعدالة التي هي مراكز قوى المجتمع.

وسنذكر فيما يأتي ملامح الفكر الاجتماعي الحسني على أنه أنموذج للفكر الإنساني يحتذى به في جميع أمور الحياة على مستوى الفرد والأسرة والجماعة.

الفرد الفاضل:

يبتني المجتمع من تجمع الأفراد الذين من طبيعتهم الإنسانية التعايش معاً ولسد حاجة كل منهم الآخر على نحو القيام لكل فرد

بعمل معين؛ فيكون مكملاً للأفراد الآخرين، فأنواع المعاش كثيرة، ويصعب على الفرد الواحد القيام بكل الوظائف؛ ولذا يتخصص كل فرد بعمل معين يكفي به الآخرين، وعلى نظرية المدينة الفاضلة التي نادى بها الفلاسفة والحكماء لا بد أن يتمتع أفراد تلك المدينة بصفات فاضلة لتكوين الجماعة الفاضلة، فيمكن أن تؤسس مدينة فاضلة، فالمجتمع المتكون من خلايا اجتماعية محورها الفرد، إذا صلح الفرد صلح المجتمع.

فمن أراد صناعة حكومة أو مدينة فاضلة لا بد من أن يصنع الفرد الفاضل أولاً الذي يعد نواة المجتمع المقوم له، فما الذي يجب أن يكون عليه الفرد حتى يكون مواطناً صالحاً وفرداً فعالاً لصناعة مجتمع مستقيم يكون أنموذجاً حضارياً يقتدى به؟ ومحققاً لأماني جميع الأنبياء والمصلحين والفلاسفة الذين كان همهم الأكبر هو إصلاح الناس وإرشادهم إلى طريق الصواب وتعريفهم بالحقوق الاجتماعية ومفردات الحياة الصالحة التي تكون سبباً في تحقيق السعادة والأمان والاطمئنان والرفاهية في المعيشية وتحقيق الفرد والمجتمع لذاته الإنسانية وكيانه البشري ومؤصلاً فيه روح التسامح والعدالة والمساواة التي يرتقي بها، ويسمو خُلُقياً وتربوياً

وسلوكياً، فينمو المجتمع نمواً تكاملياً للوصول إلى المراتب العليا من التطور على المستوى العلمي والاقتصادي والفنون الحرفية في العمل وزيادة الإنتاج والتخلص من الأمراض الاجتماعية والصفات الفاسدة.

ومن هنا لا بد من الإشارة إلى أثر الإمام الحسن المجتبى عليه السلام في تقويم الفرد وصناعته وصقل روحه وتربيته بالقول والعمل، فقد مارس الإمام الحسن عليه السلام عملاً تربوياً في المجتمع الذي عانى من الظلم والاضطهاد من المشروع الأموي الذي كان يسعى لهدم المجتمع وإفساده وبث روح الجاهلية فيه وطمس معالم الرسالة الإسلامية، فتصدى إمامنا المجتبى بكل قوة وحزم لتبديد آمال الأمويين ورد كيدهم.

١- صفات الفرد السلوكية:

(المروءة)

(سأل معاوية الإمام الحسن عليه السلام عن المروءة؟ فقال: شح الرجل على دينه، وإصلاحه ماله، وقيامه بالحقوق)[1].

---

(١) معاني الأخبار، الصدوق، ٢٥٧، ح٢.

إن إجابة الإمام الحسن عليه السلام في بيان حقيقة ما يجب أن يكون عليه المرء من صفات مكملة لإنسانيته، وتعبر عن مكنونه التكويني وتصحيحاً لمساره الحياتي، فقول الإمام عليه السلام **(شح الرجل على دينه)** يشير إلى أن المروءة هي صفة كمالية للرجولة وحماسته ونخوته، وهي تستدعي أن يكون الإنسان رافضاً للظلم والحيف، وبالمقابل يبادر لعمل الخير، وهي عين التدين، فالمتدين الحقيقي يكون محافظاً على دينه، لا يجامل فيه، شديداً في التحمل في سبيل الدين، والدين هو نظام الحياة وقوانينها، والحفاظ عليه حفاظ على أسلوب الحياة الاجتماعية بكل تفاصيلها ونظامها الحقوقي، وهي إشارة جميلة ورائعة من الإمام الحسن عليه السلام في التأكيد على الدين باعتباره الضمان لقوام الحياة الاجتماعية، فالمرء لا يحقق مروءته إلا بالتزامه بما شرع الله تعالى من نظام يتكفل بالحقوق الاجتماعية لجميع أفراده.

وقوله **(وإصلاحه ماله)** هنا ينتقل الإمام الحسن عليه السلام إلى حالة أخرى مرتبطة بما ذكره آنفاً، فإصلاح المال هو في أن المال الذي يستحصله الرجل يكون على أقسام، فمنه ما يستخدم في مؤنته وقسم في عمله وقسم آخر في ما يجب عليه من حقوق شرعية وقسم

في مساعدة الآخرين من أفراد المجتمع من المعوزين والفقراء، فيحسن استخدامه ووضعه في محله كما يجب عليه أن يتحرى في كسبه أن يكون من وجوه الحلال، وأن لا يكون كسباً غير شرعي في أعمال محرمة، فجمع المال وإنفاقه يكون بمقادير ووضعه في محله وحسن التصرف فيه والعدالة في توزيعه، هنا يشير الإمام الحسن عليه السلام إلى نقطة مهمة في المجتمع، فالمال ركيزة أساسية في الحياة وشريان الحياة الاقتصادية، فلا بد من التدبر في استعماله وتوزيعه بنحو صائب كما كان يفعل الإمام الحسن عليه السلام في توزيعه للمال على الفقراء والمحتاجين، فهي سمة أساسية في تنظيم الحياة الاجتماعية للمساواة بين الأفراد في الحقوق المالية، ونظرة الإمام الحسن عليه السلام الثاقبة شخصت هذا الخلل الاجتماعي، وعالجته بعناية.

(وقيامه بالحدود)

توجيه ثالث من الإمام الحسن عليه السلام، وهو روح النظام الاجتماعي، لأن أي جماعة متعايشة بحاجة إلى نظام وقوانين لتسيير أمورها وترتيب وضعها من الرئيس إلى المرؤوس بجميع طبقاتهم ومراتبهم الاجتماعية، فالمدينة الفاضلة تعتمد في أساسها على توزيع

الأعمال بين أفرادها ومعرفة كل فرد عمله وما يجب عليه من واجب في مجتمعه، سواء كان ضمن دائرة إدارة الدولة، أو كان أحد أفراد المجتمع من حرفيين أو مزارعين أو تجار أو غيرهم من العمال، بل حتى رب الأسرة وأثر المرأة في بيتها وباقي أفراد الأسرة، فعلى الجميع حقوق وواجبات، كلٌّ من موقعه في القيام بحقوق الآخرين.

فالقاضي يعمل على إنصاف المظلوم، والطبيب يجب أن يخلص في عمله لعلاج المريض والمزارع في رعاية زرعه الحرفي في إتقان عمله، والرئيس في رعاية رعيته والعمل لخدمتهم، فكل فرد يتحمل مسؤولية أو واجباً اتجاه المجتمع، وهو واجب في عاتقه عليه تأديته كما على الآخرين تأدية حقه؛ لأنه فرد في المجتمع، فطبيعة الجماعة الصالحة سد النقص الاجتماعي، كلٌّ بحسب ما يتقنه من عمل قد فوضه المجتمع لتأديته والقيام به، وهو ركن ثالث يضيفه الإمام الحسن عليه السلام لتكتمل الحلقة الاجتماعية للفرد الصالح من الناحية الدينية والاقتصادية والحقوقية، وبذلك تكتمل صورة الفرد الصالح الذي يعرفه الإمام الحسن عليه السلام بأحد صفاته، وهي (المروءة)

حيث أن القيام بالحقوق أمر غاية في الأهمية لإصلاح المجتمع وتنظيمه وتعزيز ثقته بنفسه، فإذا أعطينا الحقوق من أنفسنا ساهمنا في صناعة مجتمع فاضل متكامل.

وفي سؤال معاوية للإمام الحسن عليه السلام عن المروءة قال: (**حفظ الرجل دينه وقيامه في إصلاح ضيعته، وحسن منازعته، وإفشاء السلام، ولين الكلام، والكف والتحبب إلى الناس**)[1].

مبادئ رائعة اجتماعية رائعة يطرحها الإمام الحسن عليه السلام في تربية الأمة وتأصير روابطها وتمييع خلافاتها وجمعها على كلمة سواء، وهي روح المجتمع والتأكيد عليها لحفظ تآزره وتطبيعه على الخير.

(حسن منازعته)

إشارة لطيفة لحالات الخلاف الاجتماعي التي عادة ما تحدث بين أفراده، فحدوث النزاع أمر طبيعي يتخلل العلاقات الاجتماعية، فما الطريقة المثلى لمواجهة تلك النزاعات؟ هل بالتأزم والغضب والمناوئة؟ هل القوة هي الوسيلة المثلى لحل النزاعات؟ هنا يجيب الإمام الحسن عليه السلام بأن المنازعات نتعامل معها بالحسنى،

---

(١) وسائل الشيعة، ج١، ص٤٣٥.

فالإحسان هو الطريقة العقلانية والحضارية والدينية لحل أي نزاع، وهو يتوافق مع قوله تعالى ﴿فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ﴾[1]، فينطلق الإمام الحسن عليه السلام من مفاهيم القرآن الكريم الذي هو دستور المسلمين، بل هو أفضل كتاب اجتماع بالمقياس العلمي.

وقد تتعدد أنواع المنازعات بين الأفراد أو المجتمعات، سواء كانت منازعات أسرية أو علمية أو ثقافية أو تجارية أو قبلية أو أي نوع من أنواع النزاع فيكون السبيل لمواجهتها هو حسن التعامل معها وتحكيم العقل والأخلاق والدين حتى لا يقع الظلم والاعتداء على الحقوق الفردية أو الجماعية، فلا بد في النزاع من وجود طرف مصيب وآخر مخطئ، فعلى المصيب التسامح وعلى المخطئ الاعتذار، وهو من الصفات الفاضلة للفرد والجماعة، أما لو تخلى المتنازعون عن حسن التعامل في هذه النزاعات فسيكون اللجوء إلى العنف واللاعقلانية في التصرف، وبالتالي زيادة النزاع بدلاً من حله، فأول خطوة وأرشدها يشخصها الإمام الحسن عليه السلام

---

(١) سورة فصلت: ٣٤.

هي حسن التعامل مع النزاعات لتصفية النفس وسموها على النزعات الحيوانية وتغليب الصفة الإنسانية في حل مشاكله الاجتماعية، وهو درس تربوي من إمامنا الحسن الزكي عليه السلام في تأديب المجتمع والفرد.

(وإفشاء السلام)

كثيراً ما يؤكد القرآن الكريم والنبي صلى الله عليه وآله وأهل البيت عليهم السلام على مراعاة التواصل الاجتماعي بين أفراده لتبقى اللحمة الاجتماعية قوية ومتينة وخالية من أي شائبة، تعكر صفو علاقاته الإنسانية، ولعل من أهم تلك المسائل التي أكدوا عليها عليهم السلام هي مسألة إفشاء السلام بين الناس لما تحمل تلك الممارسة من معنى خُلُقي ونفسي، له أبعاد صحية وتربوية في المجتمع.

فالمبادرة بالسلام، وهو تحية الإسلام، وهويته الدينية ووسيلة للتواصل بين المسلمين، فإلقاء التحية يشعر المقابل بالسلام والطمأنينة، ويدخل في نفسه السرور، ويبعد أي شبهة في نفسه على المقابل من نفور أو كراهية أو عدم عناية، فتصفو نفسه، وترفع الحواجز السلبية التي يحملها كل إنسان في مكنونه الداخل، فهي

عمليـة تفاعليـة بـين المسـلم والمسـلم وإرسـال إشـارة إيجابيـة بقبولـه ومشاركته الحياة الاجتماعية.

إذن إفشاء السـلام هـو طريقـة للاتصـال الروحـي وتعبـير معنـوي لحالـة الانجـذاب البشـري الطبيعـي لأخيـه الإنسـان باعتبـار أن الفـرد الإنسـاني مـن طبيعتـه أنـه اجتماعـي فطريـاً، فهـذا التعبـير مـن الإمـام الحسـن عليه السلام الـذي لم يتجـاوز الكلمتـين يحمـل في طياتـه معنـى اجتماعيـاً عميقـاً وفي الوقـت نفسـه هـو نشـر لتعـاليم الإسـلام الحنيـف ديـن الفطـرة السـليمة والأخـلاق الحميـدة، ولفـظ إفشـاء يـدل عـلى توسـيع رقعة النشـر للسـلام وعـدم الاقتصـار عـلى فئـة معينـة أو طبقـة محـددة، بـل يكـون السـلام والتحيـة للكـل دون اسـتثناء الغنـي والفقـير، الكبـير والصغير، الفـرد والجماعـة، وهـو أسـلوب لـترويض الـنفس عـلى تجـاوز كـل عقباتـه النفسـية، فقـد يصـادف مـن لا يتوافـق معـه نفسـياً أو اجتماعيـاً، فإفشـاء السـلام يضـع الجميـع في طبقـة اجتماعيـة واحـدة مـن دون تصـنيف، وهـو مـن أسـس العدالـة الاجتماعيـة التـي هـي إحـدى ركـائز المجتمـع الفاضـل المتجـانس، وهـو درس آخـر يضـيفه الإمـام الحسـن عليه السلام إلى قـاموس المفـردات الاجتماعيـة، فـما أحسـنه مـن قـول مـن الإمام المعصوم عليه السلام.

(ولين الكلام)

يتعرض الإمام الحسن عليه السلام في هذا المقطع إلى حالة اجتماعية سلوكية جديرة بالعناية، فطريقة التواصل بين الناس ونقل المشاعر والمفاهيم والآراء تكون بالكلام، أي بالألفاظ الصوتية المعبرة عن المعاني المقصودة للإنسان، وهذه الألفاظ هي ما يدل على دواخل الانسان ونيته، وطريقة الكلام مهمة في الخطاب مع الآخرين، فمن كان يستخدم الخطاب الشديد والكلام الخشن فإنه يكون ممقوتاً وممجوجاً لدى الآخرين، لأنه يعكس نفسية ذلك الشخص، وينقل رسالة سلبية وعدائية للطرف المقابل السامع.

وبعكسه من كان خطابه ليناً وألفاظه مرنة فإنه يعكس طاقة إيجابية، مفادها سلامة النية وعدم التعصب ووجود مساحة واسعة للالتقاء، وهو من سمات الفرد الإيجابي.

وهنا يؤكد الإمام الحسن عليه السلام على مفردة اللين في الكلام وما يتبع هذا النوع من السلوك القولي من أجواء الصفاء وقضم مسافة البعد مع الطرف الآخر، فالشعور بالأمان أبرز شيء إذا ما أردنا الحفاظ على علاقاتنا المرنة مع الناس، ولين الكلام، سواء كان في الخصومة أم في التوادد، فإنه حالة ثابتة يجب أن يتمتع بها الفرد في

جميع حالته، وهي أيضاً فيها دلالة على شخصية المتكلم المتزنة العقلانية في اختيار ألفاظه وطريقة كلامه وأقصر طريق للوصول إلى قلب وعقل الفرد الآخر، فهو اختيار دقيق من الإمام الحسن عليه السلام في إضفاء صفة اجتماعية لها أثرها البالغ في نفوس الناس كما كان يفعله أهل البيت عليهم السلام في كلامهم مع الناس حيث عرف عنهم لين الكلام وتأمين الناس وعدم ترويعهم وتخويفهم وهو خلق عالٍ وتربية اجتماعية، عودوا أتباعهم عليها، ودرجوا على سلوكها.

(والكف والتحبب إلى الناس)

أي مجتمع يرجو العيش بسلام من دون أذى أو ظلم أو اعتداء خارجي أو داخلي، مجتمعي أم فردي، فعلى جميع أفراده تحقيق ذلك السلام بالتزامهم لأنفسهم وإلزامهم لغيرهم بالعادات الحسنة، فالمشروع الاجتماعي يحتاج لإنجاحه إلى تظافر جهود جميع شرائحه بمختلف طبقاتهم وأنواعهم وأعمارهم وأجناسهم، يذكر الإمام الحسن المجتبى عليه السلام خطوتين مترتبتين، الأولى هي الكف عن الغير، أي كف الأذى عن الغير بجميع أنواعه، سواء كان بالقول أو بالفعل أو بالموقف، وسواء كان الغير فرداً أو أسرة أو مجتمعاً، إذن المرحلة الأولى هي البدء بالكف عن الناس، وهذا المقدار بحد ذاته

يعد إنجازاً، فمنع الناس الآخرين من نفسه هو نصف الحل، أي أن التوقف عن ممارسة السلبيات النفسية والجسدية اتجاه أبناء جنسه سيمهد الطريق إلى المرحلة الثانية أو الخطوة الثانية، بعدما عالج نفسه من ذلك المرض الاجتماعي، فإنه سينتقل إلى عملية التحبب إلى الناس، وهو ترتب في غاية المنطقية، وفي غاية الجمال، حيث ينقل الإمام الحسن عليه السلام الفرد من مناخ الكراهية والبغض والأذى الذي كان يعيشه الفرد الإنساني إلى الكف عن ذلك، ومن ثم استقرار النفس وشعورها بالسكينة وازدياد وتيرة تغذية النفس بالإيجابيات وتحصينها عما يسوءها أو يسوء الآخرين، فينتقل إلى التحبب والتودد إلى الناس، وهو طريق تكامل النفس، وقد عبر عنه الإمام الحسن عليه السلام بذلك التعبير اللطيف والدقيق حيث يصف الإمام مراحل التحول النفسي بأنحاء حركية قريبة من أذهان الناس ليقرب المعنى أكثر إلى إدراكاتهم الحسية ليتسنى لهم التحرك عملياً لا نظرياً إلى تحسين نفوسهم وقهرها، ومن ثم التوجه إلى التحبب. ونرى أن الإمام الحسن عليه السلام قال: «التحبب»، وليس حب الناس، إذ إن التحبب هو للمبالغة أي التفعل والتفاعل في محبة الناس، وهي درجة قصوى في التقرب والانسجام والذوبان في الآخرين، فما أبدع

ما اختار إمامنا الحسن عليه السلام من عبارة طافحة بالإنسانية وبالقيمة الاجتماعية، وهي تعرب عن الفكر الاجتماعي الذي يحمله ذلك القائد والمربي الاجتماعي الحسن الزكي عليه السلام.

وفي سؤال الإمام أمير المؤمنين عليه السلام لولده الحسن عليه السلام: **(يا بني ما المروءة؟ قال: العفاف وإصلاح المال)**:

نرى أن الإمام الحسن عليه السلام يعطي للمروءة عدة تعريفات، وهي صفات يجب أن يتحلى بها المرء لتكتمل شخصيته الإنسانية، ويكون أنموذجاً أخلاقياً وعنصراً كفوءاً في تحمل المسؤولية وفعالاً في إدارة المجتمع، فاكتمال الصفات الحيوية للإنسان للرجل والمرأة سواء يؤهله لممارسة دور مميز وخلاق في الحياة، فالمرء تتوقف مروءته على استكمال شمائله الإنسانية التي وهبها الله تعالى له من أجل استخلافه على الأرض، والذي يمثل الفرد الأكمل والإنسان الأمثل هو الرسول الكريم صلى الله عليه وآله ومعه أئمة الهدى عليهم السلام الذين كملت فضائلهم، وتمت مروءتهم، فكانوا مصداقاً لقوله تعالى ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾، إذ أصبح المعصومون سادة البشر والممثل الشرعي للخلافة الإلهية وحملة رسالة السماء

إلى البشر كافة، فهم أنموذج للإنسان، وليس للمسلم فقط، وأخلاقهم وسلوكهم لا تختص بفئة المسلمين فقط، بل لكل من يحمل الصفة الإنسانية من الخلق؛ ولذا نشاهد أن كلماتهم وسلوكهم قد تأثر به المسلمون وغير المسلمين، وأصبحوا شاهداً وقدوة يقتدى بهم لمن أراد الإصلاح والتقدم في مراتب الإنسانية والتدرج في درجات النضوج البشري والتحضر العمراني.

ومن الصفات التي يضيفها الإمام الحسن عليه السلام للمروءة (التعفف) لافتاً النظر إلى مفردة فيها من حسن الذات المعنى الكثير؛ لأن النفس الإنسانية تطمح إلى الحصول على كل شيء وبأي وسيلة كانت، فالإمام الحسن عليه السلام يضع لها حداً كي لا تشطح، وتخرج عن إطارها الخُلقي ومبادئها الدينية بحصانة العفة التي تلزم الفرد بالوقوف عند حاجز التمادي في طلب الزيادة، لأن المسلم مقيد بقانون الدين الأسمى والدين يفرض على الفرد المسلم نظاماً حقوقياً عليه أن يحترمه، ويجري مجراه، وهي صفة نفسانية تهذيبية وتأديبية، تمنع من سلوك مسلك الخطأ، بل يؤكد الإمام الحسن عليه السلام على ذلك بصيغة التفعل حيث قال (التعفف) أي الزيادة في العفة

وضبط النفس في ترك ما هو سيء ومفسد، ثم يربط الإمام عليه السلام التعفف بإصلاح المال؛ لأنه الحل الأمثل لتحقيق الذات واسعادها من دون اللجوء إلى الاستجداء أو ان يكون عالة على الآخرين في معيشته أو كلاً على الآخرين وعبئاً على المجتمع، بل أن يعتمد على قواه الذاتية العقلية والجسدية في الكد على نفسه وعياله.

وهو ربط جميل وواقعي وتعليمي في الوقت نفسه للاعتماد على النفس في إنجاز ما يريد وتحقيق السعادة والرفاهية بطريق مشروع، وهو لمحة فكرية اجتماعية من الإمام الحسن عليه السلام لتقويم المجتمع وترسيخ مبادئ العمل وتربية النفس وتكريس للحالة الاجتماعية المثالية في أن يأخذ كل فرد دوره وواجبه اتجاه الجماعة والأمة.

وفي سؤال رجل للإمام الحسن عليه السلام عن المروءة؟ قال (**العفاف في الدين، وحسن التقدير في المعيشة والصبر على النائبة**)[1].

سؤال يتكرر في تعريف المروءة وفي كل مرة يجيب الإمام الحسن عليه السلام بجواب مختلف، وليس ذلك تغييراً في المفهوم، بل إن كل

---

(١) معاني الأخيار، الصدوق، ٢٥٨/ ٥.

جواب هو مكمل لما قبله، فالمروءة لا تنحصر بصفة واحدة، بل هي مجموعة امتيازات تكون مع بعضها مفردة المروءة كاملة، وفي هذا الجواب تقرير عجيب وتحليل علمي وواقعي للمصطلح، فيه عدد من التنقلات، وهو متسلسل تسلسلاً منطقياً ينبئ عن معرفة كاملة وناضجة بطبيعة الفرد والمجتمع متصلة مع بعضها اتصالاً دقيقاً في أكثر من مفصل من مفاصل الحياة الإنسانية.

فيبدأ أولا بتزكية النفس التي ينطلق منها إلى باقي المحاور، فإذا صلحت النفس استطاع الفرد تنفيذ باقي المشاريع حيث يقول الإمام الحسن عليه السلام **(العفاف في الدين)**، وهو أول إلزام للنفس، فإذا عفّ الإنسان في دينه فعل ما يجب عليه، وترَك ما يجب أن يترك مما أمر الله تعالى به، وما نهى عنه في الدين، فيصبح معصوماً من ارتكاب المحارم، وامتلك قوة ذاتية للحركة نحو الخارج، فالدين قانون إلهي، شرع لتهذيب النفس ووضع آليات التعامل بجملة من التشريعات، لا تقبل التناقض والتهافت، وبالتالي ستهيئ الفرد لأنْ يتصرف بعقلانية وبخطوات رصينة لإنجاز أعمال الحياة الأخرى.

(وحسن ا لتقدير في المعيشة)

بعد أن أحاط الفرد نفسه بجدار حصين من الدين يبدأ في استثمار هذه الحالة في حياته العملية، فالمعيشة أمر واقعي يسعى الإنسان لتحصيله وكفاية نفسه وعائلته ومن يعيله على أساس امتيازاته النفسية من الرأي الحكيم المتأتي من المبدأ الديني الإسلامي لما يحمله من فكر بناء، يمكنه من حسن الاختيار والتقدير في الأمور المعيشية وعدم التبذير والتقتير والإسراف والبخل، فهي من الصفات الذميمة التي رفضها الدين الإسلامي على المستوى الخُلُقي، وأمر بمداراة الأسرة والكد على توفير متطلبات حياتهم المعيشية وتوفيرها ما هو ضروري للحياة.

فبناء الأسرة الصالحة هو نواة بناء المجتمع الصالح، ولا يكون هذا إلا إذا أتقن وأحسن الفرد التصرف وتقدير الأمور، فلا يعيش حياة مترفة ولا فقيرة، فنظرية الإسلام هي الوسطية في كل شيء، وهو مبدأ اجتماعي بارز في الحفاظ على المساواة والعدالة وعدم وصول المجتمع إلى الطبقية التي نهى عنها الدين الحنيف لما تسببه من مشاكل نفسية واقتصادية.

إن توفير ما يلزم من المال للاحتياط من نوائب الدهر أو ما يلزم للسفر أو العلاج أو لتأدية الحج أو للزواج أو مساعدة الآخرين يحتاج إلى حسن التقدير، ويشترك في ذلك الرجل والمرأة، فالمرأة أيضاً يقع على عاتقها تدبير شؤون المنزل والاقتصاد في المؤنة وتدوير مزايا البيت للحفاظ على كينونته والالتزام بعدم الإسراف والتبذير فهي راعية لبيتها وقسيمة لزوجها في إدارة البيت، بحسب القوانين الشرعية والخُلقية، فحسن التدبير في المعيشة أمر أساس وفضيلة فردية وأسرية واجتماعية، وهي من الفكر الاجتماعي الذي يؤسس له الإمام الحسن عليه السلام لبناء مدينة فاضلة بحسب اصطلاح الفلاسفة وعلماء الاجتماع ولبناء مجتمع إسلامي حقيقي بحسب النظرية الإسلامية.

ومن ثم يكون اتجاه الفرد بعد الخطوتين السابقتين إلى مرحلة وخطوة أشد صعوبة على النفس، وهي **(واصبر على النائبة)** تلك نقطة عصيبة حينما يتعرض الفرد البشري إلى مشكلة في الحياة، قد تكون في معيشته أو وضعه الاقتصادي أو في العمل أو في الجانب الاجتماعي مع العفة في الدين وحسن التقدير في المعيشة، لكن طبيعة

الحيـاة هـي أن الإنسـان لـيس عـلى وتـيرة واحـدة في جوانـب حياتـه المتعـددة، وانـما قـد يتعـرض إلى أنـواع الابـتلاء والنوائـب، فكيـف يتصـرف في هذه الحالـة؟ هـل يرتـد عـن الـدين أو يحـاول تغيـير عقيدتـه في مبادئه المعيشـية، فيحـاول أن يظلـم أو ينحـرف عـن مسـاره الصـحيح الذي رسمه له الدين وسار عليه ثقةً بسلامته؟

هنا يجيـب الإمـام الحسـن عليه السلام بجـواب تـام وحـل مقنـع يـرتبط بـما تقدم من مراحل مسـيرته الحياتيـة، ويكـون مكمـلاً لهـا بمـنهج واحـد لا يتجـزأ، وهـو الصـبر عـلى النائبـة، لأن المشـكلة مهـما كانـت -كـما في تقدير الإمـام الحسـن عليه السلام- فـلا بـد أن يكـون لهـا نهايـة، فـلا يوجـد شيء ثابـت مـن متغـيرات الحيـاة، فأفضـل حـل هـو الصـبر، ولكـن مـا المـراد من الصبر على تقـدير مـا تقـدم مـن خطـوات؟ هـل هـو الجلـوس وتـرك الأمـر مـن غـير تحـرك لإيجـاد الحلـول وتسـليم الامـر لله تعـالى لـدفع النائبة وحل المشكلة؟

كـلا لـيس هـذا المـراد مـن الصـبر، فالإمـام الحسـن عليه السلام ذكـر تلـك التسلسـلية الحركيـة العمليـة لإيضـاح أن عـلى الفـرد أن يسـعى، ويتحمـل الظـروف القاسـية مهـما كانـت للخـروج مـن أزمتـه بإيكـال الأمـر إلى الله تعـالى أولاً وبـالاعتماد عـلى قدراتـه الذاتيـة ومـا حبـاه الله

تعالى من عقل وما يمتلك من إيمان بالله وبنفسه لإيجاد الوسيلة لبلوغ غايته، فالصبر على النائبة يحتاج إلى أن يستوعب الإنسان حجم المشكلة، ويتعامل معها بحسب طاقته مدركاً أنْ لا شيء من النوائب التي تنزل على الإنسان يمكن أن تكون نتيجتها إيجابية، بل قد تكون غير مرضية للفرد، لكن هو بدوره مكلف بالصبر عليه بالمعنى المتقدم وقبول النتائج مهما كانت، وبذلك سيصل الفرد إلى قناعة تامة بأنه فرد من ذلك المجتمع الذي يكون جميع أفراده معرضون لمثل تلك النوائب بمختلف أشكالها، فله ما لهم، وعليه ما عليهم بالسوية، وهذا يشعر أفراد المجتمع أنهم مشتركون بقدر واحد، وعليهم أن يتعاملوا بواقعيةِ أنّ المجتمع كيان واحد لا متعدد، وهي لمحة اجتماعية لفضيلة الفرد في مجتمعه، تضفي عليه لوناً من الواقعية والأصالة؛ لأنها تتعمق في فلسفة المجتمع ونظرته إلى أدق التفاصيل النفسية والخارجية المحيطة بالكائن البشري.

حقائق يسطرها الإمام أبو محمد الحسن عليه السلام بعلمه الموروث عن جده المصطفى صلى الله عليه وآله وأبيه المرتضى عليه السلام في فرع من أبرز فروع العلوم البشرية التي تتعلق بالاجتماع البشري، فيعالجه الإمام عليه السلام بكلماته النورانية وعبائره العرفانية التي يجد المتأمل فيها أبعاداً كثيرة

وعميقة وآثاراً وضعية لمن يطبقها بحذافيرها لصدورها من منبع صافٍ وبحرٍ رائق وفكرٍ ثر.

ومن الصفات السلوكية للفرد الفاضل التي يشير إليها الإمام الحسن عليه السلام، ويدعو إلى التخلق بها هي صفة السماحة في التعامل مع الناس لمدخليتها في تحسين السلوك الاجتماعي للأفراد وحثهم على طيب الملاقاة وبذل المجهود في المساهمة برفع مستوى المجتمع التكافلي والمعنوي لدرجة الفضل والترقي لذوبان الفرد في المجتمع ومقايسة وضعه بوضعهم وتبادل الشعور بالمعاناة، وهي من أبرز الصفات التي يجب أن يتحلى بها الفرد الفاضل.

ففي معرض سؤال الإمام أمير المؤمنين عليه السلام لولده الحسن عليه السلام في بعض ما سأله عنه: (**يا بني ما السماحة؟ قال: البذل في العسر واليسر**)[1].

يقول رسول الله صلى الله عليه وآله: (**ما بعثت بالرهبانية الشاقة، ولكن بالحنيفية السمحة**)[2] أي الدين السهل الذي لا ضيق فيه، وتأتي

---

(١) معاني الأخبار، الصدوق، ٢٥٦/ ١.

(٢) مجمع البحرين، الطريحي، ٢: ٤١٤.

السماحة بمعنى الجود والكرم[1]، وهي الصفة التي تميز بها الإمام الحسن عليه السلام، وعرف بكريم أهل البيت عليهم السلام والسماحة والمروءة هي كمال الإنسانية، فصفات الفضيلة مكملة لبعضها واختيار الإمام الحسن عليه السلام لهذه المصطلحات ليس عشوائياً، بل يوجد ترابط موضوعي في المعنى والسلوك بينها، فلا تكمل الفضيلة إذا تخلى عن إحدى هذه الصفات؛ لأنها ستكون ناقصة ومحتاجة إلى بقية الصفات لتتكامل وتعمل معاً.

ويعرف الإمام الحسن عليه السلام السماحة بأنها (**البذل في العسر واليسر**)، هنا يؤكد الإمام الحسن عليه السلام على حالات الإنسان المتغيرة والسلوك الثابت، فقد يمر الفرد بحالات من الرفاهية المالية والغنى الاقتصادي وتوفر الإمكانية واليسر الذي لا يتوفر عند غيره، وهو حق مشروع في الملكية الخاصة التي شرعها الإسلام، وجعلها حقاً لكل فرد في العمل والتملك، وباعتبار أن متغيرات الحياة كثيرة ومتقلبة، فقد يفقد الفرد ملكيته أو يتعرض لأزمة اقتصادية، فيفتقر، ويكون متعسر الحال، فهل سيكون هذا سبباً في عدم السماحة؟

---

(١) مجمع البحرين، الطريحي، ٤١٥/ ٢.

وهل السماحة مرتبط وجودها بحالة اليسر فقط؟ فيقرر الإمام الحسن عليه السلام هذا الموضوع النفسي والسلوكي بالقول: إن السماحة هي البذل، سواء كان في حالة العسر أو اليسر، دلالة على أن الإيمان الراسخ للفرد لا يتحول من حالة إلى أخرى؛ لأنه غير خاضع للمتغيرات الخارجية، بل هو عقيدة في النفس ثابتة، فالبذل أي العطاء، سواء كان مادياً أم معنوياً، يجب أن لا يتوقف، فالباذل في حالة اليسر هو الشخصية نفسها في حالة العسر بجميع إمكانياتها الروحية والإيمانية.

ونرى أن الإمام الحسن عليه السلام قد قدم لفظ العسر على اليسر تنبيهاً على أن من يبذل في العسر، فإنه من باب أولى سيبذل في اليسر، وهو تطبيع روحي ذو أبعاد اجتماعية كبيرة، تدعو الفرد إلى مساعدة الآخرين على أي حال كان، لضمان رفع الحالة الاقتصادية للمجتمع من الفقر الذي يعيشه بعض أفراد المجتمع، ومن جهة أخرى ضمان سلامة الباذل النفسية فيما لو انتقل من حالة اليسر إلى العسر أو بالعكس، إذن الإمام الحسن عليه السلام يعالج إحدى أبرز المشاكل الاجتماعية التي تصيب الأمم من الفقر والعوز وقلة الباذلين لإخوانهم ورفع الحيف عنهم، أما البذل فيكون بحسبه،

فالمعسر ليس كالموسر، وإنما يكون بحسب طاقته وإمكانيته المالية، فالمهم أنه يبقى مستشعراً لمسؤوليته في العطاء ومشاركة المجتمع مشاكله في أنه فرد حقيقي فيه وسبب لنشر الفضيلة في محيطه، ويكون قدوة يقتدى به، ومن أصدق المصاديق لهذا الموضوع هو إمامنا الحسن المجتبى عليه السلام الذي عرف بالبذل والعطاء والجود والكرم، والقصص في هذا الصدد كثيرة ومشهورة في كفاية الناس ومساعدتهم وقضاء حوائجهم، فالسلام عليك يا أبا محمد بما جُدت، وأكرمت، وبذلت.

وفي رواية أخرى يجيب الإمام الحسن عليه السلام عن السماحة بقوله (**إجابة السائل وبذل النائل**)[1] وهي بالمعنى السابق نفسه، فالسائل الذي أراق ماء حيائه أمام المسؤول لحاجته قد تنازل عن كرامته مقابل الحصول على مبتغاه، والكرامة قيمة اجتماعية كبيرة، وحق مفروض لكل إنسان، والتنازل عنه يفضي إلى تدني مرتبته الاجتماعية دون الإنسانية، وهي تضحية كبيرة بحد ذاتها، توجب على المسؤول الحفاظ على كرامة السائل وتعزيز ثقته بمجتمعه وعدم

---

(١) معاني الأخبار، الصدوق، ٤٠١ ح٦٢.

إشعاره بالدونية عن الباقين وإبقائه على وضعه المعهود نفسه في وسطه الاجتماعي، فالإمام الحسن عليه السلام يأمر بالمبادرة لإجابة السائل وإعطائه سؤله وإشاعة روح السماحة بين السائل والمسؤول وتأصير عناصر المحبة والمودة بهذه المعاملة الحيوية في التناقل المادي والمعنوي بين الأفراد.

بل يترقى الإمام الحسن عليه السلام في إثارة الموضوع بقوله (**وبذل النائل**)، أي أنْ يبذل المسؤول، ويجود بالعطية لا أن يكون العطاء بقدر السؤال، ففي مصطلح البذل قوة معنوية وحركية لتثمين قيمة السؤال الذي لا يأتي إلا بعد معاناة نفسية من السائل، فعليك أيها المسؤول بذل كل ما تناله يداك من العطاء الوفير وسد حاجته.

يعطي الإمام الحسن عليه السلام هنا درساً نفسياً وأخلاقياً وفلسفياً واجتماعياً واقتصادياً من فكره الاجتماعي الإصلاحي السلوكي ما يصلح أن يكون منهجاً حياتياً متبعاً لكل باحث في علم الاجتماع وتفسيراً موضوعياً لطبيعة العلاقات الاجتماعية وما يجب ان تكون عليه لخلق بيئة صالحة وأمة ناضجة بكل المقاييس، فهي أكبر من مجرد كلمتين، هي علمٌ كامل، قد اختزله الإمام الحسن عليه السلام بلفظين لمن يتأمل، ويتدبر.

من المواضيع التي يهتم بها الناس في علاقتهم مع بعضهم، والتي يحاولون دائماً الحفاظ عليها وتمتينها وعدم إثارة ما يوهنها الخطاب المتحضر والعقلاني الهادئ الذي يكون وسيلة ناجعة وناجحة لإيصال الأفكار وتبادل الآراء ومعرفة السداد في الكلام وتواصل الفكر البناء، فكلما كان الخطاب هادئاً ومحترماً يعطي مساحة أوسع للالتقاء وقبول الآخر، وبعكسه إذا كان الكلام متشنجاً وانفعالياً فإنه سيغلق المنافذ بين المتخاطبين، ويوسع الهوة بينهما، وبالتالي ستضيع وجهات النظر الصائبة، ويكون التزمت في الرأي ورفض المقابل.

عُنيت الشريعة الإسلامية بسلامة الرأي عند اتخاذه، فأوجبت على القاضي أن لا يقضي، وهو غاضب؛ لأنه سيجانب الحق، وتضيع الحقوق؛ ولذا أكد الإمام الحسن عليه السلام على هذا المعنى في سلوك الفرد بقوله عليه السلام (**لا يعرف الرأي إلا عند الغضب**)[1] أي أن الاختبار الحقيقي لمعرفة عقل الرجل ورشده يظهر عند غضبه، فإن امتلك عقله حسُن رأيه، ومن غضِب فقَد توازنه، وتشتت فكره، فيقع في الخطأ؛ (**ولذا حذر الشارع المقدس وأهل البيت عليهم السلام من**

(١) تحف العقول عن آل الرسول، الحراني، ص٢٣٦، ح٤٥.

الغضب وآثاره في العلاقات الاجتماعية وفي التكامل الذاتي، وبينوا بعض طرق العلاج لهذه الحالة النفسية والانفعال الخطير في حياة الإنسان والآخرين)[١].

والغضب مدعاة لاتخاذ قرارات فيها إفساد للمنظومة الاجتماعية المبتنية على الفضائل الخلقية والخير وخدمة الجماعة الصالحة، يقول رسول الله ﷺ **(الغضب مفتاح كل شر)**[٢] فمن فضل الفرد رجحان العقل وسداد الرأي، فإذا ما تمكن منه الغضب، فإنه سيفقد تلك الفضيلة، ويكلف المجتمع تبعات رأيه الخاطئ، إذن يشخص الإمام الحسن عليه السلام خللاً اجتماعياً، أو بالأحرى هو مرض نفسي يحتاج إلى علاجٍ كي لا يكون ظاهرة اجتماعية والسيطرة عليها بضبط النفس وتهذيبها على تحمل انفعالاتها للحفاظ على سلامة الرأي.

٢- صفات الفرد الروحية والمعنوية:

ذكرنا فيما سبق الصفات الفاضلة للفرد التي تخص سلوكه الخارجي العام الباعثة على تقويمه في علاقاته مع أفراد المجتمع

---

(١) دور أهل البيت في قبال الجماعة الصالحة، محمد باقر الحكيم، ص٥٩.

(٢) الوسائل، ١١/ ٢٨٦، ح٢.

وتنسيق التعامل مع محيطه البشري وتأطير السلوك للفرد بسمات التكافل والتعاون والتجانس مع مجموعته المشترك معها بأساسيات الحياة ومشروع المدنية الفاضلة التي هي نتاج سلوكيات ناضجة ومنظمة وملتزمة بمبدأ الشراكة الاجتماعية التي يتحمل كل فرد فيها مسؤوليته اتجاه الآخرين.

وكل هذا بينه جلياً الإمام الحسن عليه السلام في مقولاته الفذة في توجيه الأمة والممارسة عملياً لكل أقواله، فكان المنظر والقائد في المجتمع والمطبق الحقيقي والأصيل لثمرات ساحة فكره الاجتماعي القادح بأنوار المعرفة، فكان الإمام الحسن عليه السلام قائداً اجتماعياً متفهماً لطبيعة أمته ومجتمعه، فعالج بفكره الاجتماعي مشكلات عصره التي أثيرت، بل تعدت قواعده الاجتماعية مشكلات عصره الآنية إلى فكر اجتماعي يتعامل مع المجتمع في جميع الأزمنة وبمختلف أشكاله وإخفاقاته ونجاحاته ومن أي محيط بشري كان.

والآن نعرض جملة من أقوال الإمام الحسن عليه السلام في صفات الفضيلة للفرد التي تتعلق بالجانب الروحي لديه والمعنوي، فلا يخفى تكوين الإنسان من محورين داخلي وخارجي، الداخلي هو بناء الذات وتقويمها وتهذيبها وتأديبها، فتعطي استعداداً للكائن

البشـــري أن يتحـرك خارجيـاً عـلى وفـق لمعطياتـه الذاتيـة المكتسـبة، فتتكامل صورته.

المودة:

قـال الإمـام الحسـن عليه السلام: (**القريـب مـن قربتـه المـودة وإن بعـد نسـبه، والبعيـد مـن بعدتـه المـودة وإن قـرب نسـبه، لا شيء أقـرب إلى شيء من يد إلى جسد، وإن اليد تغل، فتقطع، وتقطع، فتحسم**)[1].

ربـما يكـون هـذا المعنـى في قـول الإمـام الحسـن عليه السلام هـو مـن أجـلى الأفكـار الاجتماعيـة التـي يجـب التمسـك بهـا، فهـو يصـور العلاقـة الاجتماعيـة تصـويراً مبهـراً، يثبـت فيـه معنـى المـودة في أنهـا علاقـة ترابطيـة روحيـة بـين الأفـراد، لهـا مفعولهـا في ترطيـب الأجـواء بـين الناس وتـآلف النفـوس، وبغـض النظـر عـن العلاقـة النسـبية التـي هـي أمر تكـويني غـير مكتسـب، ويلغـي معنـى سـلبياً اجتماعيـاً بـأن العلاقـة تحـددها طبيعـة الوجـود القـبلي أو الأسري أو النسـبي؛ ولـذا يقـرر الإمـام الحسـن عليه السلام، ويضـع ضـوابط جديـدة للعلاقـة الاجتماعيـة كـما

---

(١) الكافي الكليني، ٢: ٤٧٠، ح٧.

جاء بها الإسلام الذي ساوى بين الحر والعبد في الإنسانية، وألغى كل الفوارق الاجتماعية، وجعل الانتماء للدين فوق كل انتماء، سواء كان قومياً أو نسبياً أو سببياً، والذي يقرب الناس من بعضهم هو الدين، فهو أفضل رابط يمكن التواصل من خلاله؛ لأن الدين هو مجموعة من الضوابط والقوانين التشريعية والخُلقية والأدبية منظمة لشؤونهم الاجتماعية، وفيه من التعاليم الخُلقية والروحية ما تسمو بالفرد إلى أعلى المراتب الإنسانية.

إذن القريب من النفس هو من كان سبب قربه الود والمحبة والإحسان، وكثيراً ما أوصى النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وأهل البيت الكرام عليهم السلام بإظهار المحبة والمودة والانفتاح على الآخرين، وهو منهج أساس في الحياة العامة، وله مظاهر كثيرة، منها التزاور واللقاء، يقول الإمام الصادق عليه السلام **(تزاوروا، وتلاقوا)**[1] فكثرة اللقاء تورث طمأنينة النفس للمقابل والمحبة له التي ترتقي إلى الود مع اتساع مساحتها ودائرتها، ولا بد للقاء أن يكون بوجه طلق مستبشر لإرسال رسالة إيجابية بمكنونه القلبي والعاطفي، فاللقاء يمثل أول

---

(١) وسائل الشيعة، الحر العاملي، ٨: ٢٤٨، ح٣.

خطـوة في بـدء العلاقـة الثنائيـة، ويكـون البـدء بالسـلام مـدخلاً سـليماً لبنـاء علاقـة صـحيحة، فهـو شـعار المسـلمين وأمـر منطقـي لفـتح بـاب التخاطـب مـع أي شـخص، فـلا تكفـي الإشـارة أو الإيـماءة في إيصـال مـراد المسـلم، فـإن ابتـدأ بالسـلام، وكـان مستبشـراً، وقـد ارتسـمت ابتسامته على وجهه، فإنه سوف تصفو المودة، وتسـر القلوب.

قـال رسـول الله ﷺ: (**ثـلاث يصـفين ود المـرء لأخيـه المسـلم، يلقاه بالبشـر إذا لقيـه، ويوسـع لـه في المجلـس إذا جلـس إليـه، ويـدعوه بأحـب الأسـماء إليـه**)[1]؛ لأن الإخبـار بالمحبـة لـه بعـد نفسـي، إذ يشـعر المقابـل بمـدى مقبوليتـه لديـه وقربـه منـه مـن غـير مصـلحة نسـبية أو سببية فقـط؛ لأنـه أخ لـه في الـدين أو الإنسـانية، ولا يحمـل عليـه حقـداً، يوجب العداوة والبغضاء، بل يكن له المحبة والود.

وهـذه الأمـور وغيرهـا مـن علامـات التـودد وبـاءة العلاقـة الصـميمة الصـادقة، تزيـل كـل الحـواجز، وتقـرب الإنسـان مهـما كـان بعيداً، فتعبـير الإمـام الحسـن عليه السلام بـالقرب المعنـوي مـن المقابـل المحفـوف بالحـب والـود والاحـترام والمصـداقية في العاطفـة، سـواء كـان نسـيباً أم

---

(١) وسائل الشيعة، الحر العاملي، ٨: ٤٣٤، ح٢.

حسيباً، يلقي بظلاله على الحالة الاجتماعية العامة التي سيسودها معاني الحب والتفاني والود، ويجذر الشعور المجتمعي لدى الأفراد، وهو أيضاً يعالج مشكلة اجتماعية بأطروحة فكرية مفادها أن الإنسان كائن اجتماعي تمثل العاطفة مساحة واسعة من حياته، فإن كان هناك ود بين الناس اقتربوا من بعضهم البعض وإن بعدت الأنساب، وإن تباغضوا، وتباعدوا، وتناكروا استوحشوا وإن قرب نسبهم، فلا مدخلية للنسب في قضية المحبة والكراهية، وهو تشخيص دقيق ومهم لحالة من حالات المجتمع المتعددة في تفاصيل حياته.

ثم إن الإمام الحسن عليه السلام يضرب مثلاً لإيصال الفكرة بنحو أوضح حيث يمثل العلاقة الاجتماعية بأعضاء الجسد الواحد، فكما أن المجتمع عبارة عن مجموعة أعضاء تكونه كذلك تكون أعضاء الجسد، وهذه الأعضاء مترابطة ترابطاً تكاملياً، فيكون كل عضو مقوم لغيره ومعينٌ له في آلية عمله، فالإمام الحسن عليه السلام يصف ذلك الوصف الدقيق والقريب من عقول الناس.

إن الكيان الاجتماعي عبارة عن مجموعة وحدات متآلفة ومتجانسة لتأدية وظيفة الجسم كله، وكل بحسبه، لكن إذا أصبح

أحد هذه الأعضاء عبئاً على الجسد ومفسداً له وجب التخلص منه للحفاظ على الكيان الجسدي من الفساد والتلف، وكذلك المجتمع إذا كان أحد أفراده فاسداً وغير مرغوب فيه انقطعت عنه المودة، واستبعد حتى يبعد خطره، ويكفى شره، ويبقى المجتمع سليماً معافى.

إنها نظرة عملية واقعية في كيفية التعامل مع الأفراد غير المودودين حتى لو قرب نسبهم، وبالتأكيد فإن ضابطة المودة وعدمها والقرب والبعد هو في الله، فالمودة في الله وعدمها في الله هي ليست قضية شخصية أو هوى، بل منهج وسلوك، حدده الله تعالى للناس، فمن يلتزم به يكون قد أطاع الله من حيث التزامه بالنظام الذي وضعه، وبخلافه يكون قد تخلى عن المنهج الإلهي والنظام الإنساني.

فالمودة وعدمها يحددها التزام الفرد بالنظم الاجتماعية المفروضة، ومن يتخلف عنها فإنه يقاطع، ويترك كما تقطع اليد، وتبين عن الجسد حتى لا تمرضه، وتفسده، وكذلك الفرد يُستبعد عن اللحمة الاجتماعية للحفاظ على نسيجها النبوي سليماً، يحاول الإمام الحسن عليه السلام ربط المجتمع بالدين الذي هو أساس الحياة،

فالمودة أمر قلبي، وانعكاسه خارجي، يقرب البعيد، ويبعد القريب، ويرفض، ويلفظ العنصر غير المرغوب فيه عن أوساط المجتمع.

إنها فكرة اجتماعية نبيلة ووقادة، تصحح مسار الأمة من إرثها القبلي الفاسد الذي يشكل المجتمع بحسب الأهواء الشخصية والانتماءات العشائرية، فيقرب الفاسد، ويبعد الصالح، فتضيع الهوية الإسلامية الإنسانية في خضم تلك المتناقضات.

الشح:

ويوجه الإمام الحسن عليه السلام الأنظار إلى صفة نفسية، يصاب بها أغلب أفراد المجتمع، وهي وإن كانت خاصة وذاتية للفرد إلا أنها ذات مردود اجتماعي خطير، يلقي بظلاله على أسلوب الحياة المعيشي والتعلق غير المبرر بالمال وجعله غاية يطمح إليها الإنسان في تحقيق أكبر قدر من المكاسب والتغاضي عن حقيقة أن المال هو وسيلة تبادلية لانعاش متطلبات الفرد والمجتمع والإنفاق هو الحالة الطبيعية التي يمارسها الأفراد المالكون، وبعكسه فإنه يشير إلى خلل نفسي وانحراف خُلُقي وسلوكي، يقول تعالى ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾[1] وقوله ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ

(١) آل عمران: ٩٢.

﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾[١] ووجوه الإنفاق متعددة، فمنها الإنفاق على النفس والإنفاق على الأسرة وكفاية حاجاتها والإنفاق على الأقارب والأرحام والأصدقاء والإنفاق على المحتاجين والمعوزين وغيرها من وجوه الإنفاق التي اقرها الإسلام والتي لا تعد اسرافاً ولا تبذيراً، أما الإمساك والشح فإنه ظاهرة مقيتة ومرضية في المجتمع يعبر عنها الإمام الحسن عليه السلام في بيان مفهومها عندما سئل عن الشح، (**ما الشح؟ قال: أن ترى ما في يديك شرفاً، وما أنفقت تلفاً**)[٢].

إن غريزة التملك لدى الإنسان هي غريزة طبيعية موجودة فيه، ولكن إذا أطلق العنان لها استفحلت، وتجذرت عنده، فيصبح لا يرى غير نفسه ومكاسبه التي حصل عليها، فهي من حقه وحده، ولا تصرف إلا في مصلحته أو يكتنزها ليكون ثروة تكون قوة اقتصادية له، وأيضاً ترضي فهمه النفسي اللامحدود في امتلاك المال مما يؤثر على النظام الاقتصادي للمجتمع، فإن محاولة احتكاره للمال سيكون مسوغاً له للحصول عليه بأي طريقة ووسيلة حتى لو

---

(١) الحشر: ٩.

(٢) معاني الأخبار، الصدوق، ٣: ٢٤٥.

كانت على حساب الآخرين من أبناء المجتمع الذين يعيشون على أساس قيام كل فرد بما يجب عليه اتجاه الآخرين لا نفسه فقط، فيخل بالنظام الاجتماعي، ويفكك العقد الاجتماعي القائم على الحقوق والواجبات التي تحقق الكفاف والرفاهية للمجتمع، إذن الشح صفة سلبية مقابلة للإنفاق والكرم، لها آثار خُلقية وأدبية تضع من قيمة الفرد والمجتمع، وتخرجه من دائرة الفضيلة التي يسعى لها الجميع، فقد ورد عن الإمام الصادق عليه السلام **(لا يكمل إيمان العبد حتى يكون فيه أربع خصال: يحسن خلقه، وتسخو نفسه، ويمسك الفضل من قوله، ويخرج الفضل من ماله)**[1].

(الشح من الغرائز النفسانية التي جبلها الله عليها لتحفظ به منافعها، ونصونها عن الضيعة، فما لكل نفس من الشح هو حاضر عندها، فالمرأة تبخل بمالها من الحقوق في الزوجية، والرجل يبخل بالموافقة والميل إذا أحب المفارقة وكره المعاشرة)[2] و**(الشح بخل مع**

---

(١) الأمالي، الطوسي، ص١٢٥.

(٢) تفسير الميزان، الطباطبائي، ٥: ١٠١.

حرص، وذلك فيما كان عادة)[١] فهي من الصفات النفسانية المذمومة والممجوجة التي لا يحبذها الإسلام، ويحاربها.

ينتزع الإمام الحسن عليه السلام مفهوم الشح من خلجات الإنسان وهواجسه المادية، إذ يعتبر أن الشرفية للإنسان لا يحددها ما يملك من مال، بل في مقدار ما ينفق من ذلك المال؛ لأن الإنسان هو من يملك المال، وليس العكس، فصارت المعادلة منكوسة، وصار الفرد تبعاً لماله، وهذا ما يحذر منه الإمام الحسن عليه السلام، فالشحيح يرى أن جمعه للمال وتكثيره هو شرفٌ له، فكلما منع العطاء ازدادت أمواله، وازدادت شرفيته، بل إن إنفاق المال يكون إتلافا له وضياعاً، وهو أسوأ من المرحلة السابقة، وهو تعطيل أيضاً للمادة التبادلية وإضرار بالاقتصاد العام وتضييق على الفئات الأخرى من الناس في تحصيل المال من ناحية، ومن ناحية أخرى قطع لسبل المعروف والتكافل التي أمر بها النظام الاجتماعي الإسلامي.

ورد عن الإمام أبي عبد الله الصادق عليه السلام أنه قال (**إن من بقاء المسلمين وبقاء الإسلام أن تصير الأموال عند من يعرف فيها الحق،**

---

(١) مفردات غريب القرآن، الراغب الأصفهاني، ٢٥٦.

ويضع المعروف، وإن من فناء الإسلام وفناء المسلمين أن تصير الأموال في أيدي من لا يعرف فيها الحق، ولا يضع فيها المعروف)[1] فإذا صارت الأموال بيد من لا يحسن التصرف فيها، وتشح نفسه أن يبذلها، فإن النظام الإسلامي سيتعرض للخطر، ويقع المسلمون في مشكلة اقتصادية واجتماعية، تهدد كيانهم ونظامهم.

هكذا خاطب الإمام الحسن عليه السلام الشحيح، واعتبره آفة اجتماعية يجب القضاء عليها من الناحية المعنوية؛ إذ تكون مرضاً مستعصياً، يصيب الفرد المسلم في نفسه، فتميله إلى عنصر مؤثر سلبياً على جو المجتمع العام الذي يرى الشرف في المال، وإن العطاء والبذل هو إتلاف وتضييع للحقوق.

كلمات يلامس فيها الإمام الحسن عليه السلام إحدى المشاكل التي يعاني منها المجتمع في كل حين، ويضع له العلاج الناجع، وقد ضرب لنا أهل البيت عليهم السلام أروع أمثلة العطاء والمعروف التي شهد الله تعالى لهم بها في قرآنه المجيد في حادثة الإيثار ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ

(١) الكافي الكليني، ٤: ٢٥.

ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾[1] تطبيق في قمة الكمال والجمال لهذا المعنى الذي كان الإمام الحسن عليه السلام أحد رموزه الطاهرة.

الصمت:

عن الحسن بن علي عليه السلام، قال: (**نعم العون الصمت في مواطن كثيرة وإن كنت فصيحاً**).

الكلام وسيلة التخاطب وإيصال الأفكار بين الناس وتبادل المشاعر والأحاسيس، وهو مجموعة ألفاظ تعبر عن مفاهيم ومعانٍ لدى الإنسان، فالكلام يتكون من أمرين، أمر وجداني داخلي ونية يضمرها، فيتحرك لإخراجها من طريق اللفظ، وهو الركيزة الثانية للكلام، ويقرر علماء الاجتماع أن التخاطب قد يكون بالكلام، وقد يكون بالصمت أو بالإشارة أو بالتقرير بحسب المراد للمتكلم في إيصال معلومته، الكلمة يبتنى عليها اعتقاد الشخص المقابل، فبمجرد أن يصدر الكلام سيؤخذ بمنظورين، الأول معرفة غاية المتكلم وما يريد، والثاني التأسيس والبناء على قوله، فللكلمة قيمة في حياة الناس وتعاملاتهم، وعليها يتوقف الرأي والعقل الراجح

---

(١) الحشر: ٩.

والحكمة ومساعدة الآخرين، وهي وسيلة التفاهم والتواصل الاجتماعي، فلولا الكلام لصعب على المجتمع تبادل أفكاره وآرائه، ويتمايز الناس في كلامهم، فمنهم من يملك بياناً عالياً وفصاحة، فيكون أقدر على إيصال مراده الكلامي للآخرين، ولكن مع الكلام نحتاج إلى رجاحة العقل كي نتمكن من اختيار الألفاظ المناسبة التي تضع حسن الكلام والمنطق لكي لا يقع في إحراج أمام المقابل، ويدفع أي سوء فهم يمكن أن يحصل من كلامه.

لذا على الفرد موازنة نفسه بين الكلام والصمت، فالصمت في بعض الأحيان يكون أبلغ من الكلام وأحرز في الوقوع بالخطأ، ويجنب صاحبه المشكلة التي قد تحصل من كلامه، فتسبب غضب المقابل وكراهيته له، وعلى هذا المعنى يؤكد الإمام الحسن عليه السلام بالاستعانة بالصمت في مواطن كثيرة حتى لو كنت متكلماً منطيقاً؛ لأن الجواب سيكون غير ملائم، فيزن الفرد الموقف إن كان يحسن الكلام فيه أم الصمت؟ يثبت الإمام الحسن عليه السلام حقيقة اجتماعية معاشة من الأخذ والرد في الكلام والنقاش وما يتخلله من تداخلات كثيرة يتأول فيها الكلام عن غير قصد وعمد والتفات فيقع ما لم يقصد، ويقصد ما لم يقع، وهو من المشاكل الاجتماعية

التي يجنبنا إياها الإمام الحسن عليه السلام، وهي صفة معنوية نفسية مهذبة للفرد ورافعة لدرجة فضيلته الاجتماعية ومحسنة للنوع المجتمعي الفاضل، وأيضا تزكية للنفس مما قد يشوبها من حب إظهارها وجلب الشهرة والأنظار إليها وبغض النظر إن كان الكلام صائباً أم لا، فالحكمة هي الكلام بالحق دون الباطل وبما ينفع دون ما يضر، فيستخدم بفقد المتكلم مصداقيته، فيلجأ إلى المغالطات لإثبات رأيه والتنكيل بالمقابل.

ولهذه الحالة آثار سلبية، وتمرض قلبه، فتصير مدعاة لنفور الناس منه، فيصير عائقاً في طريق العلاقات الاجتماعية، بل بهدم البناء الاجتماعي القائم، فعن الإمام الرضا عليه السلام، قال: (**إن الصمت باب من أبواب الحكمة يكسب المحبة، وإنه دليل على كل خير**)[1]، والصمت أعم من السكوت، وهذا من بلاغة الإمام الحسن عليه السلام، فالسكوت الذي يكون مسبوقاً بكلام، أما الصمت فهو أعم من كونه مسبوقاً بكلام أم لا، فاختيار المصطلح دقيق عند الإمام الحسن عليه السلام.

---

(١) مشكاة الأنوار، علي الطبرسي، ص٣٠٦.

وأكد كثيراً أهل البيت عليهم السلام على موضوع الصمت وأنه من أفضل العبادات اذا كان مع التأمل فعن الإمام الصادق عليه السلام: (**ما عبد الله بشيء أفضل من الصمت**)[1]، بل إن الصمت كما عبر الإمام الحسن عليه السلام أفضل معين للإنسان في كثير من المواطن التي يحسن فيها السكوت، حتى لو كان المتكلم من الفصاحة بمكان، فالصمت من علامات وسمات الفضل في الإنسان، ومن مكملات شخصيته الايمانية ودليل على حكمته والتزامه بالثوابت المعنوية للإنسان والطاردة لاحتمالات سوء الفهم أو الجدل غير المجدي، وهو من أبرز الآداب الاجتماعية التي يجب أن يتحلى بها أي مجتمع باحث عن الكمال والفضيلة.

حفظ اللسان:

قال الإمام الحسن عليه السلام: (**كفاك من لسانك ما أوضح لك سبيل رشدك من غيك**)[2].

من نعم الله على الإنسان أن وهبه الناطقية، وجعل له قابلية التكلم والحديث ليقرب الناس بعضهم من بعض وليستدل على

---

(١) الفصول المهمة في أصول الأئمة، الحر العاملي، ٢: ١٧٦.

(٢) تحف العقول، ابن شعبة الحراني، ٢٣٦ ح٤٧.

الحق من الباطل، فاللسان وسيلة للتعبير عن شعور الإنسان وهدفه وغايته والبحث عن مصلحته، وهو سلاح ذو حدين، إما أن يوقع صاحبه في المهلكة إذا لم يحسن استخدامه، أو يجعله في راحة وسلامة وطمأنينة؛ لأنه يكشف عن محتوى الإنسان ومكنون تفكيره وصدق سريرته.

استعمل الإمام الحسن عليه السلام في هذه الرواية لفظين متضادين، يمثلان مسلكين اجتماعيين أمر بأحدهما، ونهى عن الآخر، وهما الرشد والغي، فالرشد لغة الاستقامة على طريق الحق مع تصلب فيه[1]، أما الغي فهو الضلال والخيبة[2]، فهما لفظان لمعنيين متخالفان، الرشاد خلاف الغي[3]، فالرشد هو الصلاح في العقل والدين، والغي هو الضلال عن الدين ومخالفة العقل، يقول تعالى ﴿قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ﴾[4] أي وضوح الأمر بين الحق والباطل وبين الهدى

(١) القاموس المحيط، الفيروزابادي، ١: ٢٩٤.

(٢) الصحاح، الجوهري، ٦: ٢٤٥٠.

(٣) معجم مقاييس اللغة، ابن فارس، ٢: ٣٩٨.

(٤) البقرة: ٢٥٦.

والضلال، فالهدى إلى سبيل الرشاد والضلال إلى طريق الغي، فاختيار الإمام الحسن عليه السلام لم يكن عبثياً وحاشاه من ذلك بل اختيار مدروس ومقصود في فك الارتباط بين الموضوعين ببلاغة عالية وبيان راقٍ ينبئ عن فكره الاجتماعي القيم والرصين والمتعمق في حالة الإنسان المجتمعية.

يرصد الإمام الحسن عليه السلام أحد أسباب وقوع الفرد في المشاكل والفتن والانحراف الفكري والخُلقي الناتج عن استخدام اللسان كناية عن الحديث والكلام في الدخول في الجدليات والنقاشات والحوارات غير المجدية، بل قد تؤدي إلى تغيير الآراء والانحراف عن جادة الصواب، فحينها يكون لسانه وبالاً عليه، فعلى الفرد أن يحدد حواراته بما يكون نافعاً وما يحرر العقل والفكر من الأوهام والمغالطات وترسيخ الحالة الإيمانية لديه دينياً وخُلقياً وتربية نفسه على عدم الخوض إلا بما يسود العقل بحيث يفرق بين طريق الصواب من الخطأ، ويحسن من مقاماته الروحية واتباع الكلام الصادق الواعي للاهتداء إلى المعرفة الحقيقية، وبذلك سيكتسب صفة روحية معنوية، وهو من مبتغيات المجتمع المثالي الذي يُعنى

بروحية الإنسان كما يُعنى بجسده، فالنظام الإسلامي متكامل، شرع للنفوس كما شرع للأبدان بل إن أغلب تعاليمه روحية وبناء المسلم فيه عقيدياً أكثر من بناءه الخارجي له.

إذن عبارة الإمام الحسن عليه السلام (**يكفيك من لسانك ما أوضح لك سبيل رشدك من غيك**) هو ضمن المنظومة الخُلقية المعنوية في الفكر الاجتماعي للإمام الحسن عليه السلام، وما أسماه من معنى.

المزاح:

جبل الإنسان على حالات الفرح والسرور والحزن، ومن طبيعته الاجتماعية مبادلة الآخرين المزاح والضحك للتخفيف عن النفس، ولكن المزاح له مراتب، وله أوقات وحدود، يجب مراعاتها، وإلا انقلب إلى حالة اجتماعية سلبية، وتؤثر على شخصية الفرد معنوياً، وتقلل من شأنه واحترامه أمام الناس، وترسم له صورة مخالفة لصورة الإنسان المهيب ذي المكانة السامية في القلوب والنفوس كما كان عليه أهل البيت عليهم السلام من الهيبة والوقار والاحترام التي كانو يتمتعون بها لكمال نفوسهم ومعرفتهم بخصائص الإنسان الفاضلة، فكانوا القدوة والفرد الأمثل والمربي للأمة على الأخلاق

الحميدة والسلوك المستقيم؛ ولذلك كان أثرهم في المجتمع بالغاً لصدق تطبيقهم للأخلاق الإسلامية من غير مراءاة أو خداع، وحاشاهم من ذلك، فانعكس ذلك على نفوس الناس، وتأدبوا بأدبهم.

وعلى هذا المبدأ أطلق الإمام الحسن عليه السلام القاعدة الاجتماعية بقوله: (**المزاح يأكل الهيبة، وقد أكثر من الهيبة الصامت**)[1] والقصد من قول الإمام أن المزاح ليس على إطلاقه مرفوض، بل كثرة المزاح وكونه ليس في الزمان أو الحال المناسب «**فالإنسان قد يصادف في حياته الاجتماعية ما يثير عنده الإحساس بالضحك، سواء كان ذلك عن طريق المزاح أم المشاهد المثيرة، وهنا لا بد من ضبط هذا الانفعال، سواء بحسب الشكل والصورة، بحيث يحسن به أن لا يصل إلى حد القهقهة أو ارتفاع الصوت**»[2].

الإسلام دين السماحة والمرونة، وكذلك هو دين الوسطية والأمر بين أمرين، وهو لا يمنع من المزاح والضحك، ولكن يضع

---

(١) تحف العقول، ابن شعبة الحراني، ص٢٣٦ ح٤٠.

(٢) دور أهل البيت في بناء الجماعة الصالحة، محمد باقر الحكيم، ٢/ ص٦٧.

لـه حـدوداً تليـق بشخصـية المـؤمن، ولا تخرجـه عـن وقـاره وهيبتـه، فالمزاح الذي ينهى عنه الإمـام الحسـن عليه السلام هـو الـذي يأكـل الهيبـة، وهـذه كنايـة جميلـة ومعـبرة عـن أن المـزاح إذا زاد عـن حـده فإنـه يأكـل الهيبـة، أي يـذهب بهـا، ولا يبقـي منهـا شـيئاً، وهـو تعبـير فيـه قـوة وحـدّة لتحاشي ذلك الامر.

هـذه المفـردة تناولهـا الأئمـة بتعبـيرات أخـرى دعـوا فيهـا إلى قلـة الضـحك والمـزاح لمـا لهـما مـن آثـار اجتماعيـة سـيئة إضـافة إلى آثـاره الذاتيـة السـيئة، فعـن أمـير المـؤمنين عليه السلام، قـال (**إيـاك والمـزاح، فإنـه يجـر السـخينة، ويـورث الضـغينة، وهـو السـبّ الأصـغر**)[1]، وعـن الإمـام الصادق عليه السلام (**لا تمازح فيُجترأ عليك**)[2].

إذن هـذا المفهـوم عنـد أهـل البيـت سـلبي يـودي بـماء الوجـه، ويميـت الـدين، ويقلـل مـن شـأن صـاحبه، وعـلى الفـرد المـؤمن التـزام الصـمت، فإنـه يكثـر مـن الهيبـة في قلـوب النـاس، ويعـزز موقعـه في نفوسهم، فالهيبة مخالفـة للمـزاح، فـإذا كثـر المـزاح قلّـت الهيبـة، وإذا قـل المـزاح كثـرت الهيبـة، كـل ذلـك تربيـة فرديـة واجتماعيـة تحفـظ للفـرد

---

(١) وسائل الشيعة، الحر العاملي، ٨: ٤٨٢، ح٩.

(٢) وسائل الشيعة، الحر العاملي، ٨: ٤٨٢، ح١١.

قيمته المعنوية وتؤسس لقاعدة خُلقية، تترجم صورة المجتمع الفاضل المتزن الذي يتمتع بالمرونة في التعامل مع باقي أفراد المجتمع بما لا يخل بالتعايش على أساس المودة والمحبة حيث تذكر الروايات أن رسول الله محمداً صلى الله عليه وآله كان جلّ ضحكه التبسم[1]، أي أنه كان يتفاعل مع الناس في أقوالهم وأفعالهم، ويستأنس بقضاياهم، فلم يكن فضاً -حاشاه- أو غليظ القلب، وكذا كان اهل البيت جميعاً، فالمناسب هو المزاح القليل مع الصمت عن الكثير، هذا ما يعلمه الإمام الحسن عليه السلام للأمة لتشكيل حالة من الأنس بين أفراده.

العقل:

ومن السمات الروحية للفرد والتي تميز بها عن باقي الكائنات القوة الناطقة فيه، أو العقل الذي جعله الله تعالى لب الإنسان، فيه يثاب، وعليه يعاقب، وبه يسعد، وبه يكون تعيساً، به يعرف الرأي الصائب من الخاطئ، والحسن من القبيح، بل به يكون الإنسان مكلفاً في أحكام الدين، وبالعقل يكون الإنسان إنساناً، فإذا ما تخلى عن عقله سيكون بدرجة الحيوان، لا يعي شيئاً، ولا يدرك الأمور والقضايا، فإذا سلب منه العقل أصبح مجرد مخلوق حيواني كباقي

---

(١) معاني الأخبار، الصدوق، ٨١ ح١.

المخلوقات، والعقل محل تفكر الانسان وملاحظته وتأمله، فالفكر الإنساني هو الذي يصنع التطور والحضارة والثقافة البشرية على مر الدهور والعصور، وسبب تقدم الأمم والمجتمعات هو تقدمها الفكري في كل المجالات العلمية والأدبية والخُلقية والدينية وغيرها من محاور الحياة، بالعقل يسترشد الفرد طريق الصلاح والهدى، فيكون إنساناً متكاملاً وفرداً فاضلاً مسيطراً على جميع رغباته وشهواته ومتشبثاً في عقيدته ومبدإه.

يقول الإمام الحسن المجتبى عليه السلام في جواب سؤال أمير المؤمنين عليه السلام عندما سأله عن العقل:

(حفظ قلبك ما استودعته)[1]، إن النظام الاجتماعي يبتني على أساس العقل البشري، فلولاه لما كان هناك نظام، ولبقيت الحياة عشوائية خالية من مظاهر المعيشة الإنسانية العقلانية، فالنظام يحتاج إلى قابل، وهذا القابل هو الانسان بشرط كمال قواه العقلية التي تتأتى من استخدام العقل بنحو صحيح ومنطقي، فالعلم ينتقل من مرحلة التصور إلى التصديق بالبرهان والدليل، فإذا ثبت أصبح

---

(١) معاني الأخبار، الصدوق، ٤٠١.

راسخاً بالنفس ومتجذراً فيها، فالقلب الذي هو القوة العاقلة والناطقة في الإنسان ومستودع العلم الحاصل لديه، فمع تراكم العلم تصير عنده معرفة في مسالك الحياة والمعيشة، وتحثه المعرفة المتزايدة على تطوير نفسه، وبالتالي مجتمعه الذي يرصد كل حالة إيجابية لصقلها وتوسيعها وتطويرها والانتقال بها إلى طور أكبر وأحدث.

وهكذا تتطور الأمم والجماعات الصالحة عبر الزمن لتصل إلى الكمال في بناء الدولة الناضجة والحكومة الحكيمة، ومبدأ كل هذا هو الفرد العاقل، وهذا من أبرز فلسفات علم الاجتماع أو الفكر الاجتماعي الذي يُعنى بالسياسة المدنية في إدارة شؤون الدولة الفاضلة والتي يرشح لرئاستها أكمل الناس عقلاً، كما نظر لذلك الفلاسفة القدماء، وكما نعتقد نحن بذلك في أننا متدينون بأن أفضل من يصلح لقيادة المجتمع هو من كان أكمل الناس عقلاً، الذي يفتقر إليه الجميع، ولا يكون هو محتاجاً لأحدٍ منهم لحكمته وعلمه وشجاعته، وهذه الصفات تنطبق على أئمة أهل البيت عليهم السلام الذين عصمهم الله تعالى من الرجس، وطهرهم تطهيراً، وجعلهم قادة وسادة للناس جميعاً.

إذن يلخص الإمام الحسن عليه السلام هذه القاعدة الاجتماعية المهمة بكلمتين اثنتين، معناهما كبير وواسع جداً (**حفظ قلبك ما استودعته**) وهو بالفعل خلاصة من خلاصات الفكر الاجتماعي الإنساني.

المجد:

في سؤال أمير المؤمنين عليه السلام لولده الحسن عليه السلام قال: يا بني ما المجد؟ فقال الإمام الحسن عليه السلام: (**حمل المغارم وابتناء المكارم**)[1]، المجد لغة هو الشرف الواسع والكرم والعز[2] فمن أراد الشرف والعزة احتمل المغرم عن نفسه وعن غيره سواء في الأمور المالية أو المعنوية، فتحمل الخسارة في الدية أو في الدين عن النفس أو الآخر بما يضمن حقوق الناس وعدم الإخلال بالنظم الاقتصادية للأمة والحفاظ على المصداقية في التعامل وعدم قطع سبيل المعروف، فتحدث أزمة ثقة اجتماعية، تمنع المحتاج من الحصول على ما يسد حاجته، فالغارم عليه بالصبر والتأني على المغرم، أو أن يتحملها عنه

---

(١) معاني الأخبار، الصدوق، ص٤٠١، ح٦٢.

(٢) مجمع البحرين، الطريحي، ٤: ١٧٢.

شخص آخر فيوصف بالمجد لكرمه وانصافه من نفسه ومن الآخرين.

(أعوذ بك من المأثم والمغرم) أي أن يحمل الإنسان نفسه على عدم ارتكاب المآثم والمعاصي والذنوب التي تخالف الدين والحالة الايمانية.

والمغرم ضد المغنم، أي أن الإنسان كما له أن يغنم، فعليه أن يغرم، وأن يكون الفرد مستوياً في الحالتين، فإذا استطاع تحمل المغارم اصبح مجيداً؛ لأنه قد زاد شرفه وعزته، وهي توصية إلى ذي المال أن ينفق ماله في المغارم عن الغير، وهي صفة ذاتية محبوبة وممدوحة، وتوجب الفضل عند الأنام وتوثق عرى المحبة بين الناس وإشارة إلى الشعور بالمسؤولية اتجاه أبناء مجتمعه، فالغرامة ثقيلة قد تحمل الإنسان إلى الانحراف عن جادة الصواب والتخلي عن مبدأه الديني والخُلقي، فيضطر إلى سلوك غير صحيح لأداء غرامته، فدْفعها هو دفع عن الفرد في الوقوع بالمعصية، وهو عملٌ يوجب المجد لصاحبه، فإذا تجاوز هذه المرحلة انتقل إلى مرحلة أشرف وأعز، وهي تبنيه للمكارم من مساعدة الناس والنظر في حوائجهم وقضائها وتيسير أمورهم، فيصبح مقصداً لذوي

الحاجات والمعسرين، وهو الشرف والمجد بعينه، فتعريف الإمام الحسن عليه السلام للمجد يدخل في صلب بناء الفرد على المستوى الروحي والمعنوي وتفعيل لعمله الإيجابي على أنه فرد صالح في المجتمع وتمتين للسياسة المدنية والاقتصادية، فهي من صفات الفرد الصالح المعنوية، وهي من أروع ما قيل في تعريف المجد.

الطاعة والمعصية:

من أبرز أسباب نجاح أي نظام الالتزام به والدوران في فلكه وتطبيق قوانينه وعدم الحيد عنها أو مخالفتها، فإنه الضمان لحقوق الجميع، فعن الإمام الحسن عليه السلام أنه قال: (**وإذا أردت عزاً بلا عشيرة، وهيبة بلا سلطان، فاخرج من ذل معصية الله، إلى عز طاعة الله عز وجل**)[1].

الإمام الحسن عليه السلام يحرر الفرد من الانتماءات النسبية والسببية والارتباط والانتماء إلى الإسلام الذي يعطي للفرد هويته الحقيقية، فيوسع مفهوم العشيرة ومصداق السلطان، لأن الارتباط بالله عز

---

(١) كفاية الأثر، الخزاز القمي، ٢٢٨.

وجل هو العلاقة الحقيقية التي توفر له غطاء العزة والكرامة والشرفية والمجد، فالنظام العشائري هو أضيق دائرة من النظام الديني ومحدد بقوانين لم تشرع من الله تعالى، والالتزام بقانون العشيرة يوجب على الفرد مخالفة الشرع إذا لم يتفق مع الأحكام الإلهية، وبذلك سيقع بمحذور المعصية.

وكذلك من كان يريد الهيبة بين الناس بقوة السلطان، سواء بالحق أو بالباطل، بالعدل أو بالجور والظلم، فإن مآلها سيكون البغض له وعدم الاحترام والسقوط من أعينهم ونفوسهم، فلا يحصل الغرض الذي ينشده؛ لأنها هيبة مصطنعة، ليست حقيقة، بل ما يحقق كل ذلك هو انتهاج منهج الصلاح والطاعة لله والخروج من دائرة معصيته تعالى، فسيحدث تلقائياً حصول العزة والهيبة التي سيمنحها الله تعالى لعباده الذين واظبوا على التمسك بالإرادة الإلهية عن طريق جهاد النفس والصفات الحميدة التي منها اليقين بالله تعالى وحسن الظن به والتوكل عليه والرجاء له والخوف منه، فإن الفرد سيبنى بناءاً صالحاً على أساس روحي وخُلقي، يقول تعالى ﴿ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخۡشَوۡنَهُۥ وَلَا يَخۡشَوۡنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَۗ وَكَفَىٰ

بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴾[1]، فالعمل الحقيقي الأصيل ما تعكسه النفس المؤمنة الصالحة التي وجهت بوصلتها نحو الله تعالى، ليس سواه، ومن كان مع الله كان الله معه، فإن خشية الله تعالى وطاعته وترك معاصيه من الصفات المهمة في العلاقات الاجتماعية المجعولة على أساس محبة الله، وقد ورد عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: (**من أحب لله، وأبغض لله، وأعطى لله فهو ممن كمل إيمانه**)[2] فمن كمل إيمانه أصبح فرداً كفوءاً لتمثيل الحالة الإيجابية في المجتمع.

إذن بناء العلاقة الاجتماعية يجب أن يكون مرتبطاً ارتباطاً تاماً بالله، وبمقدار ارتباطه سيكتسب العزة والشرف والهيبة المتولدة في قلوب المجتمع له، فهي ليست من الصفات الخارجية التي يتسم بها الفرد من كثرة العشيرة أو قوة السلطان، بل هي ملكة نفسانية وصفة معنوية إيمانية متولدة من الخروج من معصية الله والدخول في طاعته وهذا من سمات الفكر الاجتماعي الحسني في طبيعة العلاقة بين أفراد المجتمع.

---

(١) الأحزاب: ٣٩.

(٢) الكافي الكليني، ٢: ١٢٤، ح١.

هذه كانت بعض الصفات للفرد الصالح الذي يؤسس الإمام الحسن المجتبى عليه السلام لتهيئته لأجل الجماعة الصالحة والأمة الإسلامية الأنموذجية التي بعث الأنبياء والرسل والأئمة عليهم السلام لتحقيقها وإرساء أعمدتها، ولا يمكن لهذه الدولة الصالحة أن تتحقق إلا بالالتزام بتطبيق الرسالة المحمدية السمحاء.

والفرد الصالح هو اللبنة الأولى في بناء المجتمع؛ لذا بين الإمام الحسن عليه السلام الصفات السلوكية والمعنوية التي يجب أن يتمتع بها الفرد ليصلح أن يكون عنصراً فاعلاً ومساعداً على النهوض بالواقع المجتمعي على المستوى التعليمي والتربوي والاستفادة من القواعد الإسلامية السليمة عن أي خطأ أو غلط، فلقد أولى الإسلام للفرد أهمية كبيرة في العلاقات الاجتماعية، وهناك مفردات حياتية أكد عليها الإسلام في معجم كلماته، منها ما يخص الأسرة والوالدين والأصدقاء من الرحمة والرأفة والبر والتواضع وغيرها الكثير، وتكامل الفرد في الفضل والإيمان يشعره بالمسؤولية التامة اتجاه الآخرين، ويدفعه لبذل المجهود للتأثير في الناس وهدايتهم إلى الطريق الأمثل في تكوين الكتلة الاجتماعية، فالناس مجبولون على

التأثر إيجاباً أو سلباً بسلوك الفرد الحامل لمبادئه، وبعكسه يمكن أن يكون تأثيره سلبياً في المجتمع بسوء خلقه وسلوكه المنحرف الذي اتصف بالصفات السيئة والقبيحة والسلبية التي نهى عنها الإسلام، وأمر بتجنبها وذم افعالها.

فالفرد لا يخلو إما أن يكون ضمن أفراد الأسرة أو يكون عاملاً أو رئيساً أو صديقاً أو جاراً أو زوجاً أو حاكماً أو محكوماً أو غيرها من العناوين الاجتماعية، فكما يوجد فرد صالح بمواصفات حسنة، كذلك يوجد فرد طالح بصفات سلبية، فهو حالة عكسية بكل مجالاتها عن الحالة الأولى الإيجابية، ولذا نوه الإمام الحسن الزكي عليه السلام على وجود أفراد يملكون صفات ذميمة، هؤلاء يمثلون نقاط ضعف اجتماعية وأسباباً لتوهين بنائه وهدم أسسه قال رسول الله محمد صلى الله عليه وآله: (**خير المؤمنين من كان مألفه للمؤمنين، ولا خير فيمن لا يألف، ولا يؤلف**)[1]، الألف من صفات المسلم ومن طبيعة الإنسان ومخالفتها مخالفة للقوانين الإنسانية والأخلاق الإسلامية، فعمد أئمة أهل البيت عليهم السلام إلى التأكيد على هذا المعنى الإنساني

(١) الأمالي، الطوسي، ٤٦٢ ح١٠٣٠.

الاجتماعي من النهي عن صفات الشر التي يسلكها الفرد في الحياة اليومية المعاشة ضمن شرائح المجتمع المختلفة المقدر لها أن تتكافل فيما بينها لكفاية بعضها البعض، وعليه يجب فرز الصالح من الطالح والخير من الشر وتقوية الطاقة النورانية لاستجلاء الحق من الباطل، فيصير قديراً على سبر أغوار العلاقات الاجتماعية بعقلانية وتفكير واعٍ وبالوجدان الخُلقي الذي يحث الانسان على التحلي بالفضائل الخُلقية، وتمنعه، وتردعه عن الرذائل متناغماً مع فطرة الإنسان في ميلها نحو الفضيلة ونفورها من الرذيلة.

فصفات الشر والكذب والظلم ونقض العهد وغيرها من الصفات الرذيلة هي نقص للنفس البشرية ودنو لمرتبتها الإنسانية، فقد شخص الإمام الحسن عليه السلام ذلك ونظر لحالتين، فبعدما ذكر صفات الصلاح التي يجب توفرها في الفرد انتقل إلى الصفات غير المحببة والمرفوضة في الشرع الديني والاجتماعي والخُلقي، وسنعبر عنها بصفات الفرد الطالح.

الفرد الطالح:

١. السفه:

في مسائل أمير المؤمنين عليه السلام إلى ولده الحسن بن علي عليه السلام: **(يا بني ما السفه؟ قال: اتباع الدناة، ومصاحبة الغواة)**[١].

من الصفات السلبية التي ينهى عنها الإمام الحسن عليه السلام الفرد الاجتماعي من الاتصاف بها هي صفة السفه التي عرفها الإمام بأنها (اتباع الدناة) الفقرة الأولى من تعريفه فيها مفصلان، المفصل المالي الذي يعرفه الشرع بأنه المبذر لأمواله في غير الأغراض الصحيحة، فيمنع من التصرف في ماله[٢]، والمفصل المعنوي الذي يضع السفيه في مرتبة دنيا لصغر عقله وعدم حسن التصرف من قبله مما يطبع صورة عدم الاحترام والمصداقية له في نفوس الآخرين من أبناء المجتمع، فمن الناحية الاقتصادية، فإن تبذير الأموال ووضعها في غير محلها يسبب انتكاسة في الوضع الأسري وترهل في توزيع المال

---

(١) معاني الأخبار، الصدوق، ١: ٢٤٧، ح٣.

(٢) إرشاد الأذهان، العلامة الحلي، ١: ٣٩٦.

في أوساط المجتمع والحصول عليه دون وجه حق واتلاف لرؤوس الأموال لغاية لا يعلم حصولها له، فيحجر على السفيه بخصوص ماله وتخويل من يحسن إدارتها، وهو يدل على عدم رشده وكمال عقله، فالثروة اذا لم يحافَظ عليها بتوسعتها وإكثارها بما يتوافق مع المنظور الإسلامي العام، فإنها سوف تندثر، وسيحرم منها من يستحقها فعلاً من أسرته أو المحتاجين والفقراء.

فالسفيه يعيش حالة من الاضطراب والطيش في أفعاله وسلوكه، فيذهب بحلمه وحكمته، فالسفه ضد الحلم[1]، والدين الإسلامي أكد كثيراً على حسن التصرف بالمال، ففرق بين التبذير والكرم والإنفاق على المعوزين والمحتاجين، فالسفه إعطاء المال من غير رجاء رضا الله أو فك الأزمات الاقتصادية، فهو مجرد صرف المال بغير وجه شرعي أو عقلاني، ولا يترتب عليه أي أثر اقتصادي أو اجتماعي بل آثاره سيئة وسلبية وقلة دين واختلال بالمنظومة الخُلقية والقانونية في الحياة اليومية السلوكية.

---

(١) الصحاح، الجوهري، ٦: ٢٢٣٤.

يقول الإمام علي عليه السلام: (**إياك والسفه، فإنه يوحش الرفاق**)[1]، يوجه الإمام الحسن عليه السلام إلى أن هناك شريحة اجتماعية متدنية في درجة الإنسانية خُلقياً ومعنوياً، لا تكترث إلى منهج الحياة الإسلامي ومخالفة لكل تعاليمه التربوية، هذه الشريحة من شأنها الإفساد والتخريب وعدم العناية بصفات الفضيلة، فتبقى تراوح في مكانها في أدنى مراتب المجتمع، هؤلاء يجب ضرب نطاق العزلة عليهم وعدم الانسجام معهم، وإلا جروا الفرد إلى مساحتهم الفاسدة، وأركسوه في مستنقع الرذيلة، فيوصي الإمام الحسن عليه السلام بعدم اتباعهم والسير بخطواتهم المؤدية إلى الوصول إلى مرحلة السفه والانحراف والخروج عن النظام الاجتماعي الإسلامي.

أما الفقرة الثانية من التعريف فهي قوله عليه السلام: (**ومصاحبة الغواة**)، الغواة جمع غيّ، الضالّ الخائب، ومصاحبة الضال لا تجرّ إلا إلى الضلال والزيغ عن طريق الهدى والصلاح، والضال منحرف فكراً وسلوكاً، ولا يتوقع منه الرأي السديد الحصيف

---

(١) غرر الحكم، ٢٦٥٥.

والحالة الإيمانية المزكية للنفس، فلا شك أن من يصاحبه سوف يتأثر به، ويقع في غوايته وحبائل شيطانه.

الغواية هي جمع غي، وهي الفساد[1] والضلال، وهي من أقبح الصفات للفرد الطالح، فالسفيه يوصف بصفتين هي من رذائل الصفات، وهي اتباع دناة القوم ومصاحبة غواتهم، والنتيجة صناعة فرد لا ينتمي إلى تلك المدينة الفاضلة، ولا يمكن الاعتماد عليه لا في الأمور المالية ولا في القضايا الخُلقية في السياسة المدنية لأي حكومة، تريد أن تنظم مجتمعاً على أساس صحيح، وبناء دولة وأمة متكاملة وفاضلة، فتحذير الإمام الحسن عليه السلام من هذه الصفات لحماية المجتمع وحفظه مما ينخر أسسه، ويهدم بناءه، هذه الفكرة الاجتماعية في غاية الوعي الثقافي لما يدور، ويجري في تفاصيل الحياة الاجتماعية في تلك الفترة، وفي كل آن ومكان من حياة الأمم.

الجهل:

من صفات الفرد الطالح التي يشخصها الإمام الحسن عليه السلام، وينهى عنها هي صفة الجهل المناقضة للعلم والمسببة لتعطيل

---

(١) لسان العرب، ح١٥: ١٤٠.

المصالح وتكبيل المجتمع عن النظر بما فيه التقدم والنهوض والتحضر وسلوك الطرق المستوية للوصول إلى النقطة والهدف المنشود من الوصول إلى مجتمع صالح، يرتقي في سلوكه وأقواله وممارساته إلى درجة عالية من الكمال، فيقول الإمام الحسن المجتبى عليه السلام في جواب أمير المؤمنين عليه السلام على تساؤلاته، ومنها سؤاله عن الجهل، فيقول: (**سرعة الوثوب على الفرصة قبل الاستمكان منها، والامتناع عن الجواب، ونعم العون الصمت في مواطن كثيرة وإن كنت فصيحاً**)[1].

يتميز الدين الإسلامي في تعاليمه بالصبر والحكمة والحلم والعقلانية في حركة الفرد وانتقالاته ومواجهاته الكلامية وجمع تصرفاته وحركاته وسكناته، وهذا التميز للدين الإسلامي لأجل أن يعطي فرصة للفرد أن يستثمر حياته بنحو صحيح ومتقن؛ ليكون ناتج قراراته مفيد وإيجابي له ولمجتمعه وإتاحة المجال للسيطرة على ذاته وإمكاناته العقلية والبدنية واستعمالها بما يخدم

---

(١) معاني الأخبار، الصدوق، ٤٠١، ح٦٢.

الفرد الإنساني لاستكمال فضائله، وبعكس هذا فإنه سيقع في مشاكل اجتماعية تعقد المشهد السلمي والتكافلي والتعايشي.

وإنّ من مزايا العاقل هو تشخيص الأمور وزنتها وتحين الفرصة في وقتها المناسب واستثمارها أفضل استثمار بما يخدم مصلحته الشخصية والمصلحة العامة وعدم الوقوع في تعارض مع الآخرين من أجل الحصول على مكاسب ضيقة خاصة فإن الفرصة هي التي تأتي للإنسان في الوقت المناسب، وليس هو من يتصيدها في غير حينها.

ولذا عبر الإمام الحسن عليه السلام بالوثوب، أي القفز عليها واقتناصها، كأنها فريسة له من دون روية أو نظر، فتقع بذلك عدة محاذير مخالفة للمبادئ العامة لأصول التعامل بين الأفراد المشتركين في بناء الحياة على أساس المحبة والتعاون البناء لمجتمع متكامل، فيعبر الإمام الحسن عليه السلام عن تلك الحالة بالجهل، فالفرص يجب أن تكون متساوية بين الجميع كي يستطيع كل فرد القيام بعمله المناط إليه، فإذا صار تزاحم بين الأفراد في الحصول على الفرص التي تهيأت لغيرهم ومن باب العدل والمساواة بين الناس، فإنه سيضيع الفرصة على من يستحقها، وهو منتهى الجهل الاجتماعي عندما

يثب الشخص على الفرصة من غير التخطيط لها والاستمكان من جميع مفاصلها وحيثياتها، ومعرفة إن كان بالإمكان تحقيقها أم لا، فتلك مسألة مهمة وحساسة جداً عند أفراد المجتمع، قد تولد العداوة والبغضاء بينهم، فتضيع المعايير السليمة في تنظيم العمل الجماعي، إذن الجهل هو عدم التخطيط المسبق الموجب للعلم بكل القواعد العامة والجزئيات التفصيلية لأي حدث لكي يكون مستعداً للتعامل مع ذلك الحدث بصورة لائقة ومحكمة، تمكنه من استثمارها أفضل استثمار.

وهي حقيقة اجتماعية نفسية وسلوكية أشار لها الإمام الحسن عليه السلام بموضوعية وعلمية بحتة والنهي عنها هو تصحيح للمسار العام الوظيفي للفرد في مجتمعه بنبذ تلك الصفة الذميمة التي هي صفة الجهل بالمنظور الذي شخصه الإمام الحسن عليه السلام في وصف الجهل والمتلبس به، وأنها من أغلظ صفات الذم.

ثم يكمل الإمام الحسن عليه السلام تعريف الجهل بقوله (**والصمت في مواطن كثيرة وإن كنت فصيحاً**)، فالصمت من صفة الحكماء والعقلاء، فلا يتكلم إلا عندما يسأل، ولا يكون كلامه إلا في موضع الحاجة، والصمت بنفسه ليس فضيلة؛ لأنه أمر عدمي،

والفضيلة في الكلام الفصيح، ولكن في محله، فالصمت يكون عن الكلام الهزيل الذي لا نفع فيه وكثرة الكلام تؤدي إلى كثرة الخطأ، وتجهيل المتكلم.

إذن الجهل في تعبير الإمام الحسن عليه السلام هو استخدام العقل والعلم الذي اكتسبه من ملكاته النفسية ليميز الإمام الحسن بين القبيح والصحيح من السقيم ليحسن اختياره باختيار الفرصة البناءة لمجتمعه ولنفسه وعدم القفز على الفرصة من غير تأنٍّ، بل عليه استكمال كل ملكاته النفسانية للاستمكان والتشخيص الصحيح لها.

الكلفة:

الكلفة في اللغة هي المشقة والمتكلف هو المتعرض لما لا يعنيه[1].

يقول الإمام الحسن عليه السلام في الكلفة: (**التمسك بمن لا يؤمنك، والنظر فيما لا يعنيك**)[2].

ما زال الإمام الحسن عليه السلام في توصيف الفرد الطالح بما يحمله من معانٍ سلبية سيئة ومضرة بالمجتمع، يحذر منها الإمام

---

(١) مجمع البحرين، الطريحي، ٤: ٦٢.

(٢) معاني الأخبار، الصدوق، ٤٠١ ح٦٣.

الحسن عليه السلام، ويمنعها، ومن تلك الصفات الكلفة يقول الإمام أمير المؤمنين عليه السلام **(شر الإخوان من تُكُلف له)**[1]؛ لأن التكلف يستلزم المشقة والشر للأخ المتكلف له، والمشقة والتعب أمران لا يستسيغهما الشرع ولا العقل؛ لما فيه من الأذى النفسي والبدني للإنسان، وهذا مما يشيع روح التشاؤم والتنافر بين الناس، ويقلل فرص التضامن والتلاقي في نقاط قريبة تمهد الطريق لعلاقات أقوى واوسع.

فكل عمل يقوم به الفرد، له حدود وغايات سامية، وبالمقابل يجب أن يكون هناك تقبل من الطرف الآخر لعملك حتى يكون هناك تفاعل بين الطرفين، ويكون العمل منتجاً، أما إذا كان العمل فيه مشقة على الطرف الآخر أو على الشخص نفسه فإنه سيكون نتاجه عكسياً، وسيترك أثراً سلبياً بينهما.

(الكلفة هي التمسك بمن لا يؤمنك) التمسك والارتباط والتعلق بشخص أو بمجموعة لا تؤاتيك، ولا تنفعك ستجر إليك التعب والشقاء، فلا يكون طلب الحاجة إلا ممن هو أهلها ومؤهلاً لها ومن يعلم بنفسه استطاعته للقيام بالأمر وتحمل مشقته، وإلا

---

(١) دعائم الإسلام، القاضي النعمان المغربي، ٢: ٤٧، ح١١٥.

فيكون التمسك بمن هم خلاف ذلك من التكلف بحق نفسه وإذلالاً وتهويناً لكرامته، وهي من منافيات الفضيلة، والشخصية الإسلامية المتكاملة المتسمة بالعزة والشرفية والتكريم أساس تكوين الشخصية المسلمة، لا يريد منا الإمام الحسن عليه السلام اللجوء إلى من لا يكون كفءاً لتحمل المسؤولية وتكليفه بما يشقه؛ ولذا اختار الإمام الحسن عليه السلام لفظ (يؤمنك) أي لا يمكن أن يكون أميناً معك في تعامله أو وفياً في موعده أو ملتزماً بعهده أو صادقاً في عمله، فهو في كل الأحوال لا يؤمن جانبه، ولا يوثق كلامه والاتكال عليه تكلف زائد ومؤنة ثقيلة، يقول رسول الله صلى الله عليه وآله: **(الدين النصيحة، فقيل: لمن يا رسول الله؟ قال: لله ولرسوله ولأئمة الدين ولجماعة المسلمين)**[1].

فالنصيحة والإخلاص في التعامل مع الناس ونصحهم في أداء الأعمال والحث على قبولها والرضا بها من أبرز مبادئ الدين الخُلقية التي تقوي العلاقات بين الأفراد وتضع لهم قاعدة قوية قائمة على أساس الشعور بالمسؤولية والثقة والتفاهم للوصول إلى الحقيقة.

---

(١) بحار الأنوار، المجلسي، ٦٤: ٢٧٣.

ورد عن الإمام الباقر أنه قال: (**يا صالح اتبع من يبكيك، وهو لك ناصح، ولا تتبع من يضحكك، وهو لك غاش، وستردون على الله جميعاً، فتعلمون**)[١].

هذه مجموعة من كلمات أهل البيت عليهم السلام، تدل بمضمونها على اتباع الفرد الناصح في عمله الذي لا يشعرك بالكلفة عند التعامل معه، وعلى الفرد المؤمن أن لا يتدخل في شؤون غيره فإن فيه إفساداً للمودة وتجاوزاً على الحقوق الشخصية للآخرين وتداعي العلاقة بينهما وإذلالاً للنفس والخروج عن النظام الخُلقي الاجتماعي، فيخلق المشاكل بين الناس، ويقلل الثقة، إذن إحدى الإشارات المهمة للإمام الحسن عليه السلام في الصفات غير المحبوبة والمنبوذة اجتماعياً هي الكلفة.

اللؤم:

قيل للإمام الحسن عليه السلام ما اللؤم؟ قال: (**إحراز المرء نفسه وإسلامه عِرسه**)[٢].

---

(١) الكافي الكليني، ٢: ٦٣٨، ح٢.

(٢) معاني الأخبار، الصدوق، ٤٠١ ح٦٢.

العِرس بالكسر هي حليلة الرجل ورحلها[1].

في هذه المقولة يطرح الإمام الحسن عليه السلام الفضائل الخُلقية على أنها ممارسات حية في الواقع المعاش وعلاقة الفرد مع المجتمع على أنها علاقة قائمة على احترام الذات وعدم العبث بأخلاقيات المجتمع وأعرافه وأدبياته التي تسالم عليها، والتخلق بصفات الرذيلة دليل على الشخصية الفاشة التي لا تستطيع أن تتواصل مع مجتمعها وبناء علاقات صحيحة وغير مسيطرة على نفسها كي ترتقي إلى مصاف الشخصيات الفاضلة.

هذا تشخيص لقضية نفسانية وعلة نفسية تطيح بشخصية الرجل في بيئته الدينية والخُلقية، وتظهره بمظهر سيء وضار، فالفرد مجبول على التعايش مع الآخرين ومشاركتهم في أمور الحياة بكل تفاصيلها، فلا خير في الفرد إذا استحوذ على كل شيء، وآثر نفسه على الآخرين، فإن المعادلة ستنقلب حينئذ، والمعايير الخُلقية والفضيلة ستنعكس إلى ضدها، وعندها سيكون المجتمع مفككاً وغير منسجم ومخالفاً لطبيعته التكافلية والتعايشية وسبباً في انهيار المجتمع وضعفه.

---

(١) مجمع البحرين، الطريحي، ٣: ١٥٠.

(إحراز المرء نفسه) من كان يضع نفسه في المقدمة دائماً، ويفضلها على من سواه، ويحاول أن يحرز، ويستفيد من كل شيء على حساب غيره، فتنمو في داخله روح الأنانية، ويصبح لا يرى سوى نفسه وتفضيلها حتى على أسرته وأقرب الناس إليه في حين أن الإسلام يوصي بروح التضامن والجماعة (لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه)[1].

وبتجذر هذه الصفة لديه سيتحول من روح الجماعة إلى الفردية المقيتة، وهي منافية لحقوق الفرد في الملكية التي لا تتقاطع مع مصالح المجتمع التي تحدد لكلٍ حقه وواجبه، أما حيازة المنافع دون وجه حق فهي الظلم بعينه ودعوة إلى عدم المساواة والعدالة التي تضع الناس في طبقة واحدة، فهي مؤثرة سلباً على المستوى النفسي والاقتصادي والاجتماعي وتمزيق لنسيجه البنيوي.

(وإسلامه عرسه) من يختزل المجتمع بذاته وما يتعلق به فقد ضيق دائرة العطاء والرحمة والرأفة، فالرجل لا يقتصر في حماية نفسه وعرضه وحسب، بل يكون مسؤولاً عن حفظ المجتمع كله الذي هو من ضمنه، فمن أحرز أهله وزوجته وعياله وماله، ولم

---

(١) المحاسن، أحمد بن محمد البرقي، ١: ١٠، ح٢٨.

يكترث إلى إعراض الناس وحمايتها فقد أخل بشرط مهم من شروط التعايش السلمي والأمن المجتمعي الذي يفرض على الكل مسؤولية الحفاظ على نظامه الأسري وحقوق الناس في العيش بسلام وطمأنينة ويتخذ من مبدأ **(أنا ومِن بعدي الطوفان)** منهجاً في حياته غير مستقيم ونشراً لمبادئ الرذيلة والسقوط الاجتماعي، والإمام الحسن عليه السلام يصف هذه الظاهرة بأقسى وصف، وهو اللؤم الذي يخرج صاحبه من دائرة الفضيلة، ويجعل منه فرداً ضاراً للمجتمع غير مرحب به، ويستثنيه من مصطلح الجماعة الصالحة، ويعده عثرة اجتماعية مسيئة لأخلاق ومسببات كماله، وهي من الصفات الطالحة التي لا ترتقي بصاحبها، بل تقلل من شأنه الاجتماعي، وتنزله إلى درجات متدنية المراتب في السلم الإنساني.

إذن إحدى أبرز الأمراض النفسية والإنسانية يشير إليها الإمام الحسن عليه السلام، ويحذر من ممارستها، وهي صفة اللؤم الممقوتة في الشرع الإنساني، فضلاً عن الشرع الإسلامي، ويدعو إلى التلبس بالحالة الجماعية المحرزة لرضا الناس وتعزيز الثقة بذلك الفرد

وذوبانه ببودقة المجتمع المتكافل المتوازن المتكلف فيه كل فرد مسؤوليته اتجاه نفسه وأهله وجماعته دون تمييز أو تفضيل أو تضييق.

وهو من أبرز الأفكار المجتمعية التي تناولها الإمام الحسن عليه السلام لحل تلك المشكلة ومعالجة ذلك المرض النفسي عند البعض ليستقيم المجتمع في نظامه.

المجتمع الفاضل:

بعدما أنهينا ذكر الصفات المتعلقة بالفرد الصالح والطالح التي من شأنها زيادة الوعي المجتمعي لدى الناس بتشخيص إيجابياتهم وسلبياتهم والحث للحفظ على السمات النفسية الموجبة لرقي الفرد في مجتمعه وتوسيع دائرة الفضل والفضيلة وتجنب سمات السوء والأمراض النفسية للفرد، سواء كانت الروحية أو السلوكية من كلمات الإمام الحسن عليه السلام التي تبين فكره الاجتماعي لتربية الناس على الفضيلة وخلق أجواء المحبة والمودة بين الأفراد وإشعارهم بدورهم الفاعل في النهوض بالمجتمع إلى مرتبة الكمال نتطرق الآن إلى مفصل آخر وبارز، وهو صفات المجتمع الفاضل

الذي يحتوي على مجموعة من الأفراد المنتمين إليه بالصفة الإنسانية أو الإسلامية، فلا تقتصر تعاليم الإمام الحسن عليه السلام على المسلمين فقط، بل هو فكر إنساني عالمي لكل أمة باحثة عن كمالها واستقرارها وصناعة كيانها المستقل عن أي مؤثرات سلبية ترمي به في هاوية التفكك والضياع، فقد كان الإمام الحسن عليه السلام بكلماته وممارساته الاجتماعية القائد القدوة في تقديم أمثل صورة لقواعد الأخلاق والسياسة المدنية الاجتماعية.

ولم يكتف بالقول فقط بل أثبت تلك المفاهيم والمصاديق على أرض الواقع بمواقفه المشهودة لتقويم المجتمع في عصره ومعالجة مشاكلهم فعلياً، فاستعان به حتى أعدائه في قضاء حوائجهم، ولم يبخل عليهم الإمام الزكي بالمشورة، وحاشاه، وهو الكريم حيث يسأله أحد جلاوزة معاوية عن مشكلة عدم إنجابه للذرية، فيعلمه الإمام الحسن عليه السلام الحل بكثرة الاستغفار وفعلاً كان له ذلك، وأخلف ذرية ببركة تعاليم الإمام الحسن عليه السلام وليعطيه درساً خُلقياً وعبادياً وسلوكياً لإصلاح ذاته.

هكذا هو المعلم الحقيقي والقائد الفذ الذي لا يرى من نفسه حكراً على جماعة معينة أو فئة محددة، بل هو هبة الله لكل الناس ليستفيدوا من علمه وتقواه وآدابه وأخلاقه.

النزعة الاجتماعية ذاتية في طبيعة الإنسان، فيحرص كل مجتمع على بناء علاقات ناجحة بين أفراده، ومع باقي الشعوب والأمم مع الحفاظ على متبنياته الفكرية والدينية والعقدية، فكما أن المجتمع يتكامل بأفراده كذلك الأمم تتكامل ببناء علاقاتها وتمتين أواصرها؛ لأن البشر على الأرض هم وحدة واحدة، وإن تفرقوا جغرافياً ودينياً، إلا أن علقتهم الإنسانية تبقى واحدة، والقول المأثور عن امير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام **(الناس صنفان، إما أخ لك في الدين أو نظير لك في الخلق)**[1] هو أفضل وصف للكيان الإنساني الذي ينمو بتلاقحه الفكري وانسجامه المعرفي، وقد أسست حضارات، واندثرت كما تحدثنا به -سنن التاريخ- ولم يورث منها الا المعاني الإنسانية التي خلفتها، بعكس الحضارة الإسلامية التي تفوقت بتكامل جوانبها الحياتية التي شرعها الله

(١) نهج البلاغة، ٣: ٨٤ خ٥٣.

تعالى، وأرسى دعائمها النبي محمد صلى الله عليه وآله برسالته الخالدة التي حملها من بعده الأئمة المعصومون عليهم السلام، فكانوا أئمة للناس والهادين لطريق الرشاد والفضيلة وآيات الأخلاق والحسنى وملجأ لعباده في أمور دينهم ودنياهم والمنجى من كل هاوية وانحراف والمؤسسين لقواعد الاجتماع الإنساني بفكرهم الفياض وعلومهم العميقة الثرة والمؤدبين لأمة جدهم ومصابيح الهدى والحق.

العلاقات الاجتماعية الصالحة:

سأل أمير المؤمنين عليه السلام ولده الحسن عليه السلام عن مسائل، هي من صلب العلاقات الاجتماعية المتداولة بين الناس المنضبطة والمنظمة، فكانت أجوبة الإمام الحسن عليه السلام ترجمة للفكر الإنساني العقلاني المنتظم في دائرة العقيدة والأخلاق والآداب.

(قيل ما الزهد؟ قال: الرغبة في التقوى والزهادة في الدنيا، قيل: فما الحلم؟ قال: كظم الغيض وملك النفس، قيل: ما السراء؟ قال: دفع المنكر بالمعروف، قيل: فما الشرف؟ قال: اصطناع العشيرة وحمل الجريرة، قيل: فما النجدة؟ قال: الذب عن الجار والصبر في

المـواطن والإقـدام عنـد الكريهـة، قيـل: فـما المجـد؟ قـال: أن تعطـي في الغـرم وأن تعفـو عـن الجـرم، قيـل: فـما المـروءة؟ قـال: حفـظ الـدين وإعـزاز الـنفس ولـين الكنـف وتعهـد الصـنيعة وأداء الحقـوق والتحبـب إلى الناس، قيل: فما الكـرم؟ قـال: الابتـداء بالعطيـة قبـل المسـألة وإطعـام الطعام في المحل، قيل: فـما الدنيئـة؟ قـال: النظـر في اليسـير ومنـع الحقـير، قيل: فما اللـؤم؟ قـال: قلـة النـدى وأن ينطـق بـالخنى، قيـل: فـما السـماح؟ قال: البذل في السـراء والضـراء.

قيـل: فـما الشـح؟ قـال: أن تـرى مـا في يـديك شرفـاً ومـا أنفقتـه تلفـاً، قيـل: فـما الإخـاء؟ قـال: الإخـاء في الشـدة والرخـاء، قيـل: فـما الجـبن؟ قـال: الجـرأة عـلى الصـديق والنكـول عـن العـدو، قيـل: فـما الغنى؟ قال: رضا الـنفس بـما قسـم لهـا وإن قـل، قيـل: فـما الفقـر؟ قـال: شره الـنفس إلى كـل شيء، قيـل: فـما الجـود؟ قـال: بـذل المجهـود، قيـل: فـما الكـرم؟ قـال: الحفـاظ في الشـدة والرخـاء، قيـل: فـما الجـرأة؟ قـال: موافقـة الأقـران، قيـل: فـما المنعـة؟ قـال: الشـدة البـأس ومنازعـة أعـز الناس، قيل: فـما الـذل؟ قـال: الفـرق عنـد المصـدوقة، قيـل: فـما الخـرق؟ قـال: مناوأتـك أمـيرك ومـن يقـدر عـلى ضرك، قيـل: فـما السـناء؟ قـال:

إتيان الجميل وترك القبيح، قيل: فما الحزم؟ قال: طول الأناة والرفق بالولاة والاحتراس من جميع الناس، قيل: فما الشرف؟ قال: موافقة الإخوان وحفظ الجيران، قيل: فما الحرمان؟ قال: تركك حظك، وقد عرض عليك، قيل: فما السفه؟ قال: اتباع الدناة ومصاحبة الغواة، قيل: فما العي؟ قال: العبث باللحية وكثرة التنحنح عند المنطق، قيل: فما الشجاعة؟ قال: موافقة الأقران والصبر عند الطعان، قيل: فما الكلفة؟ قال: كلامك فيما لا يعنيك، قيل: فما السفاه؟ قال: الأحمق في ماله المتهاون بعرضه، قيل: فما اللؤم؟ قال: إحراز المرء نفسه وإسلامه عِرسه)[1].

هذه الكلمات من الإمام الحسن المجتبى تستحق أن تكتب بماء الذهب لما تضمنته من مضامين جليلة وما احتوته من كنوز ثمينة وما اشتملته من مبادئ عظيمة هي منهاج للحياة السليمة والمعيشة القويمة، تحمل كل كلمة فيها قيمة عالية وثروة هائلة للإنسانية جمعاء، يرى القارئ فيها الترابط الجميل بين معانيها وتنظيم العلاقة فيها، فهي كالثمار، قطوفها دانية لمن أراد جني معارفها وتحصيل

---

(١) تحف العقول، ابن شعبة الحراني، ص٢٢٥، ح٢.

علومها هي ليست مجرد مواعظ وحكم، بل هي أسلوب حياة متكامل للسالك في طريق الهدى والرشاد، وقد بين فيها الإمام الحسن عليه السلام مصطلحات الحياة اليومية وما فيها من أساليب التربية النفسية والمجتمعية، فلا يمكن لنا أن نعيش في مجتمع فاضل من غير اللجوء إلى تلك التعاليم السامية والتثقيف عليها وممارستها عملياً والاستنارة بأبعادها التنموية للفرد والجماعة وترتيب العلاقات الاجتماعية على أساسها لضمان العدالة والمساواة والرفاهية للناس.

ففي تعريف الزهد بأنه الرغبة في التقوى والزهادة في الدنيا يرسم لنا الإمام الحسن عليه السلام طريقاً واضحاً وشفافاً في التعامل مع طبيعة الحياة الكريمة الخالية من مظاهر الكذب والنفاق والتحايل، ويميز بين مفهومين متضادين، هما الرغبة والزهادة، ومتى وأين يصح استخدامهما، فلدينا عنوانان هما التقوى والدنيا فلمن التقوى ولمن الزهادة، معادلة يوازنها الإمام الحسن عليه السلام بضم الرغبة إلى التقوى، فعلى المرء أن يكون راغباً ومنجذباً إلى التقوى ومائلاً إلى الاحتياط من الوقوع فيها بحرف مسيرة الحياة عن استقامتها، فهي التزام وطاعة التشريع الإسلامي وعدم الحياد عنه والتقوى من

صفات الفضيلة متعلقة بسلوك الإنسان مع ربه ومع الناس بأداء الواجبات وتجنب المحرمات الشرعية والخُلقية.

«**يتعرض الإنسان في حياته ومعيشته، وكذلك في علاقاته الاجتماعية إلى ضغوط الهوى والشهوات الدنيا ورغباتها المختلفة، الأمر الذي قد يربك كل مسيرة الإنسان عندما يريد أن يستجيب لكل هذه الشهوات والآفات، ومن ثم يحتاج الإنسان إلى نظرة موضوعية للدنيا وما فيها، تجعله قادراً على التعامل مع كل هذه الأشياء ومن خلال العقل والمصلحة وما ينتهي به إلى الكمالات الحقيقية**»[1].

فالزهد حالة إيمانية يستجليها الفرد والمجتمع من مخالفة الهوى لارتكاب الأخطاء والرضا بما قسم الله لعباده والعيش بواقعية والسيطرة على الغرائز، فالرغبة في التقوى المصاحبة للزهادة في الدنيا تجعل من الفرد متوازناً في حياته، ويوطد العلاقة مع أبناء المجتمع باعتبار أن العلاقات المبنية على أساس التقوى والرغبة عن ملذات الدنيا هي عنوان الجماعة الصالحة والمجتمع الفاضل الذي يضم جميع أفراده تحت ظل واحد.

---

(١) دور أهل البيت في بناء الجماعة الصالحة، ٢: ١٣٩.

إذن الزهد في الدنيا هو الزهد الحقيقي الذي يجب أن يتصف به الفرد في مجتمعه، وهي أيضاً من العلاقات الاجتماعية المنهجة في سياق التدبير الاقتصادي والتدبر المعنوي في الحياة الروحية للأمة، فالزهد في معادلة الإمامة هي حث النفس على تقوى الله وتجنب أذى خلقه والزهادة في مغريات الدنيا وبهرجتها وفتنها.

وبترابط لطيف ينتقل الإمام الحسن عليه السلام إلى مفردة أخرى من مفردات العلاقات الاجتماعية في المجتمع الفاضل والتي لها دخل كبير في تهذيب المجتمع وضبطه، وهي الحلم عندما يعرفه الإمام الحسن عليه السلام بأنه (**كظم الغيظ وملك النفس**)، فطبيعة المجتمع في علاقاته في التعامل على المستوى التجاري أو النسبي أو السببي لا يخلو من بعض سوء الفهم الذي قد يحصل بين أفراده، فالنفس غير معصومة ومعرضة للشك والحسد والنفرة والبغضاء والغضب وغيرها من الانفعالات النفسية التي تفقد الفرد توازنه وسيطرته على نفسه، وتلجئه إلى سلوك سيء، فعند الغضب لا يمتلك الفرد مشاعره وجوارحه، وقد يتسبب بالأذى للغير نفسياً أو بدنياً أو قد يستفز بكلمة أو موقف، فتثور نفسه، ويفسد رأيه، فيصدر منه ما لا يليق من حيث تدينه وإنسانيته وما سيخلفه من تبعات إثر تصرفه،

فعلى المرء أن يحسن التعامل مع مثل هذه المواقف بتهدئة النفس وسكونها وامتلاك زمام أموره؛ لأن انفلاتها يعني اعتداء على الغير وتفريغ غيظه وحقده إلى الخارج، فالغضب أمر غريزي، وهو مطلوب، ولكن للدفاع عن النفس وحمايتها وحماية دينه وعرضه، وليس للانتقام بانفعال مجنون خارج عن العقلانية.

(**فالغضب أوله جنون وآخره ندم**)[1] وكظم الغيظ من أفضل معاني جهاد النفس، ويدل على قوة الذات المتسلحة بإيمانها وتقواها، يقول تعالى: ﴿وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ﴾[2]؛ لأن ردع النفس وحبس غيظها وغضبها يحتاج إلى قوة كبيرة وعزم شديد لا تتوفر إلا بمن كان يؤمن بالله ورسوله وأوليائه الأئمة الهادين وتدريب الإنسان على كظم غيظه، يحيطه بهالة من العزة والوقار والحكمة، تبدو في محياه وفي طريقة تعامله، فمن استطاع أن يكبح جماح نفسه، ويضبطها أصبحت ملكة وتحت تصرفه، يسوسها كيف يشاء.

---

(١) شرح نهج البلاغة، ابن ابي الحديد، ٣٢٧.

(٢) آل عمران: ١٣٤.

ومن وصايا النبي ﷺ لعلي عليه السلام **(يا علي من كظم غيظاً، وهو يقدر على إمضائه أعقبه أمناً وإيماناً يجد طعمه)**[١]، فإن صلاح ذات الفرد هو صلاح لذات المجتمع، وتكامل الفرد هو تكامل للمجتمع والعلاقات الاجتماعية القائمة على أفعال الأفراد، وردود أفعالهم تتأثر بالأفراد الإيجابيين والسلبيين والفرد الإيجابي الفاضل هو إضافة مهمة للجسم الاجتماعي، وهو خلية حية لتوليد خلايا طيبة أخرى، فمن كظم غيظه وملك نفسه فقد انحسرت بواسطته الخصومات والاعتداءات والخلافات بين الناس، وساهم في تحقيق الأمن المجتمعي، وهو أبرز ما يصير إليه أي مجتمع أو أمة للعيش باستقرار.

إذن الحلم رمز خُلقي اجتماعي عالٍ ومهم يضع الأمور في مواقعها الحقيقية والمناسبة، وهو ما ميز الإمام الحسن عليه السلام الذي شهد بحلمه الأعداء قبل الاصحاب، فيقول مروان بن الحكم **(إني كنت أفعل ذلك بمن يوازن حلمه الجبال)**[٢].

---

(١) مكارم الأخلاق، الطبرسي، ٤٣٣.

(٢) مقاتل الطالبيين، أبو الفرج الاصفهاني، ٥٠.

فكان الإمام الحسن عليه السلام إنموذجاً حياً وصارخاً للحلم بعد الظروف التي واجهها بعد شهادة أبيه وتسنمه زمام قيادة الأمة ودخوله في مماحكات الصلح وملابساته وصبره وكظم غيظه على ما واجه من أصحابه وتطبيق منهج الحلم الحسني الذي صار منهجاً إصلاحياً للناس لحل المشاكل وتجاوز الخلافات وتبييض الصفحات وقصر الغيظ داخل النفس وعدم إظهار انعكاساتها الخارجية، وهذه الحالة هي احتواء للأزمات الاجتماعية التي تعصف بالأمم وتطويقها لكي لا تصبح ظاهرة اجتماعية مضرة، وهي إثارة فكرية في فكر الإمام الحسن عليه السلام الاجتماعي.

وبانتقالة أخرى إلى معنى وفكرة اجتماعية لربط المجتمع مع بعضه بحسن العمل وتصحيح المسار يتطرق الإمام الحسن عليه السلام إلى قول رائع ومعنى فائق وتعبير رائق في الجواب عن معنى السداد فيقول: (**دفع المنكر بالمعروف**).

ما زال الإمام الحسن عليه السلام يضع أصابعه الشريفة على المشكلات الاجتماعية، ويعالجها بدرر حكمه، إذ لا يخلو أي تكتل بشري من وجود السلبيات والأفراد المسببين للمنغصات ومعكرات الحياة المسالمة الساكنة لتعكير صفوها وقصم علاقاتها

بـأقوالهم وأفعـالهم التـي تجلـب السـوء والباطـل لجماعـتهم وتحـاول أن تغـير تركيبـة المجتمـع مـن الفضـيلة إلى الرذيلـة بـالانجرار وراء انفعـالاتهم النفسـية وهواجسـهم المريضـة وتعيـق حركـة المجتمـع نحـو الكـمال، فكـل فـرد يتعـرض إلى المنكـر مـن القـول والفعـل، فـما هـو الموقـف الأنسـب لمواجهـة ذلـك المنكـر؟ هـل عـلى قاعـدة رد الفعـل بـما يسـاويه ويعاكسـه في الاتجـاه، أم بـاحتواء الموقـف والسـمو عليـه والـرد بضده من المعروف؟

فإن كـان الـرد بـالمنكر أصـبحت المشـكلة أكـبر وأعقـد، وسـتكون مشـكلة اجتماعيـة تفكـك العلاقـات بـين الأفـراد، وتـدفعهم للاحـتراب والتسـقيط وبتوسـيع مسـاحة المنكـر، فتنحسـر مسـاحة الإيـمان ويفقـد المجتمع فضيلته، فليس هو الموقف المناسب.

أما مقابلـة المنكـر بـالمعروف ودفعـه بـه فإنـه سـيوقف المقابـل عنـد حده، ويـروض تلـك الـنفس المتلبسـة بالفسـاد والرذيلـة ويؤقلمهـا عـلى تعلم الفضـيلة بموقفـه، وهـو بـالطبع لـيس بـالأمر الهـين، بـل يحتـاج إلى قـوة إيمانيـة وتقـوى عاليـة وخلـق رفيـع حتـى يسـتوعب المقابـل، ويـرد إسـاءته بالإحسـان إليـه، ولا يصـدر ذلـك إلا عـن عقـل سـديد ورأي عتيـد مـن الفـرد، ولعـل أهـل البيـت عليهم السلام مثـال لهـذا الأمـر، وهـم قـد

واجهوا المنكر من أعدائهم بالصبر عليهم ومعاملتهم بالمعروف أولاً عملاً بدينهم ورسالة نبيهم وثانياً لتربية الأمة وإصلاحها وغرس مفاهيم الإسلام فيها.

وسيرة الإمام أبي محمد الحسن الزكي عليه السلام تبرز لنا مواقف عديدة، واجه فيها منكر الناس بمعروفه في ما جرى بعد الصلح وعدم فهم الناس لحكمته حتى من بعض أصحابه، وقام البعض بالسلام عليه (بمذل المؤمنين) وهو أسوأ منكر بحق إنسان فضلاً عن كونه مسلماً مؤمناً وإماماً معصوماً، ولكن الإمام الحسن عليه السلام واجه ذلك المنكر برأيه السديد بتعليمهم ما ينبغي قوله وفعله، وذلك أبرز معنى للسداد الذي عرف لغوياً بأنه (**السداد بالفتح، الإصابة في المنطق، أن يكون الرجل مسدداً**)[1] (**سدده: وفقه للسداد بالفتح من القول والعمل والقصد منهما**)[2].

ويطابق التعريف اللغوي مراد الإمام الحسن عليه السلام من تعريفه للسداد، فتصويب الرأي واستقامته لا يكون إلا من الحكمة التي تنتج من مخالفة النفس والهوى وعكس المنكر الصادر من المقابل إلى

---

(١) لسان العرب، ابن منظور، ج٣، ص٢٠٧.

(٢) تاج العروس، ٥: ٩.

معروف، أي يجب أن يكون ما يصدر عنا يمثل طبيعتنا لا طبيعة المقابل، وهذا من أروع أساليب التعامل في العلاقات الاجتماعية التي تتوافق مع الحقيقة الإنسانية والتعاليم الدينية، فالإمام الحسن عليه السلام بهذه الفكرة الاجتماعية يجعل من السداد آلية لصناعة أنموذج صحيح آمر بالمعروف وناهٍ عن المنكر الذي هو أحد فروع الدين، فمقابلة المنكر بالمعروف أسد الحلول.

وفي (الشرف) الذي هو قيمة اجتماعية، لها مكانتها في نفوس الناس من رفعة الشأن وعلو المرتبة بين الأقران، ولكن أي شرف الذي يعطي للفرد قيمة حقيقية لا مزيفة ومصطنعة شكلية لا أصلية، فموضوع الشرفية الاجتماعية ليست منصباً يتقلده الفرد أو محدداً بمكان أو زمان أو حال معين، بل هو صفة تلازم الفرد نتيجة امتلاكه وازعَ الخير والحق والصلاح والمحبة والألفة والاحترام والتواضع والإيثار والحلم وغيرها من صفات الفضل النفساني والبذل المادي.

يقول الإمام الحسن عليه السلام (**الشرف: اصطناع العشيرة وحمل الجريرة**) لعل هذا من أوضح معاني العلاقات الاجتماعية التي ذكرها الإمام الحسن عليه السلام، فالمجتمع يتكون من عدة وحدات تبدأ

بالفرد ثم الأسرة ثم العشيرة ثم الأمة ثم الدولة ومحاولة كسب الفرد محيطه الاسري وتنظيمهم بالمعاشرة الحسنة واصطناع المعروف لهم وحملهم على التحلي بالأخلاق الحميدة وتبني السلوك السليم والطريق الرشيد، وسياستهم بالرأي السديد والمشورة الناصحة ستجعل من ذلك الفرد قائداً لائقاً ومناسباً بشرط توفر الصفات السابقة فيه، وستكسبه الشرفية في قومه ومجتمعه، ليس بقوة المال أو السلطة، وإنما لقناعة الناس باستحقاقه للاحترام والتقدير الذي أكسبته شخصيته المحورية في تركيبة المجتمع الفاضل وامتلاكه لقلوب الناس ومشاعرهم وتعاطفهم معه، فأصبح الشرف من ذاتياته ومشخصاته وهذا هو حقاً الشرف الذي يقصده الإمام الحسن عليه السلام.

وورد عن الإمام علي عليه السلام: (**إنما الشرف بالعقل والأدب بالمال والحسب**)[1]، وتعبير الإمام الحسن عليه السلام بلفظ (الاصطناع) فيه دلالة على السعي والحركة لإيجاد ذلك الشيء، فهي على وزن افتعال، وهي من صيغ المفاعلة، أي العمل والتحرك على إيجاد ذلك الشيء بعد تعب وجهد.

---

(١) ميزان الحكمة، محمد الرشهري، ٢: ١٤٣٢.

واصطناع العشيرة ليس بالأمر الهين الحصول، وإنما هو بحاجة إلى بذل ما في الوسع للحصول عليه، وإلى الآن لم ينته الإمام الحسن من تعريفه للشرف، فمن له الغنم فعليه الغرم، واصطناع العشيرة يتطلب بعد ذلك تحمل المسؤولية وأن يكون بقدر تلك المسؤولية، فيقول الإمام الحسن عليه السلام **(وحمل الجريرة)** في المصطلح الفقهي أن حامل الجريرة هو من يتكلف بدفع الغرامة المالية المترتبة على الجاني بعد إجراء معاهدة بينهما تقتضي تحمل الجريرة إذا جنى شخص بدلاً منه، هذا في التعريف الفقهي، ولكن الإمام الحسن عليه السلام إضافة إلى هذا، فإنه يريد تحمل ما يصدر عن العشيرة من سوء ودفعه بالمعروف، فرئيس العشيرة الذي ساد عشيرته لشرفه فيهم يكون أيضاً مسؤولاً عن تحمل أخطاء أفراد عشيرته وإصلاحها ودفع المفاسد عنها والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأن يرفع الحيف عن المظلوم ويحاسب الظالم.

فمبدأ العدالة والمساواة مهم في قيادة المجتمع لتحقيق السعادة والأمان المجتمعي، ومن هذه الفكرة الاجتماعية للإمام الحسن عليه السلام نضع قاعدة اجتماعية مهمة في بناء العلاقات بين الأفراد وبين الفرد وجماعته من مبدأ الشرفية، تلك الصفة الفاضلة المؤهلة لسيادة الناس لخدمتهم لا للتسلط عليهم كما كان الإمام الحسن عليه السلام الذي

ورث الشرف والسؤدد عن جده رسول الله صلى الله عليه وآله، فسخر منصبه الإلهي لقيادة الناس إلى الهدى والرشاد وسياسة العباد والبلاد، فكان ملجأ للخائفين وملاذاً للمحتاجين، فأعطى، وأكرم، وجاد من بحره الذي لا ينضب، ولم يقتصر عطاؤه على المسلمين فقط ولا على البشر فقط، بل إن فيوضات كرمه وجوده شملت كل الموجودات.

ومن العلاقات الاجتماعية الأخرى (النجدة)، فيقول الإمام الحسن عليه السلام في بيان معناها أنها (**الذب عن الجار والصبر في المواطن والإقدام عند الكريهة**)، فإن الأمن المجتمعي ضرورة اجتماعية يجب توفرها، فإذا فقد الأمان فقد المجتمع استقراره وسعادته، وفقد هويته الإنسانية وشعارها المسالم، فمن أساسيات تكوين الجماعة الصالحة تسالمهم واتفاقهم على الذب عن بعضهم وحماية أعراضهم من أي خطر خارجي أو داخلي قد يحيط بهم، ويلم بمعيشتهم، فلا بد من النجدة، وهي الشجاعة والشدة والبأس في حفظ أرواحهم وأموالهم وأعراضهم ومقدساتهم، والاستنجاد لا يكون إلا لمن يحمل هذه الشيم والفضائل، والنجدة تارة تكون من فرد، وأخرى من الجماعة في حدوث الطوارئ المهددة لأمنهم.

فنرى أن الإمام الحسن عليه السلام ركز على مفردة الجار في النجدة، ولم يقل العشيرة أو الأصدقاء أو الأقارب، وذلك لأن الجار هو أقرب شريحة اجتماعية في الحياة المعيشية للناس، والذب والدفاع عنهم هو أولوية لقرب الجار اجتماعياً ومكانياً، وتكون الألفة معهم أكثر عادة، فمن لا يذب عن جاره -وهو أقرب الناس إليه- فإنه سوف لا ينجد غيره من باب أولى، يقول رسول الله صلى الله عليه وآله (**ما زال جبرائيل يوصيني في الجار حتى ظننت انه سيورثه**)[1] وهو أيضاً توصية اجتماعية بحق الجار والعلاقة به والتي هي من أوطد العلاقات الاجتماعية، ونجدته واجب خُلقي وإنساني.

والشق الثاني من تعريف النجدة هو الصبر في المواطن، أي في مواقف الحرب والمعارك دفاعاً عن الحقوق الدينية والإنسانية والاجتماعية، فعند تعرض أي بلد أو أمة إلى هجوم من قوة أخرى خارجية فمن طبيعة المجتمع الدفاع عن نفسه ورد الضرر الذي قد يصيبهم، وهي تحتاج إلى رباطة جأش وشجاعة ومروءة واستشعار روح الجماعة، ومن أصدق مصاديقها الجهاد في سبيل الله دفاعاً عن

---

(١) الأمالي، الصدوق، ص٥١٤.

الدين والرسالة الإسلامية، وأن موقف الإمام الحسن عليه السلام في الصبر عند حربه مع معاوية وتخلي جيشه عليه السلام عن التزامه ونصرته له عليه السلام والإقدام عند الكريهة، أي عند القتال، وبدء الحرب وعدم الفرار والنكوص، فإنها من تمام النجدة.

وهذا تعريف موجز مختصر لحقيقة اجتماعية قائمة وحيوية اختزلها الإمام الحسن عليه السلام ببلاغته المعهودة بثلاث كلمات هي من قواعد العلاقة الاجتماعية ومسألة حيوية لطريقة تعامل الفرد والمجتمع مع بعضه عند الوقوع بمشكلة ومد يد العون والمساعدة للحفاظ على كيان المجتمع وترابطه بالتمسك بهذه الفضيلة الإنسانية.

إن من ملازمات الشرف ونتائجه حصول المجد للإنسان والفرد الاجتماعي الذي تعلو رتبته في قومه، ويذكر الإمام الحسن عليه السلام استطراداً -بعد تعريفه للشرف- تعريف المجد، إذ يقول (**أن تعطي في الغرم وأن تعفو عن الجرم**)، فمن ساد في عشيرته وقومه صار مسؤولاً عن متابعة الناس اجتماعياً واقتصادياً لحل مشاكلهم ورفع معاناتهم، وكما قيل فإن كبير القوم خادمهم يتعامل مع أهله بروح الأبوة والعطف، فيعطي حتى لو كان معسراً، فيحاول موازنة

الحيـاة المعيشـية ومتطلبـات التعامـل الـذي يشـوبه بعـض الخلافـات الماليـة، ويحـاول معالجتهـا بالحكمـة والـتراضي بـين الأطـراف المتنازعـة وتهدئة الوضع وتمشيته، وكـذلك مـن صـفات الماجـد عفـوه عـن الجـرم، أي مـا يواجـه مـن اعتـداء ومخالفـة قانونيـة توجـب الاقتصـاص والعقوبة على الطـرف الآخـر، ويكـون بيـده إمـا العفـو عنـه أو معاقبتـه، وكلاهمـا حـق لـه، ولكـن إن عفـا فقـد الـزم المقابـل أخلاقيـاً بالفضـل ومسـامحته عـلى خطـإه هـو إعطـاء فرصـة لـه لمراجعـة نفسـه وتصـحيح خطإه، وهي فضيلة عاليـة يمارسـها الفـرد عـلى رغـم تحملـه مشـاقها، إلا أنها ترفع مـن شـأنه في نفـس المقابـل، وتـورث المحبـة والاحـترام عنـده، وهي فضـيلة اجتماعيـة تـرصّ صـفوف المجتمـع، وتقلـل مـن الفراغـات في علاقاتهم وتزيدها قوة.

أما عن المروءة التـي طالمـا أكـد عليهـا الإمـام الحسـن عليه السلام في كلماتـه فإنهـا تصـقل شخصـية الفـرد الإنسـانية، وتقـوي لديـه الحـس الآدمـي، وتكـرس المعـاني الخُلقيـة للفـرد الاجتماعـي وإشـعاره بـدوره في محيطـه ومسـؤوليته عـلى أنـه إنسـان في حفـظ الكيـان البشـري مـن ممارسـاته النابعـة مـن طبيعتـه الإنسـانية التـي فطـره الله تعـالى عليهـا، وجعلهـا

بوصلة حركته نحو الخير والصدق والسعادة والعدالة وكل ما يحقق الانتماء الاجتماعي.

فيقول الإمام الحسن عليه السلام في المروءة أنها (**حفظ الدين وإعزاز النفس ولين الكنف وتعهد الصنيعة وأداء الحقوق والتحبب إلى الناس**). تمثل هذه الصفات المذكورة تمام المروءة، فحفظ الدين هو أبرز ما يملكه المرء؛ لما للدين من أهمية في حياته وتكوين كيانه وتنظيم شؤون حياته، وهو قانون الحياة المستقيمة وحفظ الدين من الناحية العقَدية والتشريعية والخُلقية، تصنع الفرد في حالة من التوازن مع نفسه والآخرين، وتسبب له السعادة الأبدية وحفظه بالالتزام بما وجب عليه من أحكام وعدم مخالفتها، فقيمة الإنسان هي بما يملكه من تعاليم تجعل له شأنية اجتماعية وشرفية وتساعده في القيام بتعاملاته بنحو صحيح خالٍ من أي تعارض مع حقوق الناس، وإعزاز النفس وعدم إذلالها؛ لأن الله كرمها، وأعزها، وفضلها بما وهبها من إدراكات وجدانية بها يعرف الخالق، ويؤمن بوجوده.

إن النفس الإنسانية مجبولة على حب ذاتها وتكريمها وتصفيتها من الشوائب وتزكيتها لرفع درجتها للتقرب إلى الكمال

النفساني، أما من أرخص نفسه لشهواته وغرائزه ولذاته، فإنه بذلك يكون قد أذلها، وسلب منها صفتها الإنسانية، وإعزاز النفس مكمل لحفظ الدين، فمن حفظ دينه، وتورع عن المحرمات فقد أعز نفسه، وأكرمها بالاستجابة للتعاليم الإلهية النازلة لحفظ الإنسان وكرامته.

ولين الكنف أيضاً صفة خُلقية اجتماعية تفرض على المرء المرونة والأريحية واللين في تعامله سواء مع أسرته أو أصدقاءه أو أقاربه أو كل من يقع تحت كنفه، ويكون مسؤولاً عنه، ومسؤوليته لا تبيح له التسلط عليهم والتحكم الظالم بهم، بل تملي عليه رعايتهم والعطف عليهم والاهتمام بهم كما هي سيرة النبي الأكرم ﷺ وأهل بيته الطاهرين عليهم السلام، إذ عاملوا رعيتهم بكل لين ومرونة ومحبة فلم يشعروهم بسيادتهم عليهم، وإنما عاشروهم بإحسان، وتعايشوا معهم بالمودة والرأفة والأبوة، فلم يميزوا بينهم، ولم يقربوا أحداً دون آخر إلا من كان لله أقرب.

وهذا الإمام الحسن عليه السلام يعامل أصحابه ومجتمعه بكل حب ورحمة على رغم مما واجهه منهم من عقوقهم إليه، إلا أن ولايته عليهم كانت رحمة بهم، وليست نقمة، فألانوا جانبهم لهم، وحنوا

عليهم، وهو أوضح مثال للين الكنف والرحمة، وهي كذلك مرتبطة بحفظ الدين وإعزاز النفس، فمن كانت نفسه عزيزة لانت وطابت للآخرين.

وتعهد الصنيعة، وهي التفاتة جميلة في الفكر الاجتماعي الإنساني وصحة علاقاته في معاملاته، فمِن مقومات أي مجتمع العمل وتوفير مستلزمات الحياة الكثيرة، حيث يقوم كل فرد بأداء عملٍ ما يكفي به المجتمع، بشرط أن يحسن عمله وأن يكون تاماً سالماً من النقص والتقصير، فصاحب الحرفة أو الصنعة عليه أن يتعهد أمام ربه ونفسه والناس أن يكون مخلصاً في عمله منجزاً له بأفضل وجه، لا يبتغي من ذلك الربح المادي فحسب، بل غايته توفير الحاجة للناس وكفايتهم إياها وتطوير الحالة الاقتصادية للدولة المتكفلة برعاية المجتمع، فالتعهد بالصنعة حالة إيجابية تمتن الثقة بالعلاقات الاجتماعية، وتضفي على الفرد نوعاً من المصداقية في أداء عمله ونمو الحالة المعيشية للناس وإسعادهم ورفاهيتهم، وهي أيضاً من مكملات حفظ الدين وإعزاز النفس، وقد يفهم منها معنى آخر وهو أن يتعهد الفرد بصنيعة الخير والعمل الحسن

للنـــاس وأن يأخـــذ عـــلى نفســـه عـــدم الإضرار بالصـــالح العـــام وأن يتعامـل مـع الآخـرين بـاحترام وصـدقٍ، لبـثٍّ روح المحبـة والتسـامح والاطمئنـان بـين أفـراد المجتمـع، وهـو كـذلك مـن المفـردات الدينيـة والخلقية التـي يـوصي بهـا أي ديـن وكـل الشـرائع السـماوية، فهـو بحـد ذاته أمر محبب للنفوس ومقوم للذات والجماعة.

أما أداء الحقـوق فهـو هويـة الفكـر الاجتماعـي والتربيـة المجتمعيـة الناضـجة والمؤمنـة بمحوريـة الفـرد وكيـان المجتمـع الموحـد، فللفـرد حقـوق وللمجتمـع حقـوق يجـب حفظهـا مـن قبـل الفـرد والمجتمـع، وأداء الحق يحقـق العدالـة الاجتماعيـة، ويؤسـس للأمـة الفاضـلة الراقيـة إلى الكـمال، والتفـريط بـالحقوق يـؤدي إلى السـلطوية والتعسـف والتهـاون بالنـاس وخلـق الطبقيـة وانهيـار الاقتصـاد في المجتمـع والانحـراف عـن المنظومـة الدينيـة والقانونيـة، وتنـتج شـعباً مستضـعفاً تحكمه شريعـة الغـاب حيـث لا يبقـى أي مبـدأ خُلقـي أو قيمـة إنسـانية، وتسبب تبدد الثروات والفساد، وتحول المجتمع إلى الرذيلة.

إذن أداء الحقـوق مـن أبـرز صـفات الفضـيلة الاجتماعيـة التـي يجب التمسـك بهـا والتثقيـف عليهـا وعـدم التهـاون بمعاقبـة المقصـر في أداء أي حـقٍ، سـواء كـان ماديـاً أم معنويـاً، وهـي فكـرة بارعـة في حفـظ

الكيان الاجتماعي وتنمية قدراته وإنماء الثروات للأفراد والمجموع، وهي من مبادئ حقوق الإنسان التي اتفق العالم على احترامها وصيانتها، فعلى الحكومات حفظ حقوق الشعوب وعلى المجتمع حفظ حقوق الفرد، فالملكية حق طبيعي لكل إنسان أن يمارسه، ويحقق طموحاته بزيادة ملكيته، وكذلك من حق الحكومات تنمية مصادرها الاقتصادية وتوسيعها، وأما الحقوق المعنوية التي بين الأفراد أنفسهم أو بين الفرد وأسرته أو الفرد ومجتمعه فقد نظم الإسلام تلك العلاقات بأدق تفاصيلها، وجعل لك حقاً ملزم على الآخرين، لا يجوز مخالفته.

والتحبب إلى الناس قضية نفسية خُلقية، يؤكد عليها الإمام الحسن عليه السلام بالتقرب إلى الناس والتعاطف معهم وعدم التحامل عليهم والألفة معهم، يقول تعالى في وصف المؤمنين بأنهم ﴿رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، فالحب أفضل رابطة اجتماعية بين الناس، فالعلاقات المبنية على أساس الوازع الوجداني تكون قوية ومتينة، وهو مما يزيد قوة المجتمع وتآصره، وهذا ما عمل عليه رسول الله محمد صلى الله عليه وآله في نشر رسالته الإسلامية، حيث أزال جميع الفوارق الطبقية والاجتماعية، وجعلهم كياناً واحداً، وانتقل بهم من

الشتات والكراهية إلى الجماعة الصالحة المتحابة في الله، فالمؤمن الذي وهب قلبه وروحه لله تعالى قد خلص روحه من أدران الكراهية والبغضاء، فإذا تحابّ المجتمع فقد وصل إلى الفضيلة والكمال، وازداد وعيه بنفسه وبربه.

فقد ورد عن الإمام موسى بن جعفر عليه السلام **(التودد إلى الناس نصف العقل)**[1] وورد عن أمير المؤمنين عليه السلام **(الأرواح جنود مجندة، فما تشابه منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف)**[2] فالحب للناس فضيلة خلقية باعثة على الشفافية في التعامل مع بعضهم بصدق وإخلاص وتفانٍ وإيثار، فإذا تحقق هذا عاش الناس بسلام وألفة ومودة.

ونحن نرى التسلسل الذي اتبعه الإمام الحسن عليه السلام في سرد المعاني في تعريفه المروءة، فإنها مترابطة ترابطاً منطقياً، يتعلق كل جزء منها بما سبقه على نحو التكامل، وتكون بمجموعها معنى الإنسان الفاضل المتكامل، فمن حافَظَ على دينه عزت عليه نفسه، ومن عزت نفسه لان جانبه، ومن لان كنفه أخلص في عمله، وأدى

(١) الكافي الكليني، ٢: ٦٤٣.

(٢) جامع أحاديث الشيعة، البروجردي، ١٥: ٥١٥.

حقها وحقوق الناس، ومن أدى حقوق الناس أحبه الناس، وأحب هو الناس، سلسلة من الأفكار التنموية للفرد في طريق تكامله النفسي وتحسين علاقته بمجتمعه، تدل على الفكر الثاقب للإمام الحسن عليه السلام وعمق معرفته بالتفصيل الاجتماعي وكيفية دمج الناس وصهرهم ببودقة المودة والمحبة الإنسانية لينتج وحدة اجتماعية فاضلة.

أما عن الكرم الذي تميز به الإمام الحسن عليه السلام، واشتهر به حتى كني بكريم أهل البيت عليهم السلام فهي صفة اجتماعية مهمة إضافة إلى كونها صفة خُلقية وسمة ذاتية للإنسان؛ لأن الكرم يعني العطاء والبذل للمقابل الذي يشكو الحاجة والعسر في المعيشة، أي تدني الحالة الاقتصادية لديه وعدم حصوله على ما يكفيه، فإنه إما يبقى بمستوى معيشي لا يفي بمستلزمات الحياة الكريمة، أو ان يخرج عن النظام الديني والاجتماعي، ويتجه إلى الطرق غير السليمة للحصول على المال، وعندها سيفقد المجتمع عنصر العدالة والسلام والأمن وظهور الطبقية الاجتماعية وشياع الفقر والجريمة، وهذه من صفات المجتمع الطالح؛ لذا على كل فرد أن يكون حريصاً على القيام بمسؤوليته الخُلقية اتجاه المجتمع، فيعرف الإمام

الحسن عليه السلام الكرم بأنه (**الابتداء بالعطية قبل المسألة، وإطعام الطعام في المحل**)، إن الله تعالى خلق الإنسان كريماً، والإسلام حافظ على كرامته، وصانها، ويأبى ان يراق ماء وجه المؤمن، فشعوره بذلّ السؤال تجعل نفسه هينة عليه، وهذا ضعف فيه، والله يحب المؤمن القوي العزيز؛ ولذا حفظ كرامة المؤمن أمر غاية في الأهمية في حياة المجتمع الفاضل، فلا ينتظر أحد سؤال المقابل، بل عليه أن يبادر هو بالتفقد والعطاء، وهو حث من الإمام الحسن عليه السلام على التواصل الاجتماعي والسؤال عن أحوال الناس وتتبع ظروفهم ومعرفة احتياجاتهم ومداراة عفة الناس، فالمتعفف يصعب عليه السؤال إذا ضاقت به المعيشة، وهي أيضاً دعوة إلى تقوية العلاقة بين أفراد المجتمع.

إذن الكرم يحمل معنى اقتصادياً وأخلاقياً ونفسياً، فالكرم لا يتوفر إلا عند من صفت نفسه، وغلب هواه، وكان سالم الذات، فالعطاء والبذل للمقابل تدل على وصول المعطي إلى مرحلة الفضيلة والكمال النفسي، فالنفس الإنسانية ميالة إلى حب التملك وكنز الأموال، والكريم قد تجاوز هذه العقبة النفسية، وانتصر على غرائزه، فصار مؤهلاً لهذه الصفة الخُلقية العظيمة، والإطعام في

المحْل، أي في أيام القحط والإجداب وعدم توفر الغذاء، فمن واجب الفرد اتجاه مجتمعه مشاركتهم في معاشه لضمان عدم تلف حياتهم، فحفظ النوع الإنساني واجب على كل إنسان بغض النظر عن دينه أو لونه أو لغته أو انتماءه، إن إطعام الطعام كناية عن توفير ما يلزم لعيش الإنسان من غذاء ودواء وكل مستلزمات الحياة، وهي تجب على الفرد وعلى الجماعة وعلى الحكومات التي تدير شؤون البلد والتخطيط لتخزين الغذاء وتوزيعه على الشعب في الأزمات الاقتصادية التي تحل بالأمة، ولعل قصة نبي الله يوسف عليه السلام أوضح مثال على التخطيط الاقتصادي المحكم الذي أنقذ الناس من الهلاك والجوع.

ومصداق الكرم والعطاء، بل أصدق مصاديقه هم أهل بيت الرحمة عليهم السلام الذين يؤثرون على أنفسهم لإطعام غيرهم وحفظ كرامتهم من السؤال ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾ ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا﴾[1] وما اشتهر عن الأئمة عليهم السلام من حملهم الطعام ليلاً إلى بيوت الفقراء والمساكين أنموذج للكرم والجود والعطاء، فيوجز الإمام الحسن عليه السلام مشكلة

(١) الإنسان: ٨-٩.

الفقـر ومعالجتـه بإثـارة موضـوع الكـرم وتعريفـه بالعطـاء والإطعـام، وهو من المشكلات التي تناولها الفكر الاجتماعي، ونظّر لها.

ثـم يـذكر الإمـام الحسـن عليه السلام معنـى مضـاداً للكـرم الـذي تقـدم، وهـو الدنيئـة، حيـث يجيـب الإمـام الحسـن عليه السلام في بيـان معناهـا بأنهـا (**النظر في اليسـير ومنـع الحقـير**) وهـو صـفة ذميمـة عكـس كـرم الـنفس والعطـاء، فالبخـل مـرض اجتماعـي خطـير يـترك آثـاره عـلى أخـلاق المجتمـع وصـيغ تعاملـه، فيمنـع الخـير والإحسـان، ويضـيق عـلى أفـراد المجتمـع، ويكـدس الثـروة دون اسـتثمارها، فمـن دنـاءة الـنفس أن لا يوسـع الفـرد عـلى نفسـه وعيالـه ومقربيـه ومجتمعـه، وتكـون نظرتـه محـدودة، ولا تسـاعده نفسـه عـلى أن ينظـر في معيشـته بيسـر وسـعة، فيحرم نفسه ومن حوله ممـا أحـل الله لـه، فـلا يعطـي إلا النـزر اليسـير في مؤنة نفسـه وأسرتـه، ولا يمتـد نظـره إلى الفقـراء والمسـاكين مـن النـاس، يقـول أمـير المـؤمنين عـلي عليه السلام: (**البخيـل يعـيش في الـدنيا عـيش الفقـراء، ويحاسـب في الآخـرة حسـاب الأغنيـاء**)[1] في وصـف البخيـل وتعجبـه من حاله.

---

(١) نهج البلاغة، ٤: ٣٠، خ١٢٦.

إن وصف دناءة النفس هو من أسوأ الأوصاف التي تتصف بها النفس البشرية، والإمام الحسن عليه السلام يضع هذه الصفة القبيحة في دائرة الرذيلة، ويذكرها في سياق ذكر الكرم للمقارنة بين الصفتين وما تمثله كل منهما من صفات الفرد الإيجابية والسلبية في الحياة العامة.

ومن الصفات النفسية التي يحذر منها الإمام الحسن عليه السلام أيضاً هي صفة اللؤم بقوله (**قلة الندى وأن ينطق بالخنى**) واللؤم هو شحة النفس وحقارة الأصل، ومن كان بهذه الصفة فلا يصدر منه إلا ما يلائم مستواه النفسي من قول أو سلوك، فلا يتوقع منه الكرم والجود وإعمال الخير؛ لأنه قد اتخذ الطرف الآخر والجانب الموازي لصفات الفضل والشرف والعزة، فيكون قد حكم على نفسه بدنو المرتبة في التدرج الإنساني وقلة الحظ في الاحترام من الناس، وقد حصر نفسه في زاوية ضيقة، لا يرى فيها إلا نفسه المريضة التي أبت الانسجام مع أبناء جلدته والعيش معهم على قواعد الأنس البشري والتعايش الودي، فلا يعطي إلا القليل، ولا يرجو الخير إلا لنفسه، ولا يستكمل الفضل لعدم امتلاكه أدوات الترقي الخُلقي في علاقاته مع أفراد مجتمعه، ولا يمكنه التعاطي في الكلام الطيب

المهذب، بل سيعكس لسانه مرضه القلبي وتخلفه الذاتي، فيستخدم لغة الفحش من القول والألفاظ الجارحة لكرامة الآخرين من دون مراعاة لدين أو خلق أو أدب اجتماعي، فهو فرد يوضع في الطرف الضد من الفرد الفاضل تماماً، بل هو مسلوب الفضيلة حقاً، فيخرج بهذا من المنظومة الاجتماعية التي تعتمد الأقوال والأفعال الفاضلة اساساً لبنائها ورفع أعمدة مدينتها الفاضلة؛ لأنها سالبة بانتفاء الموضوع، بل إنه سيكون عنصراً فاسداً من شأنه افساد أي بناء صحيح ونخر قواعده، فيجب الحذر منه وإبعاده من دائرة الجماعة الصالحة ونبذه أو إصلاحه وتصحيح مساره.

قيل فما السماح؟ قال: (**البذل في السراء والضراء**) من خلق الإنسان وشرفه وفضيلته الكرم والجود مما يطبع النفس بطابع السماحة والمرونة في التعاطي مع الآخر، وهي من صفات المروءة في الإنسان، قال الإمام الصادق عليه السلام (**خياركم سمحاؤكم**)[1] (**وسمح لي، أي أعطاني**)[2]، إن السماحة هي بذل الكريم وإعطاؤه وجوده للناس، وهي صفة محببة للنفس ومقومة للذات، لا تقتصر على

(١) جامع أحاديث الشيعة، البروجردي، ١٣: ٦٠٢.

(٢) مجمع البحرين، الطريحي، ٢: ٤١٥.

وقت السراء فقط، بل إن السمح الكريم يبذل في وقت السراء والضراء، سواء كان الباذل موسراً أم معسراً، وسواء كان المجتمع في بحبوحة من عيشه أم في ضيق وقحط، فإن فضيلة السماحة مرتكزة في نفس الباذل وملكة نفسانية فيه، فلا تختلف، ولا تتخلف.

والشح يعرفه الإمام الحسن عليه السلام **(أن ترى ما في يديك شرفاً، وما أنفقته تلفاً)** حيث يذكر الإمام الحسن عليه السلام الأضداد من الصفات الصالحة والطالحة، فمقابل السماحة الصفة الفاضلة، وهي الشح الصفة الذميمة، وهو تمييز بين طبيعة مجتمعين، مجتمع الفضيلة والكمال ومجتمع الرذيلة والفساد، فبعد ذكر الملامح الإيجابية للسماح ومردوده البناء في الجماعة الصالحة يذكر بعدها ومباشرة الشح وانعكاساته النفسية والجماعية السلبية للمقارنة بين الحالتين.

والشح حالة نفسانية تقتضي منع الإنسان ما في يده على الآخرين وعلى نفسه؛ ولذا وصفها الإمام الحسن عليه السلام بأن الشحيح يرى ما في يديه شرفاً لبواعث نفسانية مريضة، فسُوِّل له أن ما يدخل في ملكيته وثروته هو شرف وعلياء وسمو له معتقداً أن ما يحدد شرفية الإنسان هو بقدر ما يملكه لا ما ينفقه، فهو واقع في شبهة

وجهل مركب يشير إليه الإمام الحسن عليه السلام في هذا المقطع مستنكراً إياه بدليل المقطع الثاني، وهو أن ما ينفقه الشحيح يراه في دواخل نفسه أنه إتلاف للمال وإقلال من شرفتيه، فهو يأخذ الأمور بمنظار معاكس للحقيقة.

ثم ينتقل الإمام الحسن عليه السلام في معرض المقارنة بين الصفات الصالحة والصفات الطالحة إلى إيجابية أخرى للمجتمع، وهي مهمة جداً في تركيبة أي مجتمع، وهي صفة (الإخاء)، حيث يقول: **(الإخاء في الشدة والرخاء)**، إن من أروع العلاقات الاجتماعية علاقة الأخوة، سواء كانت النسبية أو السببية وكيفية اكتساب الإخوان والحفاظ عليهم، فمن أفضل المكاسب في حياة الإنسان الأخ المخلص الذي يتخذه الفرد لا على أساس المصلحة، بل من مبدأ الحب والمودة والصفات الحسنة التي يحملها وصدقه وأمانته، فمن توافر على تلك الصفات المميزة أصبح قريناً للنفس ومشاركاً له في مسيرة الحياة القائمة على قواعد وقوانين الخير والصلاح والمحبة.

لكن الإخاء الحقيقي في مطلب الإمام الحسن عليه السلام لا يرتكز في حالة معينة أو زمان محدد، بل هي حالة ممتدة طيلة فترة وجودهم

وجميع فترات معاشهم التي قد تمر بظروف شديدة أو رخاء، فالأخ الحقيقي يبقى على منوال واحد من التعامل، سواء كان في حالة الشدة أم الرخاء من تقديم العون والنصيحة والمساعدة لأخيه، وأن يكون صادقاً معه شفافاً في تعامله، فمن تخلف عن أخيه في حالة الشدة فهذا يعني أن العلاقة الأخوية غير متكاملة وناقصة، ولا تحمل معنى الأخوة بما هي، وهو تعبير جميل وفيه من الرقي الاجتماعي ما يرفع ذلك المجتمع الذي يتجلى بهذه الروح إلى مصافّ الكمال والفضل والعزة والشرفية، ويؤهله للعيش بأمان وسعادة، وهي غاية أي مجتمع، فقد ورد عن أمير المؤمنين علي عليه السلام (**رب أخ لك لم تلده أمك**)[1] وقد عُني كثيراً أهل البيت عليهم السلام في أدبياتهم بمعنى الأخوة وصفاتها ومعيارها وصفاتها، والإمام الحسن عليه السلام قد أشار إلى هذا المصطلح للتأكيد على أثره في الحياة الاجتماعية وما تمتنه تلك العلاقة من أواصر القوة الاجتماعية.

ثم يرجع الإمام الحسن عليه السلام إلى ذكر صفة طالحة لاجتناب الجماعة الصالحة منها، وهي صفة (الجبن)، إذ يصفها الإمام

---

(١) عيون الحكم والمواعظ، الليثي الواسطي، ص٣٦٧.

الحسن عليه السلام بقوله: (**الجرأة على الصديق والنكول من العدو**)، فهذه صفة مغايرة للصفة السابقة تماماً، وهي الإخاء فبقدر ما يوصي الإمام الحسن عليه السلام، ويؤكد معنى الأخوة الإيمانية يؤكد في الوقت نفسه على عدم خيانة الصديق والوفاء له، فإن من أشنع الأعمال هو التخلي عن الأخ الصديق والتجرؤ عليه وتعدي حدود الصداقة المؤسسة على الاحترام المتبادل والإخلاص له، حيث إن العلاقة مع الصديق -إضافة إلى أنها علاقة روحية- فهي علاقة تعاملية يخوضها الأفراد مع بعضهم وترويج أسلوب العلاقات التخادمية لا من إجل المصالح الخاصة الضيقة، بل لأجل ذلك المعنى الكبير والجميل في الصداقة، وهي تدل بمضمونها على الشخصية الشجاعة للفرد.

والجبن له معانٍ عديدة، ولكن الإمام الحسن عليه السلام اختار عبارتين غاية في الروعة والرقي الفكري، بتمثيل نموذجين هما الصديق والعدو، فموافاة الصديق هي من سمو نفس الإنسان وشجاعته والاعتداء عليه والتجرؤ على تلك العلاقة هي في منتهى الجبن للفرد، فمن يقع في مشكلة يقوقع النصرة من الصديق، فإذا

أخلف معه فلا تبقى أي قيمة أخلاقية أو معنوية لهذه العلاقة الاجتماعية التي هي من المتوقع أن تكون في صدد التلاحم والتكاتف في صد أي اعتداء عليه أو على المجتمع، فمن يتخلف عن نصرته، وينكل على العدو فقد صنع ثغرة للتدخل الخارجي وتفكيك المجتمع، فهو من ضعف النفس وعدم مصداقيتها في الحفاظ على الأمن المجتمعي وسلامة الناس الذين تربطه معهم عناصر العقيدة والإنسانية والتعاقد الاجتماعي في العيش بروابط الاخوة والمصير المشترك والمسؤولية في الحقوق والواجبات.

ثم يتطرق الإمام الحسن عليه السلام إلى مفردة جديدة، لها وجود قوي في الأوساط الاجتماعية والاقتصادية، وهي (الغنى)، فيقول الإمام الحسن عليه السلام **(الغنى هو رضا النفس بما قسم لها وإن قل)** فهذا إيجاز في القول وسعة في المعنى كبير، لا يقف عند حدود الثروة المالية، بل هو في حقيقته غنى النفس، فلو أن النفس مريضة وشحيحة، فمهما كان الفرد يملك من مال فإنه يراه قليلاً، وتبقى النفس غير قانعة بما لديها، أما صاحب النفس الكبيرة والقنوعة بقسم الله بما أعطى، فإنها ترى القليل من المال ثروة كبيرة، فالمقياس الحقيقي هو الرضا بإرادة الله والتسليم لقدرته.

فكم من غني بثروته يبقى فقيراً في نفسه، وكم من فقير بثروته هو غني وسعيد بالقليل الذي عنده، فعدم القناعة يسبب الطمع والجشع للفرد وما يسببه من آثار اجتماعية سيئة وضارة وأيضاً يتسبب في المبغوضية للشارع المقدس.

أما الفقر الذي عرفه الإمام الحسن عليه السلام بأنه (**شره النفس إلى كل شيء**) يأتي مكملاً لتعريف الغنى، فالفقر النفسي يدفع الفرد الإنساني إلى عدم القبول والرضا بما قسم الله له، بل إنه يجنح إلى المساوئ من الأفعال لإشباع رغباته وغرائزه النفسية.

إن حكمة الله تقتضي العدل والمساواة واحترام الحقوق، وأي تجاوز عليها هو نكول لإرادة الله والعقد الاجتماعي الذي يفرضه الواقع الإنساني، فالفقر الحقيقي ليس هو قلة المال، بل هو فقر النفس لكفايتها من المال، فمن أطلق العنان لنفسه في حب التملك فإن النفس ستجمع في طلبها للدنيا، وتكسر كل القيود المفروضة عليها لتجنب الظلم والفساد، فتصبح شرهة لطلب كل شيء من حولها، ولا تستكفي؛ لأن الطمع والجشع سوف يسيطر عليها، يقول الإمام أبو جعفر الباقر عليه السلام: (**بئس العبد عبد يكون له**

طمع يقوده، وبئس العبد عبد له رغبة تذله)[١]، إن الفقر النفسي يؤدي إلى إذلال الفرد وتنكيسه في مراتب الآدميين واحتقاره اجتماعياً، ويكون سبباً في إشاعة الظلم والفساد والتعدي على حقوق الناس لتحصيل مبتغاه وإرضاء نفسه على حساب الآخرين، وهو منتهى الظلم للنفس وفقرها، وهو تعبير دقيق وواقعي لحالات الفساد الاجتماعي التي تصيب ذوي النفوس الضعيفة.

إذن الفقر والغنى يرجع إلى امتلاك النفس لزمام أمورها وقناعتها بما قسم لها ربها، والتعامل على هذا الأساس يضع المجتمع في وضع استقرار في علاقاته، يقول تعالى ﴿**ٱلشَّيۡطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلۡفَقۡرَ وَيَأۡمُرُكُم بِٱلۡفَحۡشَآءِۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغۡفِرَةً مِّنۡهُ وَفَضۡلٗاۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ**﴾[٢]، إن ميعاد الله تعالى يوحي بأن القضية المعنوية هي المرادة، وليس المادية وإبعاد الشيطان بالفقر هو الفقر النفسي، إذ إن من يتبع شهواته، ويتبع خطوات الشيطان فإنه سوف لن يحصل له الغنى مهما فعل من المنكرات والفحشاء للحصول على غايته.

---

(١) وسائل الشيعة، الحر العاملي، ١١: ٢٤٣٢١.

(٢) البقرة: ٢٦٨.

قيل له: فما الجود؟ قال: (**بذل المجهود**)، من كان ذا نفسٍ عالية وأخلاق سامية لا يرى نفسه إلا ضمن الجماعة، يعيش معهم بوحدة واحدة، فيجود بكل ما لديه لخدمة مجتمعه، وهذا هو المعنى الأصيل للجود حينما يعرفه الإمام الحسن عليه السلام، فالبذل صفة نفسانية تحث الفرد وتدفعه للعمل الخارجي للعطاء المادي والمعنوي بما يستطيع وبما تؤهله إمكاناته لمساعدة الناس وتوفير احتياجاتهم، سواء كان الباذل موسراً أم معسراً.

فالجود من أعظم سمات النفس الفاضلة المعطاء من غير انتظار الطلب أو رد العطاء.

أما الكرم فيصطلح عليه الإمام الحسن عليه السلام بأنه (**الحفاظ في الشدة والرخاء**)، فإن الكرم يشمل كرم الأخلاق وكرم الأقوال وكرم العطاء وكرم السلوك الجيد النافع للآخرين فمن كرم المرء حفاظه على دينه وأعرافه الاجتماعية الصحيحة والدفاع عن الحق والخير والذب عن المحارم والمقدسات والقيم الدينية والأخلاقية والإنسانية والالتزام بالعهود والمواثيق اتجاه مجتمعه وعشيرته وأسرته والوفاء لهم ولكل من ائتمنه على عرضه أو ماله أو نفسه

والمنعة عن وطنه وكيانه البشري الاجتماعي والتمسك بالمودة والمحبة للناس بصدق وإخلاص والبذل لهم على أساس المشتركات الإنسانية والدينية ومبادئ التعايش السلمي المحترم لطبقات المجتمع من غير تمييز، والحفاظ على ارتكاز المفاهيم الإنسانية والخُلقية عند الفرد في جميع أحواله، سواء في حال الشدة أم في حال رخائه دون التغير والتبدل في العلاقة الاجتماعية، وهذا دليل اكتمال الإنسان ونضوجه العقلي والنفسي والخُلقي.

نرى أن الإمام الحسن عليه السلام يوجه موضوع الكرم والجود، يوظفه للعمل الجماعي وخدمة المصالح العامة للمجتمع، وهو قمة في التربية الاجتماعية والفكر السياسي الاجتماعي الذي يسعى لتقوية العلاقات الاجتماعية وخلق بيئة صالحة للتعايش بين الناس بمختلف انتماءاتهم الفكرية ومعتقداتهم الدينية.

وفي جواب الإمام الحسن عليه السلام عن الجرأة، قال: (**موافقة الإخوان**) إن الأخوة لها مكانة في نفوس الناس ومشاعرهم العاطفية، فجاذبية الإنسان لأخيه الإنسان فطرية إلا من خالف فطرته، وتنكر لجبلته التي جبل عليها، فضاعت عنده مقاييسها،

وتاهت معاييرها، فسلب التوفيق لصونها والحفاظ عليها، فمن يقف موقفاً سلبياً من أخيه أو إخوانه ساعة الشدة في المعركة أو في حرب للدفاع عن الحقوق أو لدرء أي خطر اجتماعي قد يلم بالأمة أو بالفرد، فإنها تكون من أكثر المواقف حرجاً وتعسفاً للرابطة الأخوية، وهي تجرؤ صريح وواضح على المبادئ الخلقية والقيم الإنسانية التي تجمع أفراد المجتمع في علاقات صميمية وفعالة في أجواء العيش المشترك وفضاء المعشر الإنساني القائم والمنعقد لحماية بعضهم البعض في النوائب وحفظ أمنهم وسلامتهم، فيكون قد أخل بالعقد الاجتماعي، وتخلى عن مسؤوليته التكافلية ضمن المجتمع، والجرأة ستكون على الله تعالى لمخالفة أوامره التشريعية والخُلقية في النظام الديني وجرأة على الناس ومحيطه الإنساني في النظام الاجتماعي، وهي من الصفات الطالحة والجاهلة للفرد اتجاه جماعته أو للمجموعة اتجاه الأمة.

أما المنعة -وهي ضد معنى الجرأة المذكور- يعرفها الإمام الحسن عليه السلام بأنها: (**شدة البأس ومنازعة أعز الناس**) أي أن من عزة الإنسان وقوته الذاتية التي منحها إياه الله تعالى من أجل استثمارها

للدفاع عن نفسه وعن أمته والتي تتمثل بقوة الإيمان والعقيدة بقضيته، فتعطيه زخماً معنوياً، وتبعث فيه القوة الجسمانية كما كان أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام الذي كان ذا منعة عن الإسلام والمسلمين، فتميز بقوته الجسمانية الخارقة للعادة بسبب قوة إيمانه وعقيدته بدينه دين الحق والذي كان يقول (**والله ما قلعت باب خيبر بقوة جسدية ولا بحركة غذائية، ولكني أيدت بقوة ملكوتية ونفس بنور ربها مضية**)[1].

فالقوة الإيمانية بالله وبرسالته الحقة هي التي تحفز المرء جسدياً ونفسياً للذب عن الحرمات والدفاع عن المقدسات، وهكذا كان أهل البيت عليهم السلام جميعاً اتصفوا بالشجاعة والقوة والعزة لنصرة الإسلام، وكانوا شديدي البأس أعزة على الكافرين رحماء بالمؤمنين، وهو المراد من تعريف الإمام الحسن عليه السلام للمنعة بأن يكون المؤمن ذا منعة عن دينه وعن الحق وعزيزاً على الكافرين المخالفين لدين الله عز وجل، يقول تعالى ﴿**يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى**

(١) الامالي، الصدوق، ٣٠٧.

ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾[1].

إذن المنعة هي الدفاع عن الحقوق الإلهية والدنيوية بقوة وبعزة ولو كان المقابل شديداً وذا قوة وبأس، فإن الواجب يحتم عليه حفظ مجتمعه والذود عنهم ومنع أي خطر أو ضرر أن يصيبهم، وهي دعوة من الإمام الحسن عليه السلام لتحميل الفرد المسؤولية في الدفاع عن كيانه الاجتماعي بجميع خصوصياته وتفاصيله، وهي أبرز مبدأ اجتماعي يتعلق بأمنهم وسلامتهم.

قيل: فما الذل؟ قال: (**الفرق عند المصدوقة**) أي أن من الذل والهوان والانتكاس أن يصاب المرء بالخوف والهلع في المواقف التي تظهر مصداقيته في عقيدته وانتماءه الديني والاجتماعي، فمن كان صادقاً مع نفسه ومع مجتمعه يكون واثقاً من جميع أقواله وافعاله، ولا يتخاذل في المواقف التي تتطلب منه الرأي السديد والفعل الشجاع، فإنها من أسباب عزة الفرد، وبخلافها يكون قد أسلم نفسه لمخاوفها؛ لأنها لم تكتمل لتصل إلى مرحلة الاستقرار الذاتي،

---

(١) المائدة: ٥٤.

وبالتالي شعورها بشرفيتها وكرامتها، فتكون ذليلة خانعة في أي مواجهة اجتماعية.

قيل: فما الخرق؟ قال: **(مناواتك أميرك ومن يقدر على ضرك)** الخُرق بضم الخاء الحُمق، وخَرُقَ بالشيء جهله، ولم يحسن عمله.

يشير الإمام الحسن عليه السلام في هذا المقطع إلى قضية اجتماعية بارزة تسمى في الفقه (التقية) واجتماعياً (المداراة).

فمن كان يعلم بإمكاناته المحدودة التي لا يستطيع بها مجابهة السلطان الجائر الظالم فعليه تجنبه وعدم مواجهته؛ لأنه سيكون خاسراً حتماً، وسيعرض نفسه ومن حوله إلى الأذى والضرر الحتمي، والإمام الحسن عليه السلام يصف تلك المعاداة بالخُرق؛ لأن حفظ النفس والآخرين أولوية كما صنع أئمتنا عليهم السلام من تجنب الاصطدام مع حكام عصرهم لعلمهم بما يجر ذلك من سفك الدماء وهتك الأعراض، ولعل أوضح مثال لذلك ما صنعه الإمام الحسن عليه السلام في الصلح مع معاوية وحفظه دم المسلمين من الإراقة لقدرة المقابل على ذلك بسبب ضعف جانب الإمام الحسن عليه السلام من قبل أتباعه الذين تفرقت أهواؤهم، واختلفت اتجاهاتهم، فليس الضعف في

الإمام الحسن عليه السلام ولا القوة في معاوية بل الظروف التي أحاطت بهما ومنهج كل منهما، فمنهج الإمام الحسن عليه السلام هو التسامح والسلام وحفظ الدين ودماء المسلمين، ومنهج معاوية القتل والكذب والنفاق والمكر وعدم المصداقية، فلا يتورع عن فعل أي شيء للحصول على الحكم، فعالج الإمام الحسن عليه السلام هذه القضية بالحكمة ومنتهى العقلانية التي جردت معاوية وعرته من كل الأكاذيب التي كان يخدع بها المسلمين وادعائه للإسلام وعمله بالنظام الإسلامي، ففضح الإمام الحسن عليه السلام بتلك الخطوة مخطط معاوية الأموي، وبقي الإمام الحسن عليه السلام إماماً للمسلمين، وترك لمعاوية الملك الذي أفناه، وأفنى النظام والفكر الأموي، لم تكن حركة الإمام الحسن عليه السلام حركة سياسية فقط، بل هي حركة اجتماعية، أعطى بها درساً للناس في صفات الرئاسة وما يجب أن يكون عليه الحاكم وطريقة التعامل مع الرعايا ووجوب اتباع الإمام أو الرئيس من قبل الأمة وعدم مخالفته.

ثم قال له الإمام علي عليه السلام: فما السناء؟ قال: (**إتيان الجميل وترك القبيح**) من أسباب رفعة الإنسان وعلو شأنه وسمو نفسه

ونضوج عقله ومحبة الناس له واحترامهم لشخصه ترفعه عن القبائح التي تفسد النفس، وتغير الطبع، وتنفي المروءة، وتحرف الرأي، وتذل الفرد، فعلى الإنسان الذي يريد أن يربي نفسه على الفضائل وإكمال شخصيته المعنوية، عليه إثبات كل فعل أو قول جميل، فيه خدمة لمجتمعه وترك كل ما يستقبح من سلوك أو قول، يفرق بين الجماعة، ويخرب العلاقة الاجتماعية، فمن توطن على هذا المنهاج فإنه سترتفع مكانته بين قومه وفي نفسه، وهي تربية اجتماعية للناس تدور في إطار الأخلاق الاجتماعية وصناعة فرد فاضل وقدوة إنسانية لتحفيز الآخرين على السلوك نفسه.

أما الحزم فيقول الإمام الحسن عليه السلام هو: (**طول الأناة والرفق بالولاة والاحتراس من جميع الناس**)، فالحزم هو شدة الانضباط والإتقان في الأمور، فالشخص الحازم من كان واثقاً من نفسه عاقلاً في رأيه ومنضبطاً في أفعاله ومتزناً في شخصيته.

ويصف الإمام الحسن عليه السلام الحزم بعدة صفات منها طول الأناة، أي من كان حليماً في أمره سوياً وقوراً ذا حكمة في التعامل مع الآخرين والحفاظ على علاقاته مع الناس والرفق بالولاة، أي أن

يكـون حـذراً متقيـاً في علاقتـه مـع الحـاكم والمسـؤول عـن إدارة شـؤون الدولـة لضـمان عـدم التنكيـل بـالمجتمع، واتقـاء شره إن كـان ظالمـاً ومجاراته إن كان خـيراً، والاحـتراس مـن جميـع النـاس بمعنـى أن يكـون الفـرد عـلى حيطـة في تعاملـه وعلاقاتـه الاجتماعيـة والحفـاظ عـلى مشـاعرهم وخصوصـياتهم والحفـاظ عـلى أسرارهـم وعـدم نقـل الأخبـار الكاذبـة أو غـير المتـيقن مـن صـحتها؛ لـئلا يقـع في حـرج أو يوقـع غـيره في إحـراج اجتماعـي، فـالحرص والاحـتراس في مـداراة النـاس وعـدم إشـاعة الفاحشـة وقـول الـزور والأفعـال السـيئة وحفـظ الكيان الاجتماعـي مـن أي هـزة قـد تـؤدي بنظامـه الخُلقـي والسـلوكي، وأن لا يجامـل عـلى حسـاب المصـلحة العامـة، ويكـون متجنبـاً للشخصـية الاجتماعيـة والمـؤثرة في تفاصـيل حيـاة النـاس، إن الاسـتقامة في التعامـل والانضـباط النفسـي ومماشـاة المجتمـع بإتقـان وروية تضفي صفة الحزم على الفرد والمجتمع.

قيل: وما الشرف؟ قال: (**موافقة الإخوان وحفظ الجيران**).

مـن أنبـل العلاقـات الاجتماعيـة العلاقـات المبنيـة عـلى أسـاس المحبـة والمـودة والتكـريم والاحـترام المتبـادل بـين الأفـراد مـن دون أي

مصلحة شخصية من ورائها والانسجام مع جميع فئات المجتمع حتى يكون المجتمع كله كالأسرة الواحدة يحمل كل شخص هم الجميع، ويعيش معاناتهم، يفرح لفرحهم، ويحزن لحزنهم، ويتعايش معهم تعايش الجسد الواحد، فإذا اعتل عضو منه تداعى سائر الجسد بالمرض والحمى، قال رسول الله صلى الله عليه وآله: (**إنما المؤمنون في تراحمهم وتعاطفهم بمنزلة الجسد الواحد، إذا اشتكى منه عضو واحد تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر**)[1].

هكذا يجب أن تكون العلاقة الاجتماعية كما وصفها رسول الله صلى الله عليه وآله، وأيضاً حفظ حقوق الجار والذي يعد أقرب شريحة اجتماعية ضمن العلاقات الاجتماعية، وحفظه والدفاع عنه والتزام واجباته أمر مهم لاستقامة الحياة المعيشية، فالجار هو الأقرب لكل فرد، فإذا لم يحفظه فمن باب أولى أن لا يحفظ، ولا يرعى الحقوق الاجتماعية الأخرى لباقي الشرائح والفئات، وصون تلك العلاقات مع الإخوان والجيران هي السلم للصعود إلى مراتب الشرف الإنساني، وربط الإمام الحسن عليه السلام للشرف بتلك العلاقات الاجتماعية هو

---

(١) مستدرك سفينة البحار، علي النمازي، ١: ٦٧.

تأكيد منه على أهمية البيئة الاجتماعية الصالحة التي تصنع أفراداً صالحين همهم المصلحة العامة، وليس المصلحة الخاصة.

وفي الحرمان يطرح الإمام الحسن عليه السلام مفهوماً لطيفاً وواقعياً للغاية، يتناسب مع طبيعة الفرد والحياة العامة وكيفية استثمار أي فرصة تعرض على الإنسان لتطوير نفسه وصناعة شخصيته العلمية والعملية وتطوير قدراته الذاتية باقتناص ما يعرض على الفرد من فرص بالإمكان أن تغير من حياته، وتزيد من ثرواته المعنوية والمادية، فيقول الإمام الحسن عليه السلام في تعريف الحرمان أنه:

(تركك حظك، وقد عرض عليك) تعبير دقيق جداً وجميل في واقعية الحياة، ويقصد بالحظ هنا فرص الحياة التي تعرض على الإنسان واستثمارها في الوقت المناسب، وإلا فإن الفرصة إذا فاتت فإنها لا ترجع، يقول الإمام علي عليه السلام **(الفرصة تمر مر السحاب، فانتهزوا فرص الخير)**[1] إن كلام أهل البيت عليهم السلام يفسر بعضه بعضاً وقول الإمام الحسن عليه السلام مكمل لقول أبيه عليه السلام، فالحرمان الحقيقي هو تفويت فرص الخير وعدم انتهازها لفعل الخير للمجتمع ولنفسه.

---

(١) نهج البلاغة، ج٤: ٦.

وفي السفه يقول الإمام الحسن عليه السلام **(اتباع الدناة ومصاحبة الغواة)** إن اختيار الصاحب في العلاقات الاجتماعية مهم للغاية، فإما أن يرفع مستوى الفرد أو يهبط به إلى أدنى مستوى، فالعاقل من يحسن اختيار صاحبه، والسفيه الذي يتخلى عن عقله وحكمته، فإنه يصاحب من يجره إلى الدناءة والغواية، وبها الخسران وإفساد النفس والعيش في شريحة اجتماعية لا تحمل قيم الإنسانية والدين القويم المرشد إلى طريق الحق والصواب والرفعة والشرف.

يعرف الإمام الحسن عليه السلام (العيّ) بأنه:

(العبث باللحية وكثرة التنحنح عند المنطق) العي هو الإحصار عن النطق والكلام، وهو خلاف البيان، والعي عجز يلحق من تولى الأمر والكلام[1]، هنا يتطرق الإمام الحسن عليه السلام إلى بعض المشاكل الاجتماعية التي تصيب الأفراد أثناء الحديث والمحاورات والنقاشات في عدم الاستطاعة من النطق والكلام، فيعطي لذلك علامات، منها العبث باللحية وكثرة التنحنح، وهو تشخيص نفسي سايكلوجي للتأثيرات النفسية على بعض حركات

---

(١) تاج العروس، الزبيدي، ١٩: ٧١٦.

الجسد وهي بحد ذاتها علم يجب أن يخصص له باب في البحث والتحليل، ولكن الإمام الحسن عليه السلام يذكرها بقول بسيط، يسهل فهمه والتعامل معه، فمن رأى شخصاً يريد الكلام، وبدأ بالعبث بلحيته والتنحنح، فيعلم أنه غير قادر على الحديث، فلا يسبب له الإحراج بالإلحاح عليه وإعفائه من الكلام لكي لا يقع في حرج واستحياء أو أن بعضهم يريد إظهار نفسه بدور العارف المتكلم، وهو خلاف طبعه، فإن هذه الحركات ستفضحه، وتكشف أمره للمقابل.

وهذا تشخيص عجيب وغريب من الإمام الحسن عليه السلام في قراءة سلوك المقابل كي يحسن التعامل معه ضمن مواقف الحياة العديدة.

وعن الشجاعة يقول الإمام الحسن عليه السلام إنها:

(موافقة الأقران والصبر عند الطعان)، الشجاعة تختلف عن التهور، فالتهور هو القوة بلا رأي أو عقلانية في التصرف، بينما الشجاعة هي القوة المتصفة بالعقلانية والتسديد بالرأي وعدم الاستبداد بالرأي للفرد إن كان ضمن الجماعة؛ ولذا عبر الإمام الحسن عليه السلام عن الشجاعة بأنها موافقة الأقران، أي الجماعة الصالحة في توجيه قوته والصبر عند المواجهة والتعامل بحكمة مع المواقف

الخطـرة في الـدفاع عـن الـنفس أو عـن الجماعـة عنـد تعرضـها للخطـر الخارجي.

وفي الكلفة يقول الإمام الحسن عليه السلام إنها:

(كلامك فيما لا يعنيك).

وهي مـن الآداب الاجتماعيـة التـي يـوصي بهـا الإمـام الحسـن عليه السلام؛ لأن الكلمـة الصـادرة مـن الفـرد لهـا قيمتهـا في التعامـل مـع الآخـرين وطبيعـة العلاقـة معهـم، فـبعض الكـلام قـد يكـون جارحـاً للمقابـل أو يكون زائداً عـن الحاجـة، فيعطـي مفعـولاً عكسـياً إذا كـان لـيس طرفـاً في الحـديث أو أن الأمـر لا يعنيـه، فإنـه مـن التكلـف ان يضـع الإنسـان نفسـه في مثـل هـذه المواقـف، فتقلـل مـن شـأنه الاجتماعـي واحـترام الآخـرين لـه، فعليـه أن يلتـزم الحـذر في كلامـه، ولا يـتكلم إلا إذا كـان الكلام موجهاً إليه وأن يتحدث على قدر الفائدة من كلامه.

وفي آخـر كـلام الإمـام الحسـن عليه السلام في رده عـلى الأسـئلة التـي وجههـا لـه الإمـام عـلي عليه السلام لـه، يقـول ايـن التعريـف السـفاه واللـؤم فالسفاه هو الأحمـق في مالـه، المتهـاون بعرضـه، واللـؤم هـو إحـراز المـرء نفسـه وإسـلامه عرسـه، وهمـا مـن الصـفات الخبيثـة والرذيلـة التـي يعارضها الإسـلام والفطـرة الإنسـانية، وهمـا مـن صـفات السـلب التـي

تعرقل مسيرة الإنسان نحو الفضيلة والاكتمال الذاتي، فملكية الإنسان التي وهبها الله تعالى له، وجعله مسؤولاً عنها يجب أن يعرف كيف يتصرف بها، ويضعها في موضعها المناسب، فالسفيه هو المسرف والمبذر لماله دون تخطيط أو مناسبة معقولة، فيفضي إلى ضياع ثروته في غير وجوه الحق، وكذلك يكون متهاوناً في عرضه، سواء كان ملكية خاصة كالأرض والبناء والزراعة وغيرها من الأرباح، ولا يراعيها، أو يشرف عليها، فيكون مصيرها النفاد والخسران، وهي تدل على سفاهة الرأي وقلة العقل، والإمام الحسن عليه السلام يحذر من هذا السلوك المشين في المجتمع.

واللؤم تلك الصفة النفسانية المانعة من عمل الخير وروح الجماعة، وتجذر روح الفردية والأنانية وعدم الشعور بالمسؤولية، وبالتالي الظلم الاجتماعي الذي سيلحقه ذلك الفرد والإفساد في العلاقات مع أقرانه وأصحابه وأسرته وعشيرته.

هذه كانت مجموعة من الأفكار التي طرحها الإمام الحسن عليه السلام، والمتأمل فيها سيجد كماً هائلاً من الإصلاحات الاجتماعية إذا طبق منهاجها للأمة، سواء كانت الإسلامية أو الإنسانية، فلا يقتصر

كلام الإمام الحسن عليه السلام على مجموعة ضيقة من الأفراد أو شريحة معينة أو دين أو مذهب، بل هي أفكار عامة تنسجم مع الطبيعة والفطرة الإنسانية المجردة، وهذا هو دأب وديدن أهل بيت العصمة عليهم السلام في كلماتهم وأقوالهم في الدين والنظام الاجتماعي، فهم خلفاء الله على الأرض وأولياؤه على الناس جميعاً، وروحهم الابوية التي تعاملوا بها مع الناس شملت الجميع ودون تفرقة بدين أو لون أو قومية أو انتماء أيٍّ كان، فصاروا قدوة للبشر، واستشهد بكلامهم من قبل جميع الأقوام والأديان لما وجدوا فيه من حكمة وعقلانية وإنسانية وتربية خُلقية وسلوكية لكل من يبحث عن الفضيلة والتكامل الإنساني.

وصايا الإمام الحسن عليه السلام الاجتماعية:

انتهج الإمام الحسن عليه السلام عدة طرق لتثقيف المجتمع على الخصال والصفات والوظائف الخيرة والفاضلة، فالتنويع بالأساليب يعطي مرونة أكثر في التعامل وقبول من الآخر، فقناعات البشر مختلفة، وأهوائهم متعددة، فلا بد من تمرين المجتمع بأكثر من حالة كي يتسنى له المعرفة الكاملة كما هو منهج

القرآن الكريم في تنوع المعارف الإنسانية في مجالات الحياة العديدة وتربية الإنسان على أكثر من صعيد وبأكثر من أسلوب؛ لأن الإسلام هو دين الإنسانية جمعاء، لا يتوقف عند حدود المجتمع الإسلامي فقط، فنصح الجماعة تارة يكون عن طريق الإرشاد والموعظة، وأخرى عن طريق السلوك العملي وأيضاً بالتوصيات الاجتماعية في توجيه العلاقات والممارسات التي يقوم بها الأفراد في حياتهم المعيشية اليومية وعلاقتهم بربهم وبقادتهم وحكامهم.

ومن حكم وتوصيات الإمام الحسن عليه السلام الاجتماعية المهذبة للأمة قوله عليه السلام:

(أيها الناس، إنه من نصح لله، وأخذ قوله دليلاً هدي للتي هي أقوم، ووفقه الله للرشاد، وسدده للحسنى، فإن جار الله آمن محفوظ، وعدوه خائف مخذول، فاحترسوا من الله بكثرة الذكر، واخشوا الله بالتقوى، وتقربوا إلى الله بالطاعة، فإنه قريب مجيب، قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾[1]

---

(١) البقرة: ١٨٦.

فاستجيبوا لله، وآمنوا به، فإنه لا ينبغي لمن عرف عظمة الله أن يتعاظم، فإن رفعة الذين يعلمون عظمة الله أن يتواضعوا، والذين يعرفون جلال الله أن يتذللوا، وسلامة الذين يعلمون قدرة الله أن يستسلموا له، ولا ينكروا أنفسهم بعد المعرفة، ولا يضلوا بعد الهدى، ولن تمسكوا بميثاق الكتاب حتى تعرفوا الذي نبذه، ولا يضلوا بعد الهدى، ولن تمسكوا بميثاق الكتاب حتى تعرفوا الذي نبذه، ولن تتلوا الكتاب حق تلاوته حتى تعرفوا الذي حرفه، فإذا عرفتم ذلك عرفتم البدع والتكلف، ورأيتم الفرية على الله والتحريف، ورأيتم كيف يهوي من يهوي.

ولا يجهلنكم الذين لا يعلمون، والتمسوا ذلك عند أهله، فإنهم خاصة نور يستضاء بهم، وأئمة يقتدى بهم، بهم عيش العلم وموت الجهل، وهم الذين أخبركم حلمهم عن جهلهم وحكم منطقهم عن صمتهم، وظاهرهم عن باطنهم، لا يخالفون الحق، ولا يختلفون فيه، وقد خلت لهم من الله سنة، ومضى فيهم من الله حكم، إن في ذلك لذكرى للذاكرين، واعقلوه إذا سمعتموه عقل

رعايتـه، ولا تعقلـوه عقـل روايتـه، فـإن رواة الكتـاب كثـير، ورعاتـه قليل، والله المستعان)[1].

يطـرح الإمـام الحسـن عليه السلام مجموعـة مـن التوصـيات للنـاس مـن أجـل تصـحيح مسـارهم الـديني والاجتماعـي باعتبـار أن النظـام الاجتماعي مـرتبط بصـورة مبـاشرة بالتعـاليم الدينيـة التـي شرعـت مـن أجـل ترتيـب وتنظـيم حيـاة الإنسـان، سـواء كانـت الروحيـة أو السلوكية العملية.

فارتباط الإنسان بربـه يعطيـه قـوة وحـافزاً للتحـرك نحـو الأفعـال الإيجابيـة والتـي تحقـق لـه المصـلحة الخاصـة، وبالتـالي المصـالح العامـة للمجتمـع، والله جعـل في اتبـاع نصـائحه وإرشـاداته هـدياً للفـرد وتوجيهاً لتقـويم نفسـه والاسـتدلال عـلى الطريـق الصـحيح الـذي منـه يصل إلى مـراده ومبتغـاه، وبالمقابـل فـإن الله تعـالى سيرشـد، ويوفـق مـن تمسـك بهـدي الله، والتـزم بـما فـرض عليـه وأن يكـون معتقـداً وجازمـاً ومسـلّماً بـأن كـل مـا يـأتي مـن الله هـو الحـق غـير القابـل للخطـأ أو الـنقص، فـإذا تلـبس بهـذه القناعـة التامـة أصـبح مـؤهلاً لرعايـة الله

---

(١) تحف العقول، ابن شعبة الحراني، ٢٢٧، ح٣.

وتسديده للقول والفعل الحسن، وهو مما يزيد شخصية المؤمن هيبة ومحبة في قلوب الناس، فهو انعكاس لنفسية الفرد المطمئنة الواعية المؤمنة على جوارحه الخارجية، فيظهر بمظهر الشخص المعتدل المتزن الودود في علاقاته مع المحيط الخارجي، فكل من كان قريباً من الله كان الله قريباً منه وفي رعايته، فمن جاور الله كان آمناً وفي حفظه وكلاءته، بعكس من خالف الله بمخالفة قوانينه الشرعية والخُلقية والانحراف عنه والخروج عن النظم الإلهية، فإنه سوف يعيش حالة الخوف والخذلان بسبب عدم وقوفه على أرض صلبة كي يستطيع التحرك والمسير نحو اتجاه الحياة السليمة والعلاقات الوطيدة، بل يبقى مستوحشاً فرقاً، لا يوجد ما يستند إليه، ويعطيه زخم الحياة.

فالمعادلة واضحة عند الإمام الحسن عليه السلام أن من كان قريباً من الله فإنه مطمئن آمن بجواره، ومن يخالفه يبقى خائفاً ضعيفاً أمام تحديات الحياة الكثيرة التي يحتاج بها الإنسان إلى القوة الإيمانية لمواجهتها، وهذه القاعدة ثابتة لكن التغير يحدث عند الإنسان، فمن ابتعد عن الله ضعف، ومن اقترب قوي، وكذلك يؤكد الإمام الحسن عليه السلام على استمرار التقرب إلى الله تعالى بتواصل ذكره تعالى،

سواء كان بالعبادة والتأمل في عظمته وألوهيته أو بسلوكه وأفعاله الحسنة التي تدنيه من ربه، وتورثه القرب والصلة، ويجب أن يكون الإنسان على خشية من الله بأن يتقي ما حرم من الأمور المادية والشرعية والمعنوية كي يرتقي في درجات المعرفة والنقاء النفسي، فلا يمكن أن يتدرج الإنسان، وهو يفعل ما يخالف الأوامر الإلهية والنواهي الشرعية، فإن الطريق إلى الله تعالى يكون بطاعته في كل ما أمر به.

وبالمقابل فإن الله تعالى أيضاً يقرب العبد السالك في طريق طاعته بدليل الآية الكريمة ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى ....﴾ والاستجابة لطاعة الله والإيمان به هو ما يحقق المشروعية في العمل والتنظيم الديني لشؤون الحياة الكريمة العزيزة؛ لأن التشريعات والقوانين الصادرة منه كاملة وغير قابلة للخطأ أو التبديل، بل هي محددات ومشخصات لتفاصيل الحياة يؤدي الالتزام بها إلى الاستقرار النفسي والاقتصادي والاجتماعي، ولا ينبغي لمن عرف عظمة الله في خلقه وتشريعاته أن يتعاظم عليه، فيحاول هو أن يسن التشريعات والقوانين بدلاً عن الله تعالى، فإنها قطعاً ستكون ناقصة وقابلة للخطأ؛ لأن عقل الإنسان لا يدرك كل شيء محدود

في إطار إدراكاته فقط، فالإمام الحسن عليه السلام يحذر من أخذ دور الإله في سن القوانين، فالخالق أعلم بخلقه وجميع حيثياته وتركيبته النفسية والجسدية، والإحاطة بالكون والطبيعة من خصوصيات الخالق، فعلى الإنسان أن يعرف هذه الحقائق، ويذعن لها، ولا يتكبر، فمن عرف الله وسلم لإرادته وطاعته فإن الله سيرفعه بهذا العلم، وعلى المرء أن يتواضع لهذه المعرفة، ولا يطغى، ويتكبر، وعليه أن يتذلل أكثر، فكلما ازدادت معرفته رأى حجمه الحقيقي الصغير أمام عظمة الله وجلاله وقدرته، وهي دليل على سلامة النفس وصحتها وتدينها حقيقة لا زيفاً أو خداعاً.

ومن اعتقد، وآمن، واهتدى بالحق فليس له أن ينكر هذا كله، فإن مقتضى المعرفة بالله التسليم والانقياد، أما الإنكار للنفس بعد ما استيقنت فإنه مخالفة للفطرة السليمة ولمسلمات العقل، ومن اهتدى إلى الطريق الصواب فكيف له أن يظل، وينحرف في سلوكه، وينقلب على ذاته، وتلك الحالة تلقي بظلالها على الكيان الاجتماعي، وتفسده، وتؤثر على تنظيمه الجماعي.

إن من مقدمات التقوى في طاعة أوامر الله وترك نواهيه أن يهتدي الإنسان بدين الهدى والحق، فبعد المعرفة الكاملة بالدين

وأصوله وفروعه ينتقل المرء إلى مرحلة متقدمة، وهي الاتقاء من أي مخالفة شرعية، والشرع يقصد به مجموعة الأنظمة العقدية والأحكام الفقهية بجميع أبوابها والخُلقية والتهذيبية، فالذي يكون على اطلاع كامل وفهم لجميع تلك التفاصيل سيكون حذراً من الخروج عن هذا النظام العام الذي من شأنه تحقيق العدالة الاجتماعية والمساواة وحفظ الحقوق وأداء الواجبات من أجل إنشاء مجتمع فاضل مؤمن يعرف كل فرد فيه دوره ومتعلقاته الاجتماعية.

فالإنسان أول ما يبدأ بنفسه وتحسينها وتنظيمها، وعكس ذلك على الآخرين أن لا ينشغلوا بغيرهم ويتركوا أنفسهم، وجعل الله للناس دستوراً فيصلاً ومصدراً لجميع قضايا الحياة ذكر فيه تعالى الأحكام الشرعية والعقائد الإسلامية، وهو برمته أفضل كتاب يحاكي طبيعة الإنسان والمجتمع، وهو إذا قرأناه بمنظار وزاوية علم الاجتماع فهو كتاب اجتماع متكامل، فيه جميع خصوصيات وتفاصيل العلاقات الاجتماعية وحل مشكلاته، فهو المصدر والمرجع في التشريع الاجتماعي، فمن اطلع، وقرأ القرآن الكريم، وتمسك به عرف الحق، فاتبعه، وعرف الباطل، فنبذه، فإنه ميثاق وعقد اجتماعي لكل البشر إن تمسكوا بمضمونه.

إن الفهم الصحيح لمضامين الآيات القرآنية وما جاء بها من توجيهات وإرشادات تمكن القارئ له من معرفة أي تحريف لمفاهيمه ومن يحرفه، فمن تدبر وتأمل في كلمات القرآن الكريم، وسار على نهجه في تعاليمه سيعرف أن من يخالف تلك التعاليم الإلهية فإنه يحاول أن يحرف مضامين القرآن، ويأتي بمفاهيم وقوانين بشرية بعيدة كل البعد عن حقيقة الطبيعة الإنسانية وتجاذباتها النفسية وعلاقة البشر مع بعضهم، وهو امر يستحيل على الإنسان إدراكه وتقنينه.

ونحن نرى الإخفاقات التي شهدها، ويشهدها العالم من جراء فرض القوانين الإنسانية التي تسلب الحقوق، وتعدم العدالة، وتسوف المساواة؛ لأنها لا تستند إلا على الخبرة الإنسانية القاصرة عن الخلفية التكوينية للإنسان؛ ولذلك وقعت المشاكل الإنسانية من حروب ومعارك، أتلفت البشر والطبيعة؛ لأنها خالفت كل قوانين الطبيعة وأصل تكريم الإنسان واحترامه، فلم يكن تنصيب الحاكم على أساس الحكمة والعلم والشجاعة والحلم وغيرها من صفات الكمال التي تؤهل الحاكم لقيادة المجتمع، ولم يكن على مستوى

المسؤولية في نظرياته الاقتصادية، وقد خلّف بها الطيفية التي ظلمت الإنسان، وحطمت العلاقات الاجتماعية، وفشلت فشلاً ذريعاً في توزيع ثرواته، ولا على المستوى الاجتماعي، فكسرت أواصر الأسرة، وسلبت حقوق الفرد، وفرطت بحقوق المجتمع، فهوى المجتمع الإنساني لعدم تمسكه بالقرآن الكريم وما جاء به من قواعد وحلول لجميع مشاكل الإنسانية، ويحذر الإمام الحسن عليه السلام من اتباع هؤلاء الذين تخلوا عن قيمهم الدينية والتعاليم الإسلامية كما حدث عبر التاريخ في الدولة الأموية والعباسية التي ادعت الإسلام، وخالفته بكل تفاصيله، فلا يجوز لمن يعلم الحق الذي جاء به القرآن أن يتبع الجاهلين والمخالفين له، بل على الناس اتباع من علم القرآن، وفسره، وحمله، وهم أهل البيت عليهم السلام الذين انطلقوا من المفهوم القرآني في تبليغ الرسالة الإسلامية المنجية للناس من الظلال والظلم والفساد.

فهم خلفاء الله على أرضه وأوصياء رسول الله صلى الله عليه وآله على الناس، وهم أهل القرآن وعدله، والرجوع إليهم رجوع إلى النور الذي يستضاء به من ظلام الجهل، والاقتداء بهم يوصل إلى مرضاة الله

وإلى السعادة والحياة الكريمة الفاضلة، وبهم استكمال الدين ودائرة النظام الإنساني والاجتماعي، وهم بوصلة النور، فمن اهتدى بهداهم عاش في ظلال العلم والمعرفة والحقائق الكاملة والنضج العقلي والنفسي، وفي اتباعهم موت للجهل والقضاء على أسباب التخلف والضياع والانحراف.

وهو ليس تكهناً أو رجماً بالغيب أو اتباعاً عاطفياً، بل إن علمهم وحكمهم ومواقفهم وسلوكهم هو ما يدل على أحقيتهم، ومقارنة ذلك بجهل أعدائهم وأقوالهم وأفعالهم تثبت الفارق الكبير بين الحالتين، فمن يقارن علم وسلوك أهل البيت عليهم السلام بجهل وأفعال أعدائهم المنكرة سيدرك دون أي شك أهلية الأئمة الأطهار عليهم السلام لهذا المنصب الإلهي الذي جعلهم الله فيه، ويشهد لذلك كلماتهم النورانية المفسرة للقرآن الكريم والمستمدة معاني كلماتهم من المنطلق القرآني الحافل بالقواعد العلمية والخُلقية، وقد عرف الناس أهل البيت عليهم السلام من خلال لغتهم العالية وحكمهم ومواعظهم النابعة من معين صافٍ، ولم يجدوا اختلافاً في قولهم مع قول الله تعالى، ولم يختلف منطق أحدهم عن الآخر، فكل ما جاؤوا به صادر عن كتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وآله قد خاضوا في جميع مجالات الحياة وفي مختلف

العلـوم، وامتـدت أيـاديهم البيضـاء إلى النـاس جميعـاً دون اسـتثناء حتـى إلى أعـدائهم، ولم يبخلـوا بالنصـح -وحاشـاهم مـن ذلـك- حتـى عـلى أعـداء الـدين، فرسـالتهم السـلام والمحبـة والإصـلاح وإقامـة دولـة الحق والعدالـة، فمـن تجـرد عـن هـواه، واتبـع عقلـه سـيجد الحـق فـيهم كامناً بدور معهـم حيـث داروا، فهـم مسـددون مـن الله، وهـو اختـارهم خلفـاءه عـلى أرضـه، فمـن قـرأ القـرآن، وتفكـر، وتأمـل في آياتـه، وأراد تطبيقهـا في الخـارج فلـن يجـد أصـدق مـن أهـل البيـت عليهم السلام، مصـداقاً لـذلك وعـلى كـل مسـلم أن يتخـذ مـن القـرآن دسـتوراً ومنهجـاً، ويعتمـده بوصـلة في معرفـة الحـق، ولا يكفـي مجـرد تـلاوة آياتـه وقـراءة كلماته من غير تحقيق ورعايـة لمـا صـدر منـه، فـالتطبيق العمـلي هـو الجـزء المكمل للقرآن، وأهل البيـت هـم الحالـة القرآنيـة العمليـة كـما قـال أمـير المـؤمنين عليه السلام (**أنـا القـرآن النـاطق**)[1]؛ لأن القـرآن لا ينطـق بلسـان، ولا بد له من ترجمان وهم تراجمة وحي الله.

إن خطـاب الإمـام الحسـن عليه السلام للنـاس ونصـحه لهـم ينطـوي عـلى كم هائل من التعـاليم الروحيـة والدينيـة والعرفانيـة التـي تهيِّـئ المجتمـع

---

(١) ينابيع المودة، القندوزي، ١: ٢١٤، ح٢٠.

روحياً لاستقبال التعاليم العملية والسلوكية، فإذا لم يكن الفرد مستعداً ذاتياً، ولا يملك القناعة الكافية للاعتقاد بالنظام القانوني الديني، فإنه لا فائدة من الكلام والإرشاد لأفعاله وسلوكه، والإمام الحسن عليه السلام يبدأ من المرحلة الأولى، والأهم، وهي تصفية النفس وتقوية الروح؛ لأنها الباعث على الحركة الخارجية، وهو أمر في غاية الأهمية لأي تشريع يراد تطبيقه بنجاح حيث البدء بتهيئة الظروف المناسبة لنجاحه، ومن ثم العمل عليه.

وهذا ما صنعه الإمام الحسن عليه السلام من التوجيه إلى عودة الإنسان إلى مصادره الروحية والتشريعية بالقرب من الله تعالى وذكره والتمسك بكتابه المنزل على الناس نظاماً لحياتهم واتباع من جعله الله، واختاره لتطبيق هذا النظام والاقتداء به واتباعه، وهم الأئمة الطاهرون عليهم السلام المعصومون، وكذلك جعلهم مشرعين لأحكامه وعدلاً لكتابه والثقل الأصغر، فمن سار على نهجهم نجا، ووصل، ومن خالفهم هوى، وضل، وهي الهيكلية الكاملة للنظام الاجتماعي الذي يحتاج إلى الفضيلة والقوانين، وقد لخصها الإمام الحسن عليه السلام بهذه الأسطر القليلة، فلا يمكن بناء أي مجتمع صالح من

غير الرجوع إلى هذه الركائز الثلاث، والتي هي الأساس والقاعدة لأي بناء صحيح وصالح.

«اهتم أهل البيت بالبناء العقائدي لهذه الكتلة والحفاظ على معالم العقيدة الاسمية الأصيلة، بحيث تكون بعيدة عن الانفعال بالمؤثرات الفكرية أو السياسية أو الاجتماعية التي كانت تواجهها الأمة في القرون الأولى للإسلام مثل المحتوى الفكري والثقافي للحضارة الرومانية والفارسية واليونانية التي قادت بعض الجماعات إلى الزندقة والإلحاد والتحلل، وكذلك تكون العقيدة سليمة عن التأثر بمرض الخدر الحضاري الذي أصيبت به الأمة الإسلامية بسبب انفتاحها على المجتمعات الجديدة في العالم الإسلامي»[1]، فالعقيدة هي أساس الدافع نحو الفعل وتحديد العلاقات الاجتماعية، ويتأثر الإنسان بخلفياته الثقافية والدينية السابقة، وستشكل عائقاً لتنفيذ المشروع والرسالة الإسلامية.

«فالإيمان بالله يعالج الجانب السلبي من المشكلة، ويرفض الضياع والإلحاد واللا انتماء؛ إذ يضع الإنسان في موضع المسؤولية،

---

(١) دور أهل البيت في بناء الجماعة الصالحة، محمد باقر الحكيم، ١: ٥٧.

وينيط بحركته وتدبيره الكون، ويجعله خليفة الله في الأرض، والخلافة تستبطن المسؤولية، والمسؤولية تضع الإنسان بين قطبين، بين مستخلف يكون الإنسان مسؤولاً أمامه، وجزاء يتلقاه تبعاً لتصرفه بين الله والمعاد، بين الأزل والأبد، وهو يتحرك في هذا المسار تحركاً مسؤولاً هادفاً»[1].

إذن الحركة الاجتماعية مبتنية على مجموعة قواعد روحية وخُلقية، تخضع لأدبيات دينية وعقَدية، تشكل الإنسان بحسب الرؤية الإسلامية لصناعة فرد مسؤول عن العمل على تركيب الشرائح الاجتماعية المنسجمة مع بعضها البعض والخروج بمجتمع فاضل في علاقاته وممارساته المؤدية للوصول إلى أفضل القيم الاجتماعية الكمالية.

فالمجتمع كائن حي، له روح وأعضاء يسند بعضها بعضاً، وهي مع الروح الاجتماعية تعطي جملة مفيدة للتعريف بهيأة ومضمون المجتمع الذي يسعى لإيجاده جميع الأنبياء والأوصياء والصالحين، وتكون أمة موحدة واحدة تمثل الإرادة الإلهية في طبيعة

---

(١) مجتمعنا، محمد باقر الحكيم، ص٣٩٣.

وجـود الإنسـان عـلى الأرض لعمرانهـا ونشـر السـعادة والعدالـة بـين النـاس، سـواء كانـت أمـة أو العـالم بجميـع وشـعوبه، فالـدين قيمـة ونظـام اجتماعـي إنسـاني لكـل النـاس عـلى وجـه المعمـورة وقـانون متكامل لجمع شملهم وحفظ نوعهم وكيانهم.

٣- الرأي الجمعي وتوثيق العلاقة الجماعية:

قـال الإمـام الحسـن عليه السلام: **(مـا تشـاور قـوم الا هـدوا إلى رشدهم)**[١].

إن اعتبـار المجتمـع بجميـع أفـراده وحـدة واحـدة وكيانـاً موحـداً يمـلي عـلى الجميـع عـدم الانفـراد والاسـتبداد في الـرأي، فهـو وحـدة ضـمن كيـان متعـايش عـلى أسـاس التعـاون والمصـير المشـترك، فـلا بـد من أن يكون الرأي المتخـذ في القضـايا التـي تخـص المجتمـع صـادراً عـن الجميـع وبالاتفـاق، يقـول أمـير المـؤمنين عـلي بـن أبي طالـب عليه السلام **(مـن اسـتبد برأيـه هلـك، ومـن شـاور الرجـال شـاركها في عقولهـا)**[٢]، لأن الفرد مهما بلـغ مـن العلـم والخـبرة يبقـى ناقصـاً ومحتاجـاً إلى آراء أخـرى

---

(١) تحف العقول، ابن شعبة الحراني، ٢٣٣ ح٤.

(٢) نهج البلاغة، ٤: ٤١، ح١٦١.

تسدد رأيه، وتنضج فكره، فتلاقح الأفكار وتبادل الآراء يوسع المساحة الفكرية للفرد والجماعة، ويعطي رؤيا أبعد وتشخيصاً أدق، فعن أبي عبد الله الصادق عليه السلام، قال: (**قال رسول الله صلى الله عليه وآله: مشاورة العاقل الناصح رشد ويمن وتوفيق من الله، فإذا أشار عليك الناصح العاقل فإياك والخلاف، فإن في ذلك العطب**)[1] فكلما تجمعت العقول تراكمت الخبرة ونضج الرأي، وصار أقرب إلى الصواب، وأيضا من شأنها أن تقوي الوشائج بين المجتمع، وتوطد العلاقة بينهم، وتشعر الجميع بالمساندة لبعضهم، فتزيدهم قوة وتماسكاً يقول أمير المؤمنين عليه السلام (**لا غنى كالعقل، ولا فقر كالجهل، ولا ميراث كالأدب ولا ظهير كالمشاورة**)[2].

إن الرأي المتخذ عن طريق الشورى سيثبت بالعقل الجمعي، ويكون محركاً لهم بسياق واحد وممارسة مماثلة، فينتج عملاً سوياً كاملاً وحازماً، ومن أسباب قوة الأمم التي صار لها حضارة ودولة اجتماعها على رأي واحد، فالتشاور مقدمة وسبب إلى النتيجة

---

(١) المحاسن، ٢: ٤٣٨.

(٢) نهج البلاغة، ٣: ٥٤.

الحتمية، وهي الهداية إلى الرأي الرشيد والطريق القويم والحل الصائب، وفي قول الإمام الحسن عليه السلام حث على توحيد الكلمة والموقف، خصوصاً عند مواجهة الأمة لاختبار أو خطر قد يهدد كيانها، ويعصف بالمجتمع إلى الهاوية، فمنطوق الإمام الحسن عليه السلام أن أي قوم تشاوروا، وتبادلوا الرأي كان الرشد والهدى حليفهم ومنجاة لهم.

والمفهوم منه أن أي قوم استبد أفرادهم بآرائهم، وتشظت مقالاتهم، فإنهم سيكونون عرضة للوهن والضعف والضياع والانهيار وتفكك العلاقة بينهم، فقد ورد عن الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام أنه قال: (**قد خاطر بنفسه من استغنى برأيه، ومن استقبل وجوه الآراء عرف مواقع الخطأ**)[1] والاستشارة حكمة اجتماعية بالغة الأهمية، تؤكد على دور العلاقة الاجتماعية في بناء المجتمع الصالح الفاضل الذي يقدم المصلحة العامة على المصالح الشخصية، وهو من أبرز المبادئ الاجتماعية في الفكر الاجتماعي، ويجدر الذكر أن الاستشارة تكون مع ذوي العقول وأهل الخبرة من القوم، وليس أي احد من الناس، فالرأي السديد لا يصدر إلا ممن

---

(١) وسائل الشيعة، الحر العاملي، ٨: ٤٩، ح٢.

تجتمع فيه صفات التدين والتقوى والإخلاص في النصح والمتزن في شخصيته، ولا يتبع هواه أو عاطفته، بل يغلب لغة العقل، ويكون هو في نفسه صحيحاً سليماً، لا يحمل أي مرض نفسي يؤثر على مستوى تفكيره عن الإمام الصادق عليه السلام، قال: (**ما يمنع أحدكم إذا ورد عليه ما لا قبل له به أن يستشير رجلاً عاقلاً له دين وورع**)[1] فهذا الدور المهم لا يقوم به إلا من شهد له الناس بالأهلية والعقلية والتدين والإخلاص.

٤- قال الإمام الحسن عليه السلام عند صلحه لمعاوية: (**انا والله ما ثنانا عن أهل الشام شك ولا ندم، وإنما كنا نقاتل أهل الشام بالسلامة والصبر، نثبت السلامة بالعداوة والصبر بالجزع، وكنتم في مبدأكم إلى صفين، ودينكم أمام دنياكم، وقد أصبحتم اليوم، ودنياكم أمام دينكم**)[2].

لعل هذا النص هو من أبرز النصوص في هذا الباب، وهو الفكر الاجتماعي، وخصوصاً أن الإمام الحسن المجتبى عليه السلام قد واجه ظروفاً اجتماعية استثنائية بدءً من شهادة أبيه أمير المؤمنين عليه السلام

---

(١) المحاسن، ٢: ٤٣٨، ح٢٦.

(٢) تحف العقول، ابن شعبة الحراني، ص٢٣٤، ح١٠.

ومـروراً بتسـنمه للخلافـة والصـلح مـع معاويـة، إذ شـهدت الأمـة تقلبـات كثـيرة، كـادت أن تفتـك بـالمجتمع الإسـلامي مـن حيـث التقسـيم والتـوزع إلى طوائـف سياسـية وعقَديـة، أضـعفت البنيـة الاجتماعيـة الإسـلامية، وأصـبحت عبـارة عـن فئـات متنـاحرة فـيما بيـنهما قـد دخلـت في مخـاض عسـير، أفـرزت عـلى إثـره الضـغائن والأحقاد، وكـان مـن الصـعب إعـادة اللحمـة الاجتماعيـة، فكـان ديـدن أهل البيت عليهم السلام علي وبنيـه هـو السـلام والمحبـة والتسـامح وحفـظ وحـدة المسلمين.

فبعـد شـهادة امـير المـؤمنين عـلي بـن أبي طالـب عليه السلام شـهدت الخلافة تنافسـاً شـديداً بـين الخليفـة الشـرعي والمنتخـب -وهـو الإمـام الحسـن عليه السلام- ومعاويـة بـن أبي سـفيان الـذي نـاوأ الإمـام عليـاً عليه السلام مـن قبلُ، حيث إنه تمـرد عـلى الحـاكم الشـرعي، وخـالف العقـد الاجتماعـي الـذي يوجـب عليـه الالتـزام بـأوامره ونواهيـه، لكـن معاويـة اسـتبد برأيـه، وخـرج عـن إجمـاع المسـلمين، وكـوّن نـواة لدولـة، لا تمـت إلى الإسـلام بصـلة، فشـهدت الأمـة الإسـلامية آنـذاك انشـقاقاً اجتماعيـاً، فالشـق الأول، قـد قـاده أئمـة أهـل البيـت عليهم السلام كـان يمثـل الإسـلام

الصحيح الذي اتخذ من القرآن دستوراً ومن السنة النبوية قانوناً ودينـاً لبنائهم الاجتماعي، أما الشق الآخر الذي قاده معاوية فكان يمثل الملك والطغيان الاجتماعي والجاهلية القبلية، فحوّل الحكم إلى ملكية أسرية من غير أي نص ديني أو تبرير شرعي، فكانت الشام مجتمعاً هو أقرب إلى الطبيعة الاجتماعية الرومية أو الفارسية، غابت عنها العدالة والحقوق الإنسانية، فظهرت الطبقية والفقر والاستهتار بالقيم الإنسانية، وساد الظلم والفساد على عكس المجتمع المدني الذي أسسه أهل البيت الذي تساوى فيه الغني والفقير والعربي والأعجمي والأبيض والأسود والمرأة والرجل.

وقد توزعت فيه الأدوار، وحفظت الحقوق، فشهد انتعاشاً اقتصادياً واحتراماً انسانياً وتكريماً للمؤمن، وسادت روح التكافل والتضامن بين أفراده، فشتان بين المجتمعين.

وهنا تكمن خطورة الموقف الاجتماعي وكيفية التوفيق بين الأسلوبين في طريقة الحياة والمعيشة، لكن الإمام الحسن الزكي عليه السلام الذي حمل روح الإسلام ورسالة جده رسول الله صلى الله عليه وآله لم يفرق بين المجتمعين في طريقة التعامل، فنهجه الإصلاح والسلام والتسامح،

فلم يكن يرى غير المصلحة العامة التي تجمع معشر المسلمين على كلمة سواء، فقام مخاطباً مجتمعه بعد دراسته لمكنونهم، وتعدم فرض الإرادة عليهم، وهو بكل رباطة جأش وشجاعة وبارتجالٍ معهود وبلاغة عالية مجلجلاً بصوته الملائكي يصدح بالحق مرشداً وواعظاً ومبيناً الاختلاف الحاصل بين المجتمعين، حيث بادرهم الإمام الحسن بالسلام وحسن النية والقبول لهم، لكنهم واجهوه بالعداوة والحقد والبغضاء، وعاملهم بالصبر على أقوالهم وأفعالهم، فتعاملوا معه بالخذلان والسوء والعناد ومخالفة الحق والخروج على الحاكم الواجب الطاعة.

ومما يدل على إحاطة الإمام الحسن عليه السلام بالوعي الفكري الاجتماعي في تركيبة الناس والظروف التي تؤثر على قواعدهم الفكرية وطبيعتهم الاجتماعية مقارنته عليه السلام بين صورتي المجتمع الصالح والمجتمع الطالح والسلوك نحو الفضيلة أو الرذيلة، ووضَعَ بين أيديهم المشكلة وحلها، وشاركهم في اتخاذ الرأي؛ لأن القائد أو الحاكم لا يكون مستبداً برأيه وإن كانت خلافة الإمام الحسن عليه السلام إلهية، إلا أنه يعكس مفهوم الديمقراطية السياسية

للحاكم كما كان قبله أبوه أمير المؤمنين الذي يقول: (**وقد أحببتم البقاء، وليس لي أن أحملكم على ما تكرهون**)[1]، وهو من أسس النظام العادل الذي يضمن حرية الرأي وفسح المجال للناس لاتخاذ القرار، ولكن على أن لا يخالف الثوابت الدينية والعقدية، وهو من أدب الحاكم، وأيضاً من أدب المحكومين الرجوع إلى حاكمهم الجامع لصفات الكمال والفضيلة والذي يعد حسب القواعد الاجتماعية الإسلامية أعلم القوم وأفقههم وأشجعهم وأكثرهم حنكة وأسدّهم رأياً.

فالإمام الحسن عليه السلام عمل بما يملي عليه التزامه الخُلقي معهم والعقد الاجتماعي لحاكميته فيهم، وبيّن لهم حقيقة الأمر، وترك لهم الخيار، وشخّص الإيجابيات والسلبيات (**وكنتم في مبدأكم إلى صفين، ودينكم أمام دنياكم، وقد أصبحتم اليوم، ودنياكم أمام دينكم**)، فقد شخص الإمام الحسن عليه السلام المشكلة التي وقع فيها المجتمع، وطرح الحل بكل موضوعية وشجاعة والتفات إلى الطبيعة المتغيرة التي أدت إلى هذا الحال، وأن الدين هو الحافز والمحرك لهم

---

(١) نهج البلاغة، ج٢ ص١٨٧، ح٢٠٨.

في الدفاع عن عقيدتهم ودينهم ومقدساتهم، فإن فقد هذا الحافز أصبح الناس في مشكلة بإمكانهم حلها إذا اتبعوا قائدهم مسلِّمين لرأيه وخاضعين لحكمته وعقلانيته وشجاعته.

فوضعهم الإمام الحسن عليه السلام أمام المشكلة وحلها، وهو أرقى أسلوب اجتماعي لأي مفكر في مجال الاجتماع في وضع نظامه الاجتماعي، عبقرية لا يمكن أن تتوافر لأي شخص سوى المعصوم، قد جمع بين العلم والسماحة والشجاعة والحلم والفصاحة في القول، قد بين لهم أنه ليس بخائف من الحرب ولا عاجز عنها، ولكن تقرير المصير بيد الناس، وعليهم تحديد موقفهم من ذلك.

هذه المقولة الاجتماعية التي استثمرها الإمام الحسن عليه السلام في تربية الأمة وتعليمهم على تحمل المسؤولية ومعرفة الواجبات والحقوق لكل فرد تعد من القواعد الفكرية الاجتماعية الصميمية في حياة أي أمة ناهضة وساعية إلى الصلاح والفضيلة والتكامل، وهي لا تختص بمجموعة معيَّنة ولا بفئة خاصة، بل هي قاعدة عامة للفكر الإنساني بأجمعه.

٥- قال الإمام الحسن عليه السلام: **(الوحشة من الناس على قدر الفطنة بهم)**[1].

إن وجود الفرد ضمن المجتمع وجود تكاملي، يكتسب، ويكسب الآخرين من الصفات الإيجابية على الصعيد النفسي والروحي والتضامن في العمل الجماعي الذي يوفر المعيشة والحياة المستقرة السعيدة، فهو عنصر فعال، ينفعل، ويتفاعل، يؤثر ويتأثر، ولكن التأثر قد يكون إيجابياً، وأخرى يكون سلبياً بوجود أفراد يحملون صفات الشر والفساد والرذيلة، فإن كان الأفراد من فضلاء القوم الموصوفين بالصدق والدين والخلق والإخلاص والالتزام طابت لهم النفس، واستقرت لهم، وتقبلتهم، وانسجمت معهم، واستطاع العيش معهم بأمان واطمئنان، بعدالة ومساواة، لا تضيع معهم حقوقه، فيستأنس بهم، ويبني معهم علاقات وثيقة ومخلصة، فيتكرس المعنى الإنساني والاجتماعي، فيعملون مع بعضهم على تكوين مجتمعهم الفاضل الصالح.

---

(١) تحف العقول، ابن شعبة الحراني، ٢٣٦، ح٣٦.

أما الجماعة الفاسدة فإنها تقترب من بعضها، وشأنها الإفساد وتلويث المجتمع بأفكارهم وسلوكهم المخالف للطبيعة الإنسانية والتعاليم الدينية والخُلقية، فينجذب بعضهم لبعض، ولا يسلم الفرد فيهم من خيانة جماعته وضررهم له، فهم لا يملكون أي قيمة إنسانية أو اجتماعية، تردعهم عن استغلال بعضهم لبعض، ولذا تمايز الناس على أساس توجهاتهم وقواعدهم الخُلقية وكينونتهم الجماعية ومدى تأثر كل مجتمع بالآخر.

وهنا سيحدث استقطاب للناس، فمن يتصف بصفات الفضيلة سينجذب إلى مجتمعه، ومن يتصف بصفات الرذيلة أيضاً ينجذب إلى الذين يحملون الصفات نفسها، فالفرد الصالح إذا كان وسط مجتمع فإنه سوف يستأنس بالجماعة الصالحة، ويستوحش من الجماعة الفاسدة، ويكون استيناسه واستيحاشه بقدر معرفته بحالهم وصفاتهم الخلقية والنفسية ومدى التزامهم بآداب التعامل وحسن العلاقة واحترام الآخر ومقدار ما يصنفه الفرد أو المجتمع من سمات الخير والصلاح إلى شخصيته، ولكن هذا الانعزال عن الناس لا يعني الرهبانية وترك المجتمع والابتعاد في الزوايا المظلمة، بل هو من باب الحفاظ على النفس من التلوث بمفاسد المفسدين

والمبطلين، فعن رسول الله صلى الله عليه وآله (**المرء على دين خليله وقرينه**)[١] فلا ينبغي للفرد صحبة من كانت عندهم انحرافات نفسية وخلقية كي يتجنب الاختلاط بهم ونقل ملوثاتهم إليه، فعليه الاختيار بدقة لمن يصاحب، ويعاشر، ويبني معه مجتمعاً سليماً وصالحاً وخالياً من الامراض النفسية والروحية، وكلام الإمام الحسن عليه السلام فيه توجيه لبناء الجماعة الصالحة ومصاحبة الأخيار وإن قل عددهم والاستيحاش من الناس مقابل الاستيناس بالإيمان بالله تعالى، فهو بوصلة الحق وقبلة المؤمن وإن عز الناس من حوله، يقول أمير المؤمنين عليه السلام (**لا تستوحشوا طريق الحق لقلة سالكيه**).

٦- من الفكر الاقتصادي للمجتمع:

قال الإمام الحسن المجتبى عليه السلام: (**من قل ذل، وخير الغنى القنوع، وشر الفقر الخضوع**)[٢].

لا يخفى ما للاقتصاد من أثر مهم وحيوي في حياة الإنسان والمجتمع عموماً، فهو الركيزة الأساس لبناء الأمة وتكوين الدولة

---

(١) الكافي الكليني، ٢: ٣٧٥، ح٣.

(٢) تحف العقول، ابن شعبة الحراني، ص٢٣٦، ح٤٦.

وعيش الناس برفاهية وغنى وإنشاء أي حضارة على مر التاريخ تميزت بنموها الاقتصادي قبل كل شيء، فمتى ما أمّن الفرد والمجتمع أساسيات حياته من الطعام والشراب والمسكن والتعليم استطاع أن يتوجه إلى أمور الثقافة والإعمار والتقدم العلمي والاستقرار النفسي والأمان من الأخطار؛ ولذلك أكد القرآن الكريم وأهل البيت الأطهار عليهم السلام على ضرورة العدالة والمساواة في توزيع الثروات وحفظ الحقوق وإعطائها لأصحابها وعدم الاعتداء على ملكية الفرد أو الجماعة لتستقيم الحياة ويأخذ النظام الاجتماعي مساره الصحيح.

ولكن كل هذا لا يتحقق إذا عزف عن تطبيق النظام الاقتصادي الذي شرعه الإسلام، فعندها ستضيع الحقوق، وتسلب الثروات، ويسود الفقر والجوع والعوز في البلاد، وتظهر الطبقية والإقطاعية المدمرة للهيكل الاجتماعي.

والتفات الأئمة الأطهار عليهم السلام إلى أهمية النمو الاقتصادي لم يكن عن تجربة أو اعتبارات اجتماعية، بل إنهم عالمون وعارفون بأسرار الإنسان والطبيعة وتقديرها وتفسير الظواهر الاجتماعية

واطلاعهم على مكنونات الإنسان وتركيبته التكوينية والروحية، ومن هذا المنطلق شرع أهل البيت عليهم السلام بسن القوانين الاقتصادية التي تعالج المشاكل الاجتماعية وتؤمن الحياة السعيدة والمحترمة للفرد والمجتمع.

وقد أشار الإمام الحسن عليه السلام إلى هذا المعنى في هذا القول الشريف، فمَن قل ماله أو حظه من الرزق والثروة المادية فإنه سيكون ذليلاً أمام صعوبات الحياة ومتطلباتها المعاشية التي تلجئ الإنسان إلى التنازل عن كرامته أحياناً في سبيل توفير ظروف العيش التي تحافظ على ديمومته وعياله من الهلاك، فعلى المجتمع مساعدة الفقير ورفع الضرر عنه والحفاظ على كرامته وعزته، فالمؤمن مكرم وعزيز، ولا يجوز إذلاله بالعوز المادي والتضامن معه، وهي خطة ابتكرها النبي محمد صلى الله عليه وآله في المؤاخاة بين الأنصار والمهاجرين ومقاسمة الأموال معهم، وتابعه أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام الذي كان يستحي من واقع مدرعته لكثرة رقعها، وكذلك سبط النبي صلى الله عليه وآله الإمام الحسن عليه السلام الذي قاسم ماله ثلاث مرات في حياته الشريفة، وهو ديدن قادتنا وأئمتنا الكرام عليهم السلام.

وعلى المرء أن يقنع بما لديه من ملك، ولا يتصاغر أمام غرائزه ودوافعه النفسية للحصول على قدر أكبر من المال الذي قدره الله له من الرزق الحلال، وأن يكون قانعاً ومسلماً بما في يديه والتعامل مع واقع الحال، فدوام الحال من المحال، فقد يكون العيش الآن صعباً مادياً إلا أن الله قادر على تحويل حاله إلى أفضل وأحسن، فليس بالضرورة أن يبقى الفرد فقيراً طوال حياته إذا كان مجتهداً في عمله وساعياً بجد لكسب رزقه، وقطعاً هذا لا يعني أن لا يكون للإنسان طموح في زيادة ملكه وتنمية ثروته، ولكن عليه أن يكون واقعياً ومؤمناً بقسمه وما قدره الله تعالى له، فمن رضي بذلك فهو غني بقناعته، وإلا فمهما كان عنده من مال، وهو لا يملك القناعة فإنه سيبقى فقيراً ومحتاجاً.

إن الفقر من أبرز المشاكل الاجتماعية في التاريخ الإنساني، ولا ينفك أن يكون المسبب الرئيس في الأزمات الاجتماعية والخلقية التي تظهر في الكيان الاجتماعي، يقول أبو ذر الغفاري ﷺ «**عجبت لمن لا يجد القوت في بيته كيف لا يخرج على الناس شاهراً سيفه**» فعدم تحقيق العدالة الاجتماعية يتسبب في المطالبة بالحقوق والخروج على الحاكم من أجل إنصافه ورد اعتباره وحقه المسلوب، «**إن**

وجود الثراء الفاحش بجانب الفقر المدقع يؤدي حتماً إلى تأزم الأوضاع وشيوع الاضطرابات وانتشار الشذوذ والجرائم وإقصاء الفضيلة والمثل الخيرة من البلاد»[1].

وللفقر درجات، وأدنى درجاته ما تجعل المرء خاضعاً أمام حاجته متوسلاً للحصول عليها، ولا يخفى ما فيها من المهانة والتقليل من الشأن الاجتماعي، فعلى المرء أن يبقى كريم النفس صابراً على الفقر، ولا يخضع لرغباته النفسية، فيعتدي، ويسيء لغيره، ويضر المجتمع للحصول على مراده، وعلى المجتمع ان لا يوصله إلى هذه الدرجة التي تجعل من الفرد شريراً ومفسداً للنظام العام لكي يحقق مآربه، إن هذا التشخيص للحالات الإنسانية التي يمر بها الفرد والتحذير من أخطارها هو قمة النضوج الفكري للظروف الاجتماعية وما يصاحبها من تبعات سلبية على الأفراد.

٧. الآداب الاجتماعية:

قال مولانا الحسن عليه السلام: إن الله عز وجل أدب نبيه أحسن الأدب، فقال ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾[2] فلما

---

(١) النظام السياسي في الإسلام، باقر القرشي، ص٢٤٧.

(٢) الأعراف: ١٩٩.

وعى الذي أمره قال تعالى ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُواْ﴾[1]. فقال لجبرائيل عليه السلام: وما العفو؟ قال: أن تصل من قطعك، وتعطي من حرمك، وتعفو عمن ظلمك، فلما فعل ذلك أوحى الله إليه ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[2].

وقال: السداد دفع المنكر بالمعروف، والشرف اصطناع العشيرة وحمل الجريرة، والمروءة العفاف وإصلاح المرء ماله، والرقة النظر في اليسير ومنع الحقير، واللؤم إحراز المرء نفسه وبذله عرسه، والسماحة البذل في العسر واليسر، والشح أن ترى ما في يديك شرفاً وما أنفقته تلفاً، والإخاء الوفاء في الشدة والرخاء، والجبن الجرأة على الصديق والنكول عن العدو، والغنيمة في التقوى والزهادة في الدنيا في الغنيمة البادرة، والحلم كظم الغيض وملك النفس والغنى بما قسم الله لها وإن قل، فإنما الغنى غنى النفس، الفقر شدة النفس في كل شيء، المنعة شدة البأس ومنازعة أشد الناس، الذل التضرع عند المصدوقة، الجرأة موافقة الأقران، الكلفة

---

(١) الحشر: ٧.

(٢) القلم: ٤.

كلامك فيما لا يعنيك، والمجد أن تعطي في العدم وأن تعفو عن طول الأناة، والإقرار بالولاية، والاحتراس من الناس بسوء الظن هو الحزم، السرور موافقة الإخوان وحفظ الجيران، السفه اتباع الدناة ومصاحبة الغواة، الغفلة تركك المسجد وطاعتك المفسد، الحرمان ترك حظك، وقد عرض عليك، السفيه الأحمق في ماله، المتهاون في عرضه، يُشتم فلا يجيب، المحترم بأمر عشيرته هو السيد[1].

إن العلاقات التي تجمع أفراد المجتمع ترتكز على أسس من القوانين والتي هي آلية التعامل المنظمة لشؤونهم، والعقائد هي الرابط الفكري الذي يوحد انتماءاتهم وتوجهاتهم، ويجمعهم على كلمة واحدة، أما الركيزة الثالثة فهي الآداب والأخلاق والتي تضفي روح التسامح والمحبة والمودة والمساعدة وبناء العلاقة لا على مبدأ المصلحة وضرورة الحاجة إلى الآخر التي توجب عليه التعاون وتقديم الخدمة لتمشية أمور المجتمع بل تكون مبدأها الرضا والدافع الذاتي للعمل، فالالتزام الخُلقي يعد هو الضمان لاستمرار

---

(١) العدد القوية لدفع المخاوف اليومية، علي بن يوسف الحلي، ٥٢، ح٦٣.

العلاقات ودوامها بانسجام عالٍ وانجذاب نفسي وروحي بالمصداقية في التعامل والتآخي بين المؤمنين والصفح والتسامح عن الإساءة والألفة بين الأفراد والرأفة والتعاطف ومداراة المشاعر وعدم التجريح والتودد وصلة الرحم وبر الوالدين وحفظ حقوق الجار وحسن الضيافة وغيرها من الصفات الخُلقية والأدبية في التعامل والتخاطب بين أفراد المجتمع، وهي مبادئ عامة للبشر، وليست خاصة بالمسلمين، ولكن الإسلام يعد هو المثل الأعلى للنظم الاجتماعية الإنسانية.

فمن شأن هذه الأخلاق الكريمة والمعاملات الحسنة توثيق العلاقات وتقوية الروابط وتعزيز الثقة بين الناس، فلو كان النظام العام للجماعة يتعامل وفقاً للقوانين والقواعد العامة فسيكون محكوماً بآلية جامدة، قد تسبب الحرج والضيق للأفراد، فالتعامل بالحقوق والواجبات يجعل المجتمع في زاوية ميتة، ويجعله مادياً يرتكز على ظاهر الأمور، لكن الآداب والأخلاق المهذبة والمؤدبة تعطي روحاً وحيوية ومرونة للمجتمع؛ ولذا عُني الإسلام بهذه المفردات عناية بالغة، تظهر من كلام الإمام الحسن عليه السلام بقوله (**إن الله**

عز وجل أدب نبيه أحسن الأدب) فالنبي صلى الله عليه وآله الفرد الأمثل والقدوة لجميع البشر والأنموذج البشري، جعله الله تعالى القياس والمعيار لإرادته تعالى في صفات خلقه الفاضلة، واستشهد الإمام الحسن عليه السلام بآية كريمة تتضمن بعض الصفات الخُلقية التي أمر بها الله تعالى النبي صلى الله عليه وآله **(خذ العفو، وأمر بالعرف، وأعرض عن الجاهلين)**، فنرى أن هذه الآية الكريمة تتعلق بالتعامل الاجتماعي وطبيعة العلاقات بين الناس من حيث العفو عن الإساءة والأمر بالمعروف وفعل الخير والاعراض عن الجاهلين الذين لا يملكون ديناً أو خلقاً في التعامل.

وقد اختزلت تلك الآية معاني كثيرة وكبيرة بكلمات قلائل تشرح طبيعة الإنسان المتقلبة، وتحول الرأي بسبب تغير القناعات أو سوء الفهم والتي يمكن إصلاحها بالتجاوز عن الخطأ وإعطاء الفرصة للمقابل لتصحيح مساره، وهذا التعامل الإيجابي الودود يفسح المجال، ويوسع مساحة الالتقاء بين الأفراد، ويقصر المسافة بينهم وهو علاج ناجع للأخطاء والمشاكل الاجتماعية وترجيح لغة العقل في اتخاذ القرار المناسب الذي يقرب، ولا يبعد، وبالمقابل هو

أمر بعدم الاكتراث لقليلي التعقل المتنازلين عن عقولهم والمتبعين لغرائزهم الحيوانية والرافضين للتحلي بالأدب والخلق الإسلامي والفطرة الإنسانية.

ثم يوشح الإمام الحسن الترقي في الإحاطة وجعله ظرفاً وحافظاً ومستودعاً للفضائل ومكارم الأخلاق أمر الله تعالى باتباع النبي محمد ﷺ والأخذ منه والتحلي بصفاته الفاضلة فقال: ﴿**وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْۚ**﴾، أي جعل لهم أنموذجاً وقدوة لأقوالهم وأفعالهم وسلوكهم، فصار منهاجاً لهم ومثالاً حياً لتجليات الله تعالى في الأدب والخلق العظيم.

ثم يشرع الإمام الحسن عليه السلام بتفسير معاني الآية الكريمة، فيسأل النبي ﷺ جبرئيل عن المراد بالعفو، فيجيبه (**أن تصل من قطعك**)، سواء كان قريباً أم صديقاً أم جاراً، أو أي فرد من أفراد مجتمعه، وهو توجيه نحو نبذ الخلافات ومخالفة النفس وهواها والتعامل من منطلق الحكمة والعقلانية، فمن أراد القطيعة وكسر أواصر التواصل وتحجيم العلاقات فإنه يحكم على الحالة الاجتماعية بالفصل والتفكك والانهيار، وهو نتيجة طبيعية إذا انقطعت العلاقات بين أفراد المجتمع.

وأيضاً استكمالاً لتفسير الآية في معنى العفو يقول الإمام الحسن عليه السلام **(وتعطي من حرمك)**، إن مقابلة الإساءة بالإحسان من أعلى درجات الرحمة والعفو والتسامح، فلعل فرداً في المجتمع قريباً أو بعيداً، لم يؤدِّ حق الأخوة الإنسانية، وحرمك من المساعدة المادية أو المعنوية بالقول أو بالموقف، فهذا لا يكون مدعاة لأن تعامله بالمثل، وإلا صرت وإياه بمستوى واحد، وهذا ما لا يريده الإسلام دين السلام والمحبة، بل يأمر بالتجاوز عن إساءة المقابل وإدخاله في حيز المودة والمحبة بداعي الإصلاح وحل الاشكال ونشر روح الإسلام الأصيل الذي يمثله محمد وآل محمد صلى الله عليه وآله.

فمن حرمك فبادر أنت بإعطائه وإكرامه للحفاظ على سلامة ذاتك من التلوث الذي وقع فيه الطرف المقابل، فالإنسان وإن صدرت منه بعض التصرفات المشينة، واتصف ببعض صفات الرذيلة إلا أن باب التوبة والإصلاح مفتوح، وتغير الحال ممكن ومقابلة السيئة بالسيئة يزيد الطين بلة، ويفاقم من المشكلة.

(وتعفو عمن ظلمك) إذ ظلم الإنسان لأخيه الإنسان وارد إذا تغلبت عليه غرائزه الحيوانية، وخرج عن دائرة الإنسانية والفطرة السليمة، وظلم الإنسان لأخيه أقبح أنواع الظلم وخلاف

قاعدة العدل الاجتماعي، فقد ورد عن الإمام الباقر عليه السلام أنه قال (**ما من أحد يظلم مظلمة إلا أخذه الله بها في نفسه وماله، فأما الظلم الذي بينه وبين الله فإذا تاب غفر له**)[1]، إن العدل والظلم معادلة تأسست عليها البشرية، والصراع بينهما يبقى قائماً، وأي مجتمع تنتصر فيه العدالة الاجتماعية يصير مجتمعاً فاضلاً، أما من غلب فيه الظلم على العدل فقد أصبح مجتمعاً شقياً بائساً فاسداً لا قيمة له، والعفو عن الظالم هو مبدأ قوة لا ضعف، وتمثل هذه الخطوة الثانية في سلم الترقي في المشروع الإلهي الأخلاقي لينتقل إلى مرحلة أخرى، فيقول الإمام الحسن عليه السلام (**فلما فعل ذلك -أي النبي صلى الله عليه وآله- أوحى الله إليه** ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾) أي بعد أن استكملت الفضائل الخُلقية والنفسية صار حجة على الناس وأنموذجاً حياً واضحاً ماثلاً أمامهم يمشون على سيرته، ويتبعونه لتحصيل الفضائل واستكمال النفس بالمعاني الخُلقية والتهذيبية.

ثم يبدأ الإمام الحسن عليه السلام بتعليم الناس كيفية تكوين علاقاتهم الاجتماعية على قواعد صحيحة ومتينة وقوية إذا التزم الناس بها وطبقوها، وهي مناهج تربوية لتربية وتعليم المجتمع أصول التعامل

---

(١) وسائل الشيعة، الحر العاملي، ١٦: ٤٧، ح٣.

البناء لصناعة مجتمعهم الفاضل وتنميته بمكارم الأخلاق، فالسداد للمجتمع بدفع المنكر من القول والسلوك المشين بالمعروف والخير والصلاح، والبدء بصناعة المجتمع الصالح السليم يكون بتكوين نواة صالحة هي الأسرة، ثم توسيع دائرتها بالأقربين واصطناع العشيرة بمفهومها الإسلامي المتحضر، وهذه العشيرة التي كونها الفرد يجب عليه تحمل أعبائها من تحمل جريرتها والحفاظ عليها وإدامة زخمها والنهوض بها إلى مستوى الأمة الصالحة.

ومن مقومات المجتمع الناجح شعور الفرد بإنسانيته والتعامل مع أفراد عشيرته أو قبيلته أو أمته من منطلق ذات الإنسان المجبول على الخير والمحبة والصلاح، وهي تمام المروة التي تقتضي العفاف وإصلاح المال، أي الاهتمام بالنمط الخارجي للإنسان إضافة للمحتوى الداخلي.

ومن مكملات المروة أن لا يكون الفرد دنيء النفس إذا أعطى يعطي اليسير، وإذا منع يمنع ولو كان شيئاً قليلاً، فيكون فرداً غير بناء اجتماعياً، يأخذ، ولا يعطي، وهو خلاف أصول التعامل الرشيد الواعي لطبيعة المجتمع، وكذلك التجرد من اللؤم الذي يضع الفرد

ومـن يخصـه في دائـرة ضـيقة مبتعـداً عـن مجتمعـه غـير متفاعـل معـه، لا يـرى نفسـه ضـمن الجماعـة، وهـو ضـعف لـه، وإضـعاف للمجتمـع الذي يبنـى عـلى التكافـل والتضـامن، بـل عليـه أن يكـون سـمحاً بـاذلاً مـا عنـده معنويـاً وماديـاً، فالعلاقـات الاجتماعيـة تبادليـة وتخادميـة، يحمـل كـل فـرد فيـه جـزءً مـن المسـؤولية وفي جميـع الظـروف العسـيرة واليسـيرة، وعـدم البخـل عـلى المجتمـع وتقـديم نفسـه عـلى أنـه عنصـر إيجـابي شريـف بفعلـه ومواقفـه، لا يمنـع أحـداً مـن العطـاء مهـما كـان، وأن لا ينظـر إلى مـا بـذل، فلـيس العطـاء بكميتـه وحجمـه، بـل بقـدر نفس المعطي وحبـه ومودتـه وإخلاصـه في العطـاء. والتأكيـد عـلى معنـى الأخـوة الإيمانيـة، والتـي هـي الضـمان الحقيقـي لقـوة العلاقـات الاجتماعيـة وصـلابتها، ومـن أبـرز صـفات الأخـوة الوفـاء والإخـلاص لأخيه الإنسـاني وفي جميـع حالاتـه ممـا يـوفر جـواً مـن العاطفـة والسـلام بين أفراد المجتمع.

ومـن سـيئات الفـرد والمجتمـع حالـة الجـبن التـي إذا سـادت المجتمـع أصـابته بالإحبـاط والهزيمـة النفسـية والخارجيـة، ومـن أشـد أنواع الجـبن تجـرؤ الفـرد عـلى صـديقه ونكولـه عـن عـدوه، وهـو حالـة

إنسانية قاسية، تسيء للعلاقة الأخوية بين الأفراد، فعلى الإنسان أن يتحلى بالتقوى وحسن الظن بالآخرين والالتزام بمنهاج الشريعة ونظام الدين، فإن الغنيمة في التقوى عن المحارم التي يحرمها الله والعرف الإنساني والزهد في الدنيا وبهرجتها المصطنعة؛ لأنها آيلة إلى الزوال.

ومن أسباب استمرار العلاقات وعدم فك وثاقها هو المسامحة والتجاوز عن أخطاء الغير التي تحدث بسبب سوء الفهم أو عدم حسن التصرف، وأن لا يكون رد الفعل بالفعل نفسه، وإنما على الفرد التعالي على غرائزه الغضبية، وأن يكون أكبر من الموقف الذي قد يؤدي إلى فقدان أخ أو صديق هو من مكملات شخصيته الاجتماعية المقترنة بباقي الأفراد على وجه التكامل الجماعي، فكظم الغيظ هو علاج لتلك السلبية الناخرة في الجسد الاجتماعي، وهي أعلى مراتب الحلم الإنساني، والذي مارسه أهل البيت عليهم السلام وعلى الخصوص الإمام الحسن عليه السلام بأعلى درجاته وأعمق مضامينه.

فعلى المجتمع أن يعي من خلال أفراده أن تألقه وسموه ليس بالماديات وكمية ونوع ما يملك الفرد، وإنما الغنى الحقيقي أن يملك

الفـرد نفسـاً قانعـة وعقـلاً راجحـاً، يـرى الأمـور عـلى حقائقهـا وأن شخصية الفـرد لا تحـددها القيمـة الماليـة، بـل القيمـة الخُلقيـة والروحيـة المتـوافرة فيـه، وهـي المكسـب الحقيقـي للفـرد والمجتمـع، وبخلافـه فـإن فقـر الـنفس، ذلـك الـداء العظـيم والقاتـل لروحيـة وشخصـية الفـرد حتـى يصـبح لا يـرى مـا يشـبع نهمـه في اقتنـاء الأشـياء، فيسـبب أزمـة اقتصادية وأخلاقية اجتماعية، ويكون عبئاً ثقيلاً على الناس.

ومـن المعـاني الأخلاقيـة التـي نتبـع فيهـا أثـر الرسـول الكـريم ﷺ في خلقـه العظـيم الـذي شـفى بـه صـدور القـوم، وخلصـهم مـن بـراثن الأحقـاد والضـغائن والكراهيـة، وأدبهـم بـأدب المحبـة والمـودة والتسـامح والـبر والإخـلاص والكـرم والشـجاعة في سـبيل تحقيـق العدالـة الاجتماعيـة ومـن أي أحـد مـن التعـدي عـلى حقـوق الغـير، فـالفرد الشـجاع في تحمـل المسـؤولية والـذب عـن حرمـة المجتمـع والدفاع عن سـلامته مـن الاعتـداء وإن كـان شـديداً أو ذا سـلطان، فـإن مـن واجـب الفـرد والمجتمـع التصـدي بحـزم وقـوة وعـدم التراجـع والتسليم للعـدو، فالشـجاعة تكمـن في الـدفاع عـن أمتـه وناسـه وكيانـه الاجتماعـي ومنـع أي جهـة عسـكرية أو مدنيـة في سـلب حقـوقهم في

الأمـان والحيـاة المسـتقرة، فـإن الله خلـق الإنسـان، وكرمـه، وجعلـه عزيـزاً، وأمـر بحفـظ كرامتـه وعـدم إذلالـه، وتلـك صـفة مهمـة في بنـاء الإنسـان صـحيحاً محترمـاً؛ لأن اذلال الفـرد عواقبُـه وخيمـة وأثـره يتعدى الفـرد إلى المجتمـع، وفيـه تتشـكل عقـدة اجتماعيـة تعقـد مشـهده وتبطئ وتيرة النمو فيه.

لا شـك أن لكـل فـرد رأي مسـتقل، وكـل رأي يكـون محترمـاً إن كـان صـادراً عـن عقـل رشـيد وناضـج، ويمثـل رأيـه فكـرة اجتماعيـة وإضـافة للفكـر الإنسـاني الحـر، ولكـن يجـب أن يكـون ذلـك الـرأي موافقاً ومنسجماً مـع الـرأي العـام غـير خـارج عنـه، فهـو يمثـل المقدمـة لسـلوك المجتمـع، فـإذا اختلفـت الآراء اختلفـت سـلوكيات الجماعـة، وبذلك سيحدث خلـل في الحركـة العامـة للأمـة، وموافقـة الفـرد أقرانـه في الـرأي يحتـاج إلى جـرأة في تطويـع الـنفس لاقترانهـا مـع بـاقي الأفـراد والخروج برأي موحد.

على المـرء أن يرسـم لنفسـه حـدوداً اجتماعيـة والالتـزام بهـا خُلقيـاً ومراعاة الذوق العـام، فلكـل شيء أصـول تبـانى عليهـا المجتمـع، ومـن ذلـك عـدم التـدخل في شـؤون الآخـرين مـن غـير الطلـب منـه في

التدخل، فإنه من التكلف الزائد الذي يثير الآخرين، ومن آداب الكلام أن لا يتكلم أحد إلا أن يطلب منه الكلام، فعلى الشخص تأديب نفسه في علاقته مع الناس.

ومن علو شأن الإنسان الصالح والفاضل الاعتناء بمن حوله من الناس والتعاطي معهم وإكرامهم، وإن كان معدماً فالعطاء اليسير أولى من المنع عن المحتاج، وذلك يضيف مجداً للمعطي وكرامة له، وأن يعفو عن الإساءة الصادرة من الناس، فيعزز مكانته في نفوسهم.

ومن الآداب الاجتماعية احترام العقد بين الحاكم والناس والإقرار بولايته عليهم، فلا يستقيم المجتمع إلا إذا أطاع، واتبع وليه، وفي عقيدة أتباع أهل البيت عليهم السلام أن الولي والحاكم هو الإمام المعصوم، واتباعه واجب، فاختياره من الله تعالى، وأمر الناس بتقليده وطاعته.

لا يخلو أي مجتمع من السلبيات كما أن فيه إيجابيات والفرد بين هذين الأمرين يقع في أزمة ثقة اجتماعية، فعليه أن يكون على حذر والاحتراس من الناس والفطنة بهم حتى لا يقع عرضة

لسلبياتهم، فيتأثر بهم، وتسوء أخلاقه، فيرجع مردودها على الجميع، وذلك من صفات الفرد الحازم في علاقاته الاجتماعية، وأن يكون سوء الظن حاضراً في تعاملاته ولطبيعة اختياره للأفراد الصالحين.

إن من سرور الفرد أن يكون متوافقاً مع مجتمعه منصهراً في بودقة الحضن الاجتماعي الذي يجمع كل الناس على قلب واحد، يحب لهم ما يحب لنفسه، ويكره لهم ما يكره لنفسه، فهو بذلك يستشعر إنسانيته واستئناسه بهم، ولعل من أقرب الفئات الاجتماعية هو الجار، والذي أوجب له الإسلام الكثير من الحقوق، والالتزام بها ضرورة دينية واجتماعية؛ إذ إن طبيعة العلاقات الجماعية تتشكل من عدة دوائر، والجار يدخل في أخص تلك الدوائر في الحياة المعاشة، فالحفاظ على الجار وتأدية حقوقه من أسباب سعادة الناس، وقد ورد في رسالة الحقوق للإمام علي بن الحسين زين العابدين عليه السلام، قال: (**وأما حق جارك فحفظه غائباً، وإكرامه شاهداً، ونصرته إذا كان مظلوماً، ولا تتبع له عورة، فإن علمت عليه سوءاً سترته عليه، وإن علمت أنه يقبل نصيحتك نصحته فيما بينك وبينه، ولا تسلمه عند شدائده، وتقيل عثرته،**

وتغفر ذنبه، وتعاشره معاشرة كريمة، ولا تدخر حلمك عنه إذا جهل عليك، ولا تخرج أن تكون سلماً له ترد عنه لسان الشتيمة وتبطل فيه كيد حامل النصيحة، ولا حول ولا قوة إلا بالله)[1] هذه هي ثقافة أهل البيت عليهم السلام لصناعة الإنسان الحامل لصفات الفضل والإحسان والخير والصلاح والفطرة السليمة.

وينبه الإمام الحسن عليه السلام في سلسلة الأخلاق الاجتماعية، ومنها السفه وقلة العقل التي تصيب بعض الأفراد، فيفقد توازنه الاجتماعي، فيكون تبعاً لأراذل القوم الرامين إلى خلخلة الوضع المستقر للجماعة ونشر المفاهيم الفاسدة، ولا يحسن التعامل في علاقته مع إخوانه المسرف في ماله المستهين بقيمه الاجتماعية والإنسانية، وعلى العكس منه من يحفظ تقاليد الجماعة، ويحمل عقلاً متكاملاً بأخلاق القرآن وأهل البيت عليهم السلام ومطبقاً لتلك التعاليم التي ترفع من شأنه النفسي والاجتماعي، فيغدو سيداً في قومه وقائداً في أمته عاملاً لكل خير، ولافظاً لكل شر، المتجاوز عن عثرات الناس للحفاظ على المنظومة الخُلقية الاجتماعية من التلوث، ويبقى ناصعاً

---

(١) جامع أحاديث الشيعة، البروجردي، ١٤: ١١٥، ح٣١.

حياً بأدبياته وممارساته السلوكية الخيرة ضمن مجتمع سعيد، تتغلب فيه صفاته وملامحه الخُلقية على سمات الشر والفساد.

هذه جملة من المفاهيم والتعاليم الخُلقية التي يبثها الإمام الحسن عليه السلام في أواسط الأمة متخذاً من جده رسول الله صلى الله عليه وآله الأسوة الحسنة للمسلمين والناس عموماً، فمن أراد صناعة مجتمع مستكمل للمناقب والفضائل فعليه أن يسلك طريق الحق الذي جعله الله تعالى للناس بواسطة النبي محمد صلى الله عليه وآله الذي اختار، واصطفاه رحمة للعالمين، وجعله الأنموذج الإنساني، وأمر بمتابعته والاقتداء بأخلاقه، فهو صنيعة ربه.

لا بد لأي أمة أن تتجه نحو استكمال الأخلاق الكريمة والآداب العملية لبناء علاقات صحيحة، لا تعتمد على القوانين فقط؛ لأنها لا تتعدى كونها منظمة لشؤون الناس، أما الأخلاق التي هي المحور الارتكازي الثالث للإسلام الذي يزود الفرد بالطاقة الروحية التي تهيئ الفرد، وتبحث فيه روح العمل الذاتي نحو عمل الخير وضبط النفس ومخالفة الهوى كي يسير النظام الاجتماعي بمسيرة مستقيمة بمرونة وسلاسة، وهذا من أبرز محاور القوة في العلاقات الاجتماعية ونبراس من فكر الإمام الحسن عليه السلام.

٨- الحث على طلب العلم وحفظه:

ورد عن الإمام الحسن عليه السلام أنه دعا بنيه وبني أخيه، فقال:

(إنكم صغار قوم، ويوشك أن تكونوا كبار قوم آخرين، فتعلموا العلم، فمن يستطع منكم أن يحفظه فليكتبه، وليضعه في بيته)[1].

أعطى أهل البيت عليهم السلام في كلماتهم أهمية كبيرة وبالغة للعلم ولطلب العلم، فلا يمكن أن يتطور أي مجتمع إذا لم يتقدم علمياً والذي مارسه الأئمة الأطهار على طول مسيرة حياتهم الشريفة، ولا يختص بمجال معين، فجميع العلوم مكملة لبعضها، وتبني الإنسان بناءً متكاملاً، فقد قسم الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام العلم إلى قسمين، فيقول **(العلم علمان، علم الأديان وعلم الأبدان)** أي أن العلوم منها ما يختص بعقيدة الإنسان وآدابه وأخلاقه وتربيته النفسية، وأخرى تتعلق بالعمران المدني في مختلف الحرف والصناعات والتخصصات العلمية، والإمام الحسن عليه السلام يشير في مقولته إلى هذا المعنى، أي جميع العلوم المتعلقة بالإنسان،

---

(١) منية المريد، الشهيد الثاني، ص٣٤٠.

فرداً كان أم مجتمعاً، فالكل يحتاج إلى المادة العلمية الروحية والبدنية، ويشجع على التعلم، فلا يمكن بناء حضارة أو مجتمع إلا على أساس علمي يطور قابليات الفرد والمجتمع لتثقيفه بمختلف الثقافات، وأبرزها الثقافة الاجتماعية المقومة لمستوى التفكير الذي به يتعامل أفراد المجتمع مع بعضهم برقي ورفع الروح المعنوية المتولدة من تهذيب الفرد والمجتمع والعناية بعلم الشريعة الذي أكد عليه أهل البيت عليهم السلام فقد ورد عن الإمام الرضا عليه السلام عن أمير المؤمنين عليه السلام عن رسول الله صلى الله عليه وآله، قال: (**طلب العلم فريضة على كل مسلم، به يطاع الرب، وبه توصل الأرحام، وبه يعرف الحلال والحرام، العلم إمام العمل، والعمل تابعه، يلهمه السعداء، ويحرمه الاشقياء**)[1].

فللعلم منزلة رفيعة، وقد أسس أئمة أهل البيت عليهم السلام لقواعد العلوم، وأنشأوا مدارس علمية متنوعة، فقد عرف عن الإمام الصادق تنوع دروسه وعنايته بمختلف العلوم، فبعض تلامذته اختص بعلم الكلام، والبعض الآخر بعلم الحديث وكذلك بالكيمياء والبصريات وعلم الهيأة، فشجعوا، ودعموا طلاب

---

(١) الأمالي، الطوسي، ص٤٨٨.

العلم، إضافة إلى الثقافة التي نظروا لها، ومارسوها كالثقافة الاجتماعية والاقتصادية وثقافة الحوار والمناظرة والدعاء وغيرها، وواجهوا التيارات الإلحادية والتكفيرية بالحجج والأدلة العلمية، فنهضوا بواقع الأمة الإسلامية التي انتقلت من مرحلة الجهل والجاهلية إلى مصاف الأمم المتحضرة والواعية والمثقفة.

يرشد الإمام الحسن عليه السلام في خطابه إلى بنيه إلى ثقافة اجتماعية واقعية وموضوعية حيث يصفهم بأنهم الجيل الصاعد، والذي سيتحمل المسؤولية في المستقبل، فعليه أن يكون مؤهلاً لقيادة المجتمع برصانة وفطنة، ولا يكون هذا إلا بالتعلم وكسب المعرفة، فيقول لهم الإمام الحسن عليه السلام: إنكم الآن في مرحلة الصغر والصبا، لكم قدوة في كباركم في اكتساب خبرتهم وعلومهم وتجاربهم الحياتية، فإن مرحلة الصغر لا تدون، وستنتقلون إلى مرحلة أخرى هي مرحلة الكبر، وستسلم لكم دفة القيادة، وهي تحتاج إلى الحكمة والحنكة في التعامل والعمل والتفاعل مع المجتمع وأخذ دوركم في بنائه وعمرانه، فهي سلسلة متواصلة، يسلم كل جيل صاعد الرسالة إلى من بعده لإكمال مسيرة الحياة بتناغم وانسجام وفق

الشريعة الإلهية والطبيعة الإنسانية، وهي من أجمل الوصايا التي تتركب من موضوعين، الأول تربوي، والثاني تعليمي، وفيه جنبة نفسية فلسفية لتهيئة المجتمع في معرفة ما له وما عليه من الحقوق والواجبات المتعلقة بصيانة الفرد والمجتمع، وهي أيضاً رسالة رائعة لإعطاء الشباب دورهم الحقيقي في ممارسة حقهم الاجتماعي في المشاركة بصناعة مجتمع فاضل متكامل بتكافل كل الفئات، سواء كانوا كباراً أم صغاراً، رجالاً أم نساءاً، فلكل واحد دور وواجب مناط إليه.

ثم يرشد الإمام الحسن عليه السلام إلى طريقة التعلم وتفاوت مستويات المتعلمين، فمن يستطع التعلم عن طريق الحفظ فليفعل، وليكتب ما حفظه؛ لأنه معرض للنسيان، فإذا ذهبت المعلومة فإنها قد لا تعود، وبهذا فإن السلسلة العلمية سوف لن تتكامل، فعليه كتابته وحفظ الكتابة في البيت دلالة على مزيد الاهتمام بالمعلومة وبيان قيمتها، فإن المعلومة رزق من الله إذا لم يُحتفظ بها، فإنها سوف تندثر، ونرى أن الإمام الحسن عليه السلام جمع أكثر من محور اجتماعي في هذه المقطوعة الكلامية المتألقة، ففيها ناحية تربوية من حيث العناية بالجيل الصاعد خُلقياً وعدم إهمالهم واحترام آرائهم وقدراتهم وأن

لا نستبد برأينا على حسابهم وتوجيههم التوجيه الصحيح وإرشادهم لما فيه الصلاح.

ومن وجهة أخرى يربط الإمام الحسن عليه السلام الشباب بضرورة العلم والتعلم، وأنه الطريق لتحقيق أهدافهم وطموحاتهم وصناعة الخير والمنفعة للمجتمع، ويرسم لهم الطريق الصحيح لمنهج التعلم وكيفية حفظ المعلومات، ومن زاوية أخرى يعلمنا الإمام الحسن عليه السلام كيفية التعامل في العلاقات الأسرية ودور الأب في توجيه أبناءه وإرشادهم وتحمل مسؤوليته أمام أسرته، فهي الخلية الأولى والأصيلة لبناء المجتمع الفاضل، بل هي المجتمع بذاته، ولكن بصورة مصغرة.

ويعالج الإمام الحسن عليه السلام حالة نفسية من تبديد مخاوف الطفل في عدم قدرته على أخذ دوره بالحياة، وأن يكون عنصراً نبيلاً وحراً وفعالاً في مجتمعه، ويعطي صورة لما يجب أن يكون عليه الأب في طبيعة السلطة الممنوحة له بأن لا يكون مستبداً في أسرته وتوزيع الأدوار على أفراد الأسرة، وأن يكون داعماً حقيقياً لهم، لا أن يكون جداراً عازلاً ضد حرية فكرهم وإحاطتهم بسور من العنف والضغط النفسي ومسخ شخصيتهم.

إذن جمع الإمام الحسن عليه السلام كل هذه المعاني الإنسانية والدينية والخُلقية والاجتماعية في كلماته القليلة هذه، وهو درس للناس عبر الأجيال للاستفادة من مواعظه وفكره الإسلامي والإنساني والعلمي.

٩- أدب التهنئة:

عن الحسن بن علي عليه السلام أنه رزق غلاماً، فأتته قريش تهنئه، فقالوا: يهنيك الفارس، فقال: (**أي شيء هذا من القول؟ ولعله يكون راجلاً، فقال له جابر: كيف تقول يا ابن رسول الله؟ فقال: إذا ولد لأحدكم غلام، فأتيتموه، فقولوا له: شكرت الواهب، وبورك لك في الموهوب، وبلغ الله به أشده، ورزقك بره**)[1].

إن أئمة أهل البيت عليهم السلام لم يتركوا أدق التفاصيل إلا وقد نظروا لها، وعملوا على تطبيقها وتربية الناس عليها، ومن تلك التفاصيل الاجتماعية في أدبيات الناس والكلمات المتداولة بينهم في علاقاتهم الاجتماعية وتخليص المجتمع من رواسب الجاهلية المتجذرة في نفوسهم وثقافاتهم، فكانوا يبادرون في أي مناسبة لبث الفكر

---

(١) تحف العقول، ابن شعبة الحراني، ص١٦٦.

الإسلامي الصحيح وتنبيه الناس إلى أن الرسالة الإسلامية هي رسالة السلام والمحبة والتسامح، وكان العرب عبارة عن قبائل متناحرة، وعندما جاء الإسلام الذي حمله نبي الرحمة محمد ﷺ عمل على تمدين تلك القبائل، وأفضل مثال هو المدينة المنورة التي كان يسكنها قبيلتان هي من أكبر القبائل، وهي الأوس والخزرج، وكان بينهما حرب قائمة وصراع دامٍ فتصالحا ببركة رسول الله ﷺ، وحول اسم يثرب إلى المدينة المنورة، وحول أسلوب حياتها إلى المدينة الفاضلة القائمة على أساس المحبة والقوانين الإلهية.

وأكمل الإمام الحسن عليه السلام الذي هو امتداد لجده المصطفى ﷺ مسيرة جده في نشر الثقافة الإسلامية وبيان الأحكام الدينية وانتشال المجتمع مما علق في ذاكرته من أدبيات الماضي، فعندما هنأ أحدهم بمولود له بقوله (**يهنيك الفارس**) معتمداً على ثقافته في عسكرة المجتمع، فما كان من الإمام الحسن عليه السلام إلا أن يرد عليه برد منطقي وعقلاني بقوله (**ولعله يكون راجلاً**) أي أن المجتمع ليس محلاً للحرب كما هي نوازعهم الداخلية، بل مكاناً للعمران المدني، محوره الإنسان الحامل لعقيدة صحيحة وإيمان بالقوانين الإلهية

وقدرة الله وعظمته التي تمنح الفرد المشروعية في عمله والسعادة في حياته.

ثم يبدأ الإمام الحسن عليه السلام بتعليمهم المنهج الجديد في الثقافة الاجتماعية المرتبطة بالدين الإسلامي مبتدئاً بتعليمهم الشكر لواهب النعم ومقسم الأرزاق والمعطي لعباده مسائلهم والمجيب لدعواتهم وهو الله تعالى، ثم التهنئة بالمباركة للمولود الذي وهبه الله له وأن يكون برعايته وحرزه، ثم الدعاء للمولود نفسه بأن يبلغ أشده في العقل والجسم ليكون عنصراً فاعلاً وإيجابياً ضمن الجماعة الصالحة وأن يكون باراً بوالديه، فإنها مما أمر الله به من مكارم الأخلاق، وذلك سبب لتقوية الترابط الأسري، فبر الوالدين فرع الإيمان بالله تعالى وبدينه ونظامه الذي وضعه للبشر كافة، وقد جمعت هذه الدعوة عدة أشكال من العلاقات الاجتماعية، شملت علاقة الفرد مع ربه وعلاقة الوالد مع ولده وعلاقة الولد مع والده، فالبناء الصحيح يتقوم بإيمان الفرد بالله تعالى والانطلاق من هذه العلاقة الحقيقية إلى باقي العلاقات الأسرية، لأن المجتمع الذي

يـرتبط بـالله، ويطبـق أحكامـه لا شـك أنـه يصـل إلى الفضـيلة والكـمال النفساني ولو من أبسط التفاصيل.

هكـذا يعلمنـا الإمـام الحسـن عليه السلام أن العلاقـات الاجتماعيـة كلهـا، صـغيرها وكبيرهـا، يرجـع إلى حقيقـة أن مـن وهـب الحيـاة، وعلـم الإنسان، وأرشده إلى طريـق الصـواب باتبـاع أنبيائـه ورسـله هـم الأئمـة الأطهـار الـذين هـم الصـراط المسـتقيم والحجـة عـلى النـاس بـأقوالهم وأفعالهم وآثـارهم عـلى نفـوس النـاس، وهـم قـد عايشـوا المجتمـع عـلى أنهم أفراد منـه لتصـحيح طريقـة حيـاة النـاس ووضـع قـاموس كلامهـم وتشـييد صرح الدولـة الإسـلامية الأصـيلة بفكـرهم وأعمالهـم التـي ملكـوا بهـا قلـوب النـاس وعقـولهم، مسـتثمرين أي مناسـبة وإن كانـت بسـيطة موضـوعاً للتهنئـة بـالمولود لنشـر الفكـر النقـي الصـحيح وتجريد الناس من نزعاتهم النفسية المتعلقة بالماديات.

وقـد بـين الإمـام الحسـن عليه السلام أيضـاً مفـردة مـن مفـردات حسـن التعامـل بـين أفـراد المجتمـع الـذي يزيـد المـودة، ويحـافظ عـلى كيـانهم بإطار من الاحترام والتواصل البريء من أي مصلحة شخصية.

كانت هذه بعض الإشارات الاجتماعية وملامح من الفكر الاجتماعي للإمام الحسن عليه السلام في تنظيم العلاقات الاجتماعية وتهذيبها والمتتبع لكلمات الإمام الحسن عليه السلام يجد كثيراً منها، وهي مما يغفل عنه الكثير في قراءته لكلمات وأقوال المعصومين عليهم السلام وعدم الالتفات، إلا إلى بعض الجوانب من البلاغة والموعظة والأخلاق في حين أنها حافلة بالأفكار العلمية التي إلى الآن لم يصل العالم إلى قواعدها كعلم الاجتماع الذي عمل عليه النبي صلى الله عليه وآله وأهل بيته الطاهرين عليهم السلام منذ مئات السنين، ولكن لم تستثمر أفكارهم وأقوالهم في تنمية قدرات الأمة للنهوض بواقعها المزري.

فعلى جميع أفراد المجتمع العناية بأقوال أهل البيت عليهم السلام لصناعة مجتمع يحمل الفكر الإسلامي منهجاً وتطبيقاً عملياً، يكون طريقاً لحياة سعيدة وآمنة ومؤمنة، تتحقق فيها العدالة والمساواة والحرية الشخصية والاجتماعية، وتكون أنموذجاً صارخاً لكل من يشكك بقدرة الإسلام على مواكبة التطور البشري والتنظيم الاجتماعي.

التكافل الاجتماعي:

أحد أبرز أسباب نجاح أي مجتمع في علاقاته وامتداد عمره وقوته هو التواصل بين أفراده، ويعد سبباً رئيساً في رفع مستوى المجتمع الاقتصادي والقضاء على الفقر وتحقيق المساواة بين شرائح المجتمع لنبذ الطبقية والعبودية الحاصلة من التفاوت المادي في رؤوس الأموال بين الناس (**والصورة الإسلامية للعدالة الاجتماعية تحتوي على مبدأين عامين، لكل منهما خطوطه وتفصيلاته: أحدهما مبدأ التكافل العام، والآخر مبدأ التوازن الاجتماعي، وفي التكافل والتوازن بمفهومها الإسلامي تحقق القيم الاجتماعي العادلة، ويوجد المثل الإسلامي للعدالة الاجتماعية**)[1] والتكافل يكون على نوعين، الأول ضمن الأحكام الشرعية من تشريع الزكاة والكفارات والصدقات التي توزع على الفقراء والمساكين والمحتاجين، والثاني يكون تبرعياً من مساعدة الأغنياء للفقراء بداعي الأجر وتحصيل الثواب والشعور بالمسؤولية الاجتماعية اتجاه

---

(١) اقتصادنا، محمد باقر الصدر، ص٢٨٩.

باقي الأفراد، فيبادر كل فرد بالبذل والعطاء مما عنده، سواء كان العطاء كثيراً أم قليلاً، المهم أنه يشارك أخاه الإنسان ملكيته الخاصة، وهو أرقى معاني التكافل الاجتماعي الإنساني.

أي أن الفرد يكون بين عمل عبادي في التخريج من أمواله أو دافع إنساني خُلقي اتجاه ابن جلدته بنحو واع في تحقيق غاية البشرية في العيش بسلام وأمان واحترام، فالثروة الطبيعية منحها الله للبشر، وسلطهم عليها على أن يكون توزيعها عادلاً ومتوازناً لضمان الكيان الاجتماعي بالحث على الاتفاق الطوعي في وجوه الخير، وهو أيضاً كفيل برفع وتطوير ونمو المجتمع اقتصادياً وخُلقياً، وفيه تعشيق لفئات المجتمع مع بعضها والإحساس الجماعي بالمسؤولية والشعور بمعاناة الآخرين، وقد عمل النبي صلى الله عليه وآله والأئمة الأطهار على تدعيم هذه المعاني وترسيخها بأقوالهم وتطبيقها مباشرة مع الأمة، فكانوا أئمة المجتمع في ممارساتهم التكافلية والتضامنية، وقد اشتهر الإمام الحسن المجتبى عليه السلام برعايته للأمة، وهو الذي قاسم ماله مراراً مع الفقراء والمحتاجين، وفيه تربية نفسية وسلوكية بالحذر من التمسك بالماديات وتعلق النفس

بهـا وتجريـدها وتمرينهـا عـلى مفارقـة الماديـات، فيجعـل مـن الفـرد شخصية معنوية أكثر من كونها مادية.

وقد ورد عـن الإمـام الحسـن عليه السلام قولـه في جـواب عـن سـؤال أبيـه أمـير المـؤمنين عليه السلام عـن الفقـر قـائلاً لـه: مـا الفقـر؟ قـال: (**الحـرص والشره**).

ربـما مـن أعقـد المشـاكل التـي يواجهـا أي مجتمـع هـو الفقـر والبطالة وسـوء توزيـع الثـروات ممـا يحيـل المجتمـع إلى شرائـح متفاوتـة في إمكاناتهـا الماليـة، وبالتـالي ظهـور طبقـات فقـيرة ومعـوزة، وهـذه الطبقات إضـافة إلى حاجتهـا الماديـة، فإنهـا سـتعاني مـن مشـاكل نفسـية، يـنعكس تأثيرهـا عـلى المجتمـع كافـة، وقـد عـالج الإسـلام كـلا المشـكلتين قانونيـاً وخُلقيـاً ووضـع الحلـول المناسـبة مـع حـرص الإسـلام عـلى التـوازن المـالي في المجتمـع، وهـذا التـوازن لا يعنـي انتفـاء التفـاوت في الثـراء، فهـذا مسـتحيل؛ لأن النـاس يتفـاوتون في التفكـير والصـحة والمجـال والقـوة واللـون والصـوت ويتفـاوتون في كثـير مـن أمور الحياة[1]، فـالفقر آفـة المجتمعـات إذا اسـتفحل فيهـا أفقـدها توازنهـا

(١) المجتمع الإسلامي، أحمد شبلي، ص٥٩، ط٢، مصر ١٩٦٣.

وطغى عليها الفساد، وساهم أهل البيت عليهم السلام بنحو كبير برفع المظلومية والحيف والحاجة عن الناس للحفاظ على الكينونة الإنسانية من أي انحراف أو تشوه قد يصيبها إذا شعر الفرد بتخلي المجتمع عنه، فحينها سينقلب إلى حالة اجتماعية معادية لأخلاقه وأعرافه.

ومن يتابع سيرة الإمام الحسن المجتبى عليه السلام يشاهد مواقف عديدة تبرز الجانب التكافلي جلياً، فقد حرص الإمام الحسن عليه السلام على سد حاجة الفقراء خصوصاً أن عصره شهد حرباً اقتصادية على أتباعه وعلى الدولة الإسلامية من قبل الفئات الأخرى مثل معاوية الذي حاول تجويع الأمة للرضوخ إلى إرادته، ولكن الإمام الحسن عليه السلام احتوى تلك الحرب بفكره الاقتصادي والاجتماعي مما أفشل تلك المخططات وأوهنها ودفع بشرِّهم عن الأمة بموازنة أفرادها مالياً ونشر العدالة في توزيع ثروات الأمة، وقد شخص الإمام الحسن عليه السلام مشكلة الفقر بمفردتين تدخلان في صميم الحياة اليومية والتعامل بين الأفراد، وهما الحرص والشره، فالحرص من شأنه احتكار الأموال وتقليل المنفعة الحاصلة من التصرف بها،

والسيولة المالية مهمة في الحركة الاقتصادية للمجتمع، ومنعها يسبب التضييق على باقي الأفراد في الحصول عليها، وتبقى محصورة عند أفراد محددين، والنتيجة تكون تسبيب الفقر الاجتماعي، أما الشره فهو حالة نفسانية تدعو صاحبها للحصول على أكبر قدر ممكن من المال حتى لو استوجب ذلك التعدي على حقوق الآخرين ومنعهم منها، فيستولي على فرص الآخرين في الحصول على الثروة وتسبيب الفقر.

إذن تشخيص الإمام الحسن عليه السلام واقعي وموضوعي، ينطلق من هواجس الفرد المريضة في الامتلاك وجمع الثروة على حساب الآخرين.

التكافل العلمي والمعرفي:

وفي رواية أخرى عن الإمام الحسن عليه السلام في موضوع التكافل الاجتماعي وتحمل المسؤولية، يقول عليه السلام: (**فضل كافل يتيم آل محمد المنقطع عن مواليه الناشب في رتبة الجهل يخرجه من جهله، ويوضح**

لـه مـا اشـتبه عليـه عـلى فضـل كافـل يتـيم يطعمـه، ويسـقيه كفضـل الشمس على السهى)[١].

لا تقتصـر الكفالـة عـلى الناحيـة الماديـة فقـط، بـل تتعـداها إلى مدار أوسـع وأبعـد، وهـو الكفالـة المعنويـة والرعايـة الأبويـة والتكافـل العلمـي والثقـافي، فيحـرص الإسـلام عـلى نقـاء وصـفاء العقيـدة، ويحـول بـين عقيـدة الإنسـان ولوثـات المنحـرفين وذوي الأهـواء والأضـاليل إيمانـاً بـالله وكتبـه وأنبيـاءه بعيـداً عـن الانحـراف والتغيـير والتبـديل وفي حيـاة الإنسـان الخاصـة، فقـد حرصـت تعـاليم الإسـلام عـلى أن يكـون الإنسـان في خلقـه ومسـلكه متزنـاً متوسـطاً؛ وذلـك لأن الأصـل في الإنسـان أن يكـون متوازنـاً لـيس في أخلاقـه تغليـب لجانـب عـلى آخـر ولا في مسـلكه انحـراف، فمـن التـوازن في الخلـق أن يكـون المسلم عدلاً في إعطاء الناس حقوقهم واستيفاء حقه[٢].

فقضية التواصل بـين النـاس أمـر مهـم لحيـاة المجتمـع، ولعـل مـن أروع صـور التواصـل التنـاصر بـين المـؤمنين وولايـة بعضـهم لـبعض

---

(١) تفسير الإمام العسكري، ٣٧٤، ح٢٣٠.

(٢) المجتمع المتكافل في الإسلام، عبد العزيز الخياط، ص١٩١.

قال تعالى ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيۡءٍ﴾[1]، فالكفالة قوة وطاقة نفسية تتأتى من الإيمان المطلق بالله تعالى، فيحصل له زخم معنوي للقيام بهذه المهمة والمعرفة الكاملة بأمور الدين حتى يتبين له الحلال من الحرام لكي يحرز صحة عمله.

ثم إن اليتم تارة يكون بفقد الوالدين أو أحدهما، فيحتاج اليتيم في هذه الحالة إلى الرعاية المادية من الإطعام والشراب والملبس والرعاية المعنوية بتعويضه عن العطف والحنان المفقود، ولكن اليتم الأشد من ذلك هو يتيم العلم والمعرفة بالشريعة الإسلامية ومسائل العقيدة ومعرفة إمامه وأحكام دينه، فمن كان منقطعاً عن المعرفة والعلم تماماً ومتعمقاً بجهله لا يحسن شيء من الفقه والعقيدة يكون تبنيه ورعايته علمياً وتوجيهه وإرشاده وإخراجه من مرتبة الجهل إلى رتبة العلم واجباً، ويوضح له الشبهات في الدين، فيكون أفضل وأولى من كفالة يتيم انقطع عنه

---

(١) الأنفال: ٧٢.

الطعام والسقاية وإن كان لها فضل، إلا أن كفالة الجاهل بالدين أهم وأرقى من تلك (**وأشد من يتم هذا اليتيم يتيم ينقطع عن إمامه لا يقدر على الوصول إليه، ولا يدري كيف حكمه فيما يبتلى به من شرائع دينه، ألا فمن كان من شيعتنا عالماً بعلومنا وهذا الجاهل بشريعتنا المنقطع عن مشاهدتنا يتيم في حجره، ألا فمن هداه وأرشده، وعلمه شريعتنا كان معنا في الرفيق الأعلى**)[1].

وعن أمير المؤمنين عليه السلام: (**من كان من شيعتنا عالماً بشريعتنا، وأخرج ضعفاء شيعتنا من ظلمة جهلهم إلى نور العلم الذي حبوناه به جاء يوم القيامة على رأسه تاج من نور يضيء لأهل جميع تلك العرصات**)[2].

فالكفالة بهذا المعنى تعطي بعداً اجتماعياً أوسع وأكمل من مجرد الكفالة المتمثلة بالرعاية البدنية والنفسية، بل إن فضل كافل الجاهل بتعليمه أفضل من كافل اليتيم، يطعمه، ويسقيه يصفه الإمام الحسن عليه السلام بأنه كفضل الشمس على السهى، وهو كوكب خفي في بنات نعش، والفارق كبير بين ضوء الشمس البازغة ونور

---

(١) تفسير الإمام العسكري المنسوب للإمام العسكري، ص٣٣٩، ح٢١٤.

(٢) المصدر نفسه، ص٣٣٩، ح٢١٥.

هـذا الكوكـب الخافـت ليلفـت الإمـام الحسـن عليه السلام الأنظـار إلى أن التكافل الحقيقي والأهـم هـو أن يتضـامن المجتمـع في تربيـة نفسـه تربيـة علمية وعقديـة تنـير عقـولهم، وتهـديهم للصـواب، وتزيـد مـن تكـاتفهم وتراصّـهم ومسـاعدتهم في بلـورة الأفكـار وتنضـيجها وتقويـة الحـس العلمي لدى الجماعة.

إذن موضـوع التكافـل الاجتماعـي والتـوازن الثقـافي في نظـر الإمـام الحسـن عليه السلام وفكـره الاجتماعـي أمـر مهـم للغايـة، فرعايـة وكفالـة اليتيم ممكنة لكثـير أن يقـوم بهـا، ولكـن الرعايـة العلميـة لـيس كـل فـرد قادر على تطبيقها وادامتها.

ومما يؤيد هذا المعنى قـول للإمـام الحسـن عليه السلام لرجـل قـد حمـل إليـه هديـة (**أيهـما أحـب إليـك؟ أن أرد عليـك بـدلها عشـرين ضـعفاً عشـرين ألف، درهم أو أفتح لـك بابـاً مـن العلـم، تقهـر فـلان الناصـبي في قريتك، تنقـذ بـه ضـعفاء أهـل قريتـك؟ إن أحسـنت الاختيـار جمعـت لـك الأمـرين، وإن أسـأت الاختيـار خيرتـك لتأخـذ أيهـما شـئت، فقـال: يـا ابـن رسـول الله، فثـوابي في قهـر ذلـك الناصـب واسـتنقاذي لأولئـك الضعفاء من يده قدره عشـرون ألـف درهـم؟ قـال: بـل أكثـر مـن الـدنيا**

عشرين ألف ألف مرة! فقال: يا ابن رسول الله، فكيف اختار الأدون بل اختار الأفضل: الكلمة التي أقهر بها عدو الله، وأذوده عن أولياء الله.

فقال الحسن بن علي عليه السلام: قد أحسنت الاختيار، وعلمه الكلمة، وأعطاه عشرين ألف درهم، فذهب فأفحم الرجل، فاتصل خبره به، فقال له إذ حضره: يا عبد الله ما ربح أحد مثل ربحك، ولا اكتسب أحد من الأوداء ما اكتسبت، اكتسبت مودة الله أولاً، ومودة محمد صلى الله عليه وآله وعلي ثانياً، ومودة الطيبين من آلهما ثالثاً، ومودة ملائكة الله رابعاً، ومودة إخوانك المؤمنين خامساً، فاكتسبت بعدد كل مؤمن وكافر ما هو من الدنيا ألف مرة فهنيئاً لك هنيئاً)[1].

في هذه الرواية نرى تأكيداً كثيراً على معنى التكافل المعرفي ورد الشبهات وتثبيت العقيدة، وأن هذا التكافل هو المعنى الحقيقي لحماية المجتمع من براثن الفساد والانحراف الفكري وتحريف الإسلام عن مساره الصحيح.

---

(١) الاحتجاج، الطبرسي، ح١: ١١.

التكافل الاقتصادي:

١- استشهد أمير المؤمنين عليه السلام، ورجع أبو رافع مع الحسن عليه السلام إلى المدينة، ولا دار له ولا أرض، فقسم له الحسن عليه السلام دار علي بن أبي طالب نصفين، وأعطاه بينبع أرضاً، أقطعها إياه، فباعها عبيد الله بن أبي رافع معاوية بمائتي ألف درهم وستين ألفاً[1].

تصرح هذه الرواية بأكثر من مدلول، وفيها أكثر من جانب للمتأمل في مضامينها، وهي تشير من لحاظ إلى الجانب النفسي للفرد المتعلق بالدنيا وملذاتها ومدى تمسكه بمقتنياتها وأدواتها وصعوبة التنازل عن شيء منها، وهو مرض اجتماعي خطير، يعاني منه معظم الناس لاستغراقهم بحب الدنيا وإصرارهم على عدم التخلي عن المكاسب التي حصلوا عليها بسبب طغيان الجانب المادي عليهم وقلة إيمانهم بالمعنويات وبالحياة الآخرة، فتجذرت فيهم، واستولت على مشاعرهم، والإمام الحسن عليه السلام هنا يجرد الفرد من هذا الشعور المريض، ويخلصه من تلك العلقة المقيتة، فهو علاج

---

(١) سعد السعود، ابن طاووس، ص٩٧.

نفسي لأفراد المجتمع من الفردانية وحب الذات المفرط والأنانية أو تذويب الفرد في مجتمعه، وهذه إشارة مهمة من الإمام الحسن عليه السلام وعلاج ناجح وعملي لتلك المشكلة الاجتماعية.

وفي بعد آخر في حق الملكية الخاصة التي شرعها الإسلام، وجعل للفرد حق التصرف فيها بعقلانية ومنطقية من غير سفه أو تبذير أو إسراف، ومن إحدى نظريات الإسلام التي مارسها النبي صلى الله عليه وآله والأئمة الأطهار المشاركة في تلك الملكية ومقاسمة رأس المال وتحقيق العدالة في توزيع الثروات ومساواة طبقات المجتمع لكي لا يبقى فقير مع ضمان عدم الاتكال على الغير في تحصيل القوت والمؤنة، فإن الإسلام يشجع على التكافل، ويردع الاتكالية والتكاسل في أداء الواجب والسعي في تحصيل الرزق، وما قام به النبي محمد صلى الله عليه وآله بعد الهجرة إلى المدينة هو أوضح شاهد لهذا المعنى في مشاركة الأنصار لأموالهم مع المهاجرين لرفع مستواهم المعاشي، وكذلك فعل سبطه الإمام الحسن عليه السلام في مقاسمته لماله أكثر من مرة وعدم اكتراثه لزوال مقدار كبير من رأس المال لغرض تربية الأمة على الإيثار والعطاء والمساعدة.

أما الأمر الثالث، وهو التكافل في أنه ظاهرة اقتصادية لها أثرها في النظام الاقتصادي والاجتماعي لأي بلد، فتكديس الثروات عند فئة معينة وحرمان فئة أخرى منها سوف يخل في الهيأة الاجتماعية في العدالة والمساواة الطامح لها أي مجتمع، وستبعد صفات الفضيلة عن منالها إن كانت باحثة عنها.

والإمام الحسن عليه السلام يساند فرداً اجتماعياً صالحاً، وهو (أبو رافع) أحد أصحاب النبي محمد صلى الله عليه وآله وأمير المؤمنين عليه السلام، وقد أفنى عمره الشريف في خدمتهم، وبذل كل ما عنده لنصرة الإسلام وإيفاءً لهذا الفرد الصالح في المجتمع ولرفع الحيف والمظلومية عنه قاسمه الإمام الحسن عليه السلام ماله، فأعطاه نصف دار أمير المؤمنين علي بن ابي طالب عليه السلام، وأقطع له من أرض ينبع أرضاً لمعاشه ومؤنته، وهو غاية الكرم والجود، وأعلى مراتب التكافل الاجتماعي وأجلى صورة لروح الإسلام الحقيقي وممارسة عملية بأعلى أطوارها في ارتقاء المجتمع إلى مجتمع فاضل مثالي، لا يعدو الملكية فيه عن سد حاجة الفرد وتلبية طلباته المشروعة والخط المعاكس لخط أعداء الإسلام كانوا يشيعون ثقافة العبودية للفقراء والملوكية لأصحاب الأموال، فأحالوا الدولة الإسلامية إلى ملكية والأمة الإسلامية إلى

عبيد، فحارب الإمام الحسن ذلك الخط السيء المتلاعب بمقدرات المسلمين والساعي إلى تحريف المنهج الإسلامي القويم بوضع نظام اقتصادي لمعالجة وحل المشاكل الاقتصادية التي عانت منها الأمة الإسلامية إبان حكم معاوية بن أبي سفيان، وفرض الإمام الحسن عليه السلام الفكر الإسلامي الأصيل للنهوض بواقع الأمة وانتشالها من مخططات الأمويين في زعزعة النظام الاقتصادي الإسلامي، وبالتالي تغيير المجتمع من فاضل إلى طالح جاهل للسيطرة عليه وحكمه.

ولكن الإمام الحسن عليه السلام أفشل كل تلك المخططات، ولعل من يراجع بنود الصلح للإمام الحسن عليه السلام مع معاوية يشاهد أن أغلب بنوده هي لرفع المستوى الاقتصادي للمسلمين والحفاظ على التوازن المجتمعي من الانهيار والضياع، وهذه الرواية فيها رمزية عالية على تلك الفكرة لمناهضة الفقر والتجويع للناس بالسيطرة على المجتمع اقتصادياً وفكرياً.

٢- وفي رواية عن الإمام الحسن عليه السلام يجمع فيها بين الفكر الاجتماعي والفكر الاقتصادي والتربية الاجتماعية لصناعة مجتمع متكامل يحمل معاني الأخلاق الحميدة والسلوك الصالح.

ورد في الخبر أن رجلاً جاء إلى الإمام الحسن عليه السلام يسأله حاجة، فقال له: يا هذا حق سؤال يعظم لدي، ومعرفتي بما يجب لك يكبر لدي، ويدي تعجز عن نيلك بما أنت أهله، والكثير في ذات الله عز وجل قليل، وما في ملكي وفاء لشكرك، فإن قبلت الميسور، ورفعت عني مؤونة الاحتفال والاهتمام بما أتكلفه من واجبك فعلت، فقال: يا ابن رسول الله أقبل القليل، وأشكر العطية، وأعذر على المنع، فدعا الحسن عليه السلام بوكيله، وجعل يحاسبه على نفقاته حتى استقصاها، قال: هات الفاضل من الثلاثمائة ألف درهم، فأحضر خمسين ألفاً، قال: فما فعل الخمسمائة دينار، قال: هي عندي، قال: أحضرها، فأحضرها فدفع الدراهم والدنانير إلى الرجل، وقال: هات من يحملها لك، فأتاه بحمالين، فدفع الحسن عليه السلام إليه رداءه لكرى الحمالين، فقال مواليه: والله ما بقي عندنا درهم، فقال عليه السلام: لكني أرجو ان يكون لي عند الله أجر عظيم.

كان الناس يقصدون أهل البيت عليهم السلام في حاجاتهم لعلمهم أنهم قد كرسوا أنفسهم لقضاء متطلبات الأمة المالية والمعرفية وحل المشاكل الاجتماعية، وأنهم مؤهلون لفعل كل ذلك، وصدقهم في فعل ذلك وامتلاكهم الحلول المناسبة لحل المشاكل الإنسانية

الاجتماعية في «**علاقات الإنسان مع أخيه الانسان في مجال توزيع الثروة أو في سائر الحقول الاجتماعية وأوجه التفاعل الحضاري بين الإنسان وأخيه الإنسان، فهذا الخط يواجه مشكلة أخرى، ليست المشكلة هنا هي التناقض بين الإنسان والطبيعة، بل هي التناقض الاجتماعي بين الإنسان وأخيه الإنسان، وهذا التناقض يتخذ على الساحة الاجتماعية صيغاً متعددة وألواناً مختلفة، ولكنه يظل في حقيقته وجوهره شيئاً ثابتاً وحقيقة واحدة وروحاً عامة، وهي التناقض ما بين القوي والضعيف بين كائن في مركز القوة وكائن في مركز الضعف**»[1].

فالمشكلة موجودة ومشخصة من قبل أهل البيت عليهم السلام، وأيضاً الحلول حاضرة لديهم، وقاموا بتطبيقها وحث الناس عليها، فالملكية أمر اعتباري؛ لأن كل ما هو موجود ملك لله تعالى، وقد سلط الناس عليه ولا يوجد أمر ثابت بالنسبة لرؤوس الأموال، فيمكن أن تأتي، وتزول، وعلى الإنسان فهم وإدراك هذه الحقيقة والتعامل معها بجدية وواقعية، فالعطاء والبذل أمر طبيعي؛ لأن

---

(١) مجتمعنا، محمد باقر الحكيم، ص٢١٦.

رؤوس الأموال متحركة، وتنتقل من شخص إلى آخر، فربما يكون شخص ما ثري، وفي يوم آخر ربما يكون شخص ما ثري، وفي يوم آخر يفقد ثروته، وفي وقت آخر يستعيدها، هذا هو حال الدنيا الذي عبر عنه الله تعالى ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾[1].

فمن يعطي، ويبذل لا يعني أنه افتقر، ولا يمكن أن تعود له ثروته مرة أخرى، بل إن القاعدة الحياتية تقول: إن الفرد الإنساني في حالة متغيرة ومتوازنة، ومن هذا المبدأ انطلق الإمام الحسن الزكي عليه السلام في حل مشاكل مجتمع عصره بالآلية المناسبة التي يحددها الإمام بحسب الظروف الموضوعية للمجتمع، ويبدأ الإمام الحسن عليه السلام أولاً بمعالجة نفسية للسائل، فذل السؤال يترك أثره السلبي على السائل، وأراد الإمام الحفاظ على كرامة واتزان الشخص السائل وعدم إشعاره بالمنة، مع أن السائل يعلم أن سؤال الإمام فيه عزة وكرامة، فهم أهل بيت رسول الله صلى الله عليه وآله نبي الرحمة والسماحة والعطف، لكن الإمام أراد أن يعطي درساً عملياً في كيفية التعامل مع السائل، فيعزز من شأنية السائل بما أقدم عليه فيبدأ الإمام

---

(١) آل عمران: ١٤٠.

بالاعتذار عن كبر المسألة وقلة ذات اليد والعجز عن الوفاء لمن قصده في الله والاستحياء منه تعالى على التقصير في إجابة حق السائل، ويبين للسائل أنه مهما أعطاه فهو يسير، ولا يمكن الوصول إلى حقه في أنه انسان ومؤمن، وهو من خلق الإمام الحسن عليه السلام العظيم في أداء حقوق الناس، وهو إمامهم وسيدهم وابن نبيهم، ولكن يأبى الإمام الحسن عليه السلام إلا أن يكون أنموذج الإنسان الكامل وقدوة للامة وكيف لا يكون، وهو من تربى بحجر النبي صلى الله عليه وآله وورث جميع خصاله الخلقية.

وأيضاً إدارة المجتمع وشؤونه الحياتية والسياسية ومداراة الوضع العام والظروف الاستثنائية التي تلجأ بعض الأفراد إلى الحاجة وكفاف معيشتهم فقد عُني الإمام الحسن عليه السلام عناية بالغة بها بسبب محاولات تغيير الهوية الإسلامية للمجتمع الإسلامي الذي مارسته الدولة الأموية آنذاك.

ثم يتحول الإمام الحسن عليه السلام بعد ذلك إلى محور آخر، وهو المحور الاقتصادي الذي جاهد الإمام الحسن عليه السلام على موازنته وعدم الإخلال به، فيستدعي وكيله في الحسبة لمراجعة المصروفات، مما يدل على أن الإمام الحسن عليه السلام كان يعمل على وفق نظام إداري محكم

في توزيع الأموال لتصل إلى أكبر عدد ممكن، وبتنسيق عالٍ وضبط متقن إشارة إلى أن الإمام الحسن عليه السلام كان هو الحاكم الفعلي الذي يحمل سمات الرئيس في شروط المدنية الفاضلة وإثبات أحقيته في إمامة الأمة على الصعيد العملي والتنظيمي.

ثم يحضر الإمام الحسن عليه السلام كل ما لديه من أموال، ولم يبق منها شيء، ويعطيها إلى الرجل السائل واعتبارها حقاً طبيعياً وشرعياً له، وهو مبلغ كبير وثروة مالية أكثر مما كان يتأمله الرجل.

ومما يثير أن الإمام الحسن عليه السلام دعا الرجل أن يأتي بحمالين لحمل الأموال التي أعطاه إياها دلالة على أن المبلغ كبير جداً، ويحتاج إلى أكثر من شخص ليحمله، فأي عطاء هذا؟ وأي كرم هذا؟ وأي نفسٍ تلك التي تهب كل ما تملك وتعتذر؟

ولم يكتف الإمام الحسن عليه السلام بهذا العطاء، فيقوم بدفع ردائه أجرة للحمالين، ولم يكلف الرجل دفع الأجرة، فواسى الإمام الحسن عليه السلام السائل بكل ما لديه، وآثره على نفسه حتى بردائه، وهو أعلى مضامين التكافل الاجتماعي، وأبهى صورة له وأشد إشراقاً للوجه الإسلامي الأصيل.

عرضنا فيما مضى نبذاً من أقوال الإمام الحسن المجتبى عليه السلام في موضوع التكافل الاجتماعي، والذي يعد أحد ركائز قيام المجتمع الفاضل وأحد أسباب تماسكه وتوثيق علاقاته ورفع مستواه الروحي والاقتصادي والمعرفي، وهي تظهر صورة متكاملة للتضامن والتكافل الاجتماعي الذي نظر له الإمام الحسن عليه السلام، وطبقه بنفسه، وحث أفراد مجتمعه على العمل به وتوليته أهمية بالغة، وهو أيضاً يضيف دعامة للفكر الاجتماعي الإسلامي لإرساء قواعده وتمتين بنائه ونقل صورة حية عن طريقة تعامل الإسلام مع المشاكل الاجتماعية إلى باقي المجتمعات غير المنتمية للإسلام لما في فكر الإمام الحسن عليه السلام الاجتماعي من سعة، وبعد نظر يحاكي به المجتمع الإنساني فضلاً عن الإسلامي.

والتكافل بمعنى التساند والتضامن والمجتمع الذي هو جزء من الأمة، أو هو الأمة كلها تعيش على أرض، ويجمعها قانون، وتشملها عادات، فيقوم بينها حينئذ تضامن لكي تكون حياتها أكثر سعادة وتآلفاً وتواصلاً وتسانداً، فمعنى التكافل الاجتماعي إذن أن يتساند المجتمع بأفراده وجماعته، بحيث لا تطغى مصلحة الفرد على

مصلحة الجماعة، ولا تذوب مصلحة الفرد في مصلحة الجماعة، وإنما يبقى للفرد كيانه وإبداعه ومميزاته، وللجماعة هيأتها وسيطرتها، فيعيش الأفراد في كفالة الجماعة كما تكون الجماعة متلاقية في مصالح الآحاد ودفع الضرر عنهم[1].

وأكد القرآن الكريم على هذا المعنى في الآية الشريفة ﴿وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗا وَبِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡجَارِ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡجَارِ ٱلۡجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلۡجَنۢبِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخۡتَالٗا فَخُورًا * ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ وَيَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبُخۡلِ وَيَكۡتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦۗ وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٗا مُّهِينٗا * وَٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۗ وَمَن يَكُنِ ٱلشَّيۡطَٰنُ لَهُۥ قَرِينٗا فَسَآءَ قَرِينٗا * وَمَاذَا عَلَيۡهِمۡ لَوۡ

---

(١) المجتمع المتكافل في الإسلام، عبد العزيز الخياط، ص٧٤.

ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِهِمۡ عَلِيمًا﴾[1].

إن من يتتبع فقرات الآيات الشريفة يرى أن أقوال الإمام الحسن عليه السلام المارة الذكر هي ترجمة لهذه الآية وتبويب وتقنين لدستوريتها، ولا ريب، فهما الثقلين والعدلين للقرآن المكتوب والقرآن الناطق، فأهل البيت عليهم السلام ترجمان القرآن ومفسرو آياته.

إذن قد استخدم الإمام الحسن عليه السلام استراتيجية في خطابه مع الناس بوعظهم وإرشادهم، ولكن تلك المواعظ كانت تعبر في مكنونها عن آداب وعلوم اجتماعية واقتصادية، قد تشكلت عند الناس في اللاوعي من غير إدراك لعناوينها، وتثقفوا بها، وتعلموها من باب الأخلاق والآداب لا من باب النظام الاجتماعي أو الاقتصادي، ولكن النتيجة بالتالي قد تحققت عملياً وسلوكياً عند الأمة، وهذه طريقة ذكية في تربية وتعليم المجتمع من غير الاكتراث إلى المصطلحات العلمية؛ لأن المهم هو الموضوع نفسه.

---

(١) النساء: ٣٦-٣٩.

ويبقى موضوع التكافل موضوعاً حيوياً في حياة الأمم والشعوب والدول القائمة على الفضيلة والأخلاق والباحثة عن السعادة والأمان.

حقوق الناس:

اعتمد النظام الاجتماعي على الرصانة في بنائه الصحيح على مبدأ الحقوق والحق، تارة يكون حقاً إلهياً على الناس، وأخرى حقوق الناس على بعضهم البعض كحق الفرد على المجتمع وحق المجتمع على الفرد وحق الأفراد على بعضهم كحق الزوجة على الزوج وحق الزوج على الزوجة وحق الولد على الأب وبالعكس، وهكذا سلسلة من الحقوق والواجبات، وضعت لتنظيم الحياة الاجتماعية في مسيرتها، ولعل رسالة الحقوق للإمام علي بن الحسين زين العابدين عليه السلام هي أوضح مصداق لهذا المبدأ حيث فصل فيها الإمام السجاد ترتيب الحقوق وما يترتب عليها، أما الحقوق الإلهية فهي أنواع العبادات المشرعة من قبل الله تعالى على الناس بلزوم طاعته واتباع شريعته التي فرضها عليه، وأما الحقوق الإنسانية فقد

نظمها أهل البيت عليهم السلام بكلماتهم وأفعالهم، فأثبتوا منهاجاً قوياً وصراطاً مستقيماً في كيفية التعايش من غير ظلم ولا تعدٍّ على الآخر واتباع أسلوب التسامح والتوادد وحسن الظن واحترام الحق الإنساني لكل من يحمل الصفة الإنسانية، ولا تختص تلك الحقوق بالمسلمين فقط، بل لكل الناس بلا استثناء، فهم إما أخ بالدين أو نظير بالخلق كما قال الإمام علي عليه السلام، ومن الشواهد على ذلك قول الإمام الحسن عليه السلام: (**إن تقية يصلح بها الله أمة لصاحبها مثل ثواب أعمالهم وتركها بما أهلك أمة، تاركها شريك من أهلكهم، وإن معرفة حقوق الإخوان تحبب إلى الرحمن، ويعظم الزلفى لدى الملك الديان وإن ترك قضاؤها بمقت الرحمن، ويصغر الرتبة عند الكريم المنان**)[1].

يطرح الإمام الحسن عليه السلام مفهوم التقية، ليس من جانب ديني فقط، بل من منظور اجتماعي إصلاحي أيضاً لما لهذه المفردة من مفعول تقويمي على مستوى العلاقات بين الناس، فمن المعلوم أن المجتمع بطبيعته يحوي فئات مختلفة من حيث انتمائها الديني أو

---

(١) جامع الأخبار، الصدوق، ص١١٠-١١١.

القومي أو المذهبي أو الفكري أو غيرها من الخصوصيات المتعلقة بحرية الفرد في الحياة وحق من حقوقه المشرعة حتى في القوانين الحدثية تحت عنوان (**حق الفرد في الحياة**) وعلى كل فرد احترام حقوق باقي الأفراد بانتقاء ما يفرق لحمة الناس وتعايشهم السلمي، فعلى الفرد ترك كل ما يستفز الآخر، ويحرجه، ويسبب البغضاء والكراهية والعداء في نهاية الأمر، فيبقى المجتمع في حالة شحن نحو الاعتداء وتهديد للأمن المجتمعي واختيار الإمام الحسن عليه السلام لمصطلح التقية، وهو أبعد من كونه مصطلحاً فقهياً، بل له أبعاد اجتماعية على مستوى الأفراد أو الأمة وإن التقية سبب لإصلاح الأمة؛ لأنها عملياً الاحتفاظ بالخصوصية الذاتية واحترام خصوصيات الغير وسبب في الحفاظ على النفس من الضرر والتلف والحفاظ على المجتمع من التقاتل والفناء.

ولذلك يقول الإمام الحسن عليه السلام: إن ثواب من يعمل بالتقية يقصد منها حماية المجتمع وبنائه والحفاظ عليه، فإن الله سيجازيه بثواب عادل كل الإصلاح الاجتماعي بسبب تلك التقية، فكل عمل حسن وعلاقة طيبة تخلفها تلك التقية يكون لذلك الفرد المتقي

نصيبه وحصة من ذلك البناء الصالح وشريك في كل عمل يعمل لمصلحة الجماعة، فهو سبب في تحقق معاني المجتمع الصالح.

هذا على مستوى الدنيا، وله أجر أخروي عند الله تعالى لتحمله وصبره على الأذى في سبيل تحقيق السلام والأمان والتعايش بأخوة إنسانية، وهذا شيء عظيم، يجله الإسلام، ويؤكد عليه كثيراً حتى إن أئمة أهل البيت عليهم السلام كثيراً ما كانوا يوصون بالتقية حتى ورد عن الإمام الصادق عليه السلام قوله (**التقية ديني ودين آبائي**)[1] وقوله (**من لا تقية له لا دين له**)[2]؛ لأن الظروف الاجتماعية والسياسية والعسكرية تكون حاكمة على الفرد وعلى المجتمع في إخفاء بعض الخصوصيات لمواكبة المسيرة الاجتماعية.

وعلى العكس من ذلك فإن ترك التقية وخلق المشاكل بإظهار ما يتقاطع به مع الآخرين، سواء كان في العقيدة أو في الفكر أو في التقاليد أو الأعراف أو أي خصوصية فردية أو جماعية، فتكون سبباً في التباعد والتفكك في العلاقة الاجتماعية وإضعاف المجتمع؛ فإنه سيكون أداة لتحطيم البنية الاجتماعية وضياع الحقوق وانعدام

---

(١) المحاسن، أحمد بن محمد البرقي، ١: ٢٥٥، ح٢٨٦.

(٢) عوالي اللآلي، ابن أبي جمهور، ١: ٤٣٣، ح١٣٤.

الأمـان، فيتحـول المجتمـع إلى سـاحة صراع جمـاعي، فيكـون الفـرد أو الأمـة شريكـاً في كـل المـآسي والمحـن التـي تحـل بـالأمم التـي لا تراعـي المصـلحة العامـة، وتفضـل التمييـز العنصـري أو العقيـدي أو الفئـوي وبهـذه الحالـة لا يسـتوي حـال المجتمـع، ولا يمكـن أن يسـير بصـراط مستقيم، ولا يتحقق النمو والسعادة والاطمئنان لأفراد الأمة.

ثـم يبـدأ الإمـام الحسـن عليه السلام بـالتثقيف عـلى مفـردة التقيـة مـن الناحيـة الاجتماعيـة وتناولهـا بمفهـوم الأخـوة والإنسـانية، ويجعـل التقيـة مسـاوقة للحقـوق الاجتماعيـة بقولـه: (**إن معرفـة حقـوق الإخـوان تجـب إلى الـرحمن**)[1] أي أن معرفـة النظـام الـذي شرعـه الله تعـالى للبشـر -في أنـه منظومـة قانونيـة أو أخلاقيـة- تعـزز الثقـة بـين الأفـراد، وتلهمهـم التعامـل بأريحيـة ومـودة عنـدما يـرتبط الأمـر بـالله تعـالى وأن معرفـة حـق الأخ هـو محبـوب لله تعـالى ومقـرب إليـه، لأن الإنسـان المـؤمن بالرسـالة الإلهيـة، وأنهـا تصـب قطعـاً في خدمـة الإنسـانية، فتولـد تفـاعلاً نفسـياً، يكـون محفـزاً لـه في السـعي لكسـب الإخـوان واحـترام ذواتهـم وإسـعادهم وتكـوين وحـدة اجتماعيـة

(١) بحار الأنوار، المجلسي، ٧٢: ٤١٥.

متناسقة ومتفهمة، ترضي الله تعالى، وتحقق أوامره ونواهيه، وتساعد على إيجاد الأمة الصالحة على أرض الواقع الذي هو هدف الأنبياء والأوصياء والصالحين، فتعظم رتبة الفرد أو الأمة عند الله تعالى، فيمدها بتسديده ورعايته، ومعرفة حقوق الإخوان توجب الالتزام بما يجب عليه اتجاه المجتمع أياً كان، فكلمة الإخوان -كما أشار إليها الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام- تعني الأخوة الدينية بالمعنى الأخص والأخوة الإنسانية بالمعنى الأعم، فكل فرد في الأمة هو شريك في المجتمع بجميع حقوقه وواجباته.

والمعرفة تتأتى بالثقافة الدينية والتربية الاجتماعية الصالحة، أما ترك هذه الحقوق وعدم الاكتراث لمعرفتها فتخلق أجواء غائمة بالكراهية ومتوترة، وكلما ازدادت الضغائن لدى الإنسان نسجت المادية خيوطها على روحه وقلبه، وانفصلت العلقة الروحية مع الله تعالى، فيبتعد تلقائياً عن الساحة الإلهية؛ ولذلك عبر الإمام الحسن عليه السلام بأن نتيجة ترك معرفة حقوق الإخوان تؤدي إلى (**مقت الرحمن، ويصغر الرتبة عند الكريم المنان**)[1] وحتى اختيار صفتي

---

(١) بحار الأنوار، المجلسي، ٧١: ٢٣٠.

الكريم والمنان تشيران إلى أن الله تعالى هو من يمن على الإنسان، ويكرمه، ويرزقه، ويرعاه، وإذا خالف خسر كل هذه العطايا الإلهية وحرم من الالطاف الرحمانية.

يقول أمير البلاغة والبيان علي بن أبي طالب عليه السلام (**من أصلح ما بينه وبين الله أصلح الله ما بينه وبين الناس**)[1]، فالقرب من الله تعالى يفتح على الإنسان آفاق المعرفة، ويسلك به إلى سبل النجاة، والقرب من الله تعالى سيكون سبباً في القرب من الناس في أنه عامل مشترك يجمع المؤمنين تحت ظل الله تعالى، وهي أسمى المعاني الاجتماعية وأنقى صورة تجمع أفراد البشر بنسق واحد وعلى شريعة واحدة، والإصلاح بين الفرد وربه يكون بالمعرفة الإلهية وإطاعة الأوامر والانتهاء عما نهى الله، فيكون الفرد بهذه الحالة يعيش في حالة اجتماعية موحدة مع باقي الناس الذين يتجهون بالاتجاه نفسه، وينهجون نفس النهج، فيصير إصلاح الفرد لما بينه وبين الله وسيلة لإصلاح ما بينه وبين الآخرين من الناس، إنها نظرية إلهية إنسانية منظمة وموجهة ومحركة للمجتمع في ترتيب شؤونه وتوزيع أدواره وتنظيم عمله.

---

(١) نهج البلاغة، الإمام علي، ج٤ ص٢٠، ح٨٩.

إذن الإمام الحسن عليه السلام يستثمر الموضوع الفقهي، ويربطه بعلم الاجتماع، فيستفيد التعليم لحكم شرعي وتأسيساً لحالة اجتماعية، ويربط المجتمع بالدين.

هذه خلاصة غاية في الروعة يتبناها الإمام الحسن عليه السلام في التأثير على النفوس وجذبها نحو وحدة واحدة هي الأمة الإسلامية التي تحمل من السمات الاجتماعية الحية المنضمة والمنضبطة تحت شعار الدين الإسلامي وما جاء به من تعاليم خُلقية في أعلى مستوى، قد أمر الله تعالى بها من أجل مصلحة الإنسان عبر دستور كامل هو القرآن الكريم، ذلك الكتاب العظيم الذي لم يترك صغيرة ولا كبيرة بما يتعلق بحياة الإنسان إلا وقد وضع لها قاعدة متكاملة، وقد أثبتت التجربة البشرية صحة كل ما جاء به القرآن الكريم من تعريفات اجتماعية لُحظ فيها التقنية العالية في معالجة كل المشاكل التي تواجه الإنسان في مسيرة حياته.

«وبهذا نعرف أن الدين حاجة فطرية للإنسانية؛ لأن الفطرة ما دامت هي أساس الدوافع الذاتية التي نبعث منها المشكلة، فلا بد أن تكون قد جهزت بإمكانات لحل المشكلة أيضاً، لئلا يشذ الإنسان عن سائر الكائنات التي زودت فطرتها جميعاً بالإمكانات التي تسوق

كل كائن إلى كماله الخاص، وليست تلك الإمكانات التي تملكها الفطرة الإنسانية لحل المشكلة إلا غريزة التدين والاستعداد الطبيعي لربط الحياة بالدين وصوغها في إطاره العام»[1].

العمل:

إن من أبرز أسباب نمو المجتمعات وتقدمها ورقيها وتطورها وعملقة بنائها هو العمل، والذي أفرد الفلاسفة وعلماء الاجتماع باباً خاصاً به لأهميته وضرورته في حياة الأمم، والعمل يكون فردياً أو جماعياً، ولكنه يتضامن بالنتيجة لخدمة المجتمع، فكل عمل له هدف وغاية، إما شخصية أو عامة، والشخصية منها محدودة، لا تتعدى فائدتها وثمرتها العامل نفسه، وأخرى تمتد منفعتها إلى أبعاد ذات مدى واسع، تشمل جنس الإنسان، ويرجع هدف العمل إلى نية العامل في أداء العمل حيث إنه يتفاعل مع محيطه وأفراد مجتمعه، فيكون الإنجاز أكبر، والفائدة أعم «**إذن العمل التاريخي الذي تحكمه سنن التاريخ هو العمل الذي يكون حاملاً لعلاقة مع هدف**

---

(١) مجتمعنا، محمد باقر الحكيم، ص١٠٨.

وغاية ويكون نفس الوقت ذا أرضية أوسع من حدود الفرد ذا موج يتخذ من المجتمع علة مادية له، وبهذا يكون عمل المجتمع»[1].

آداب العمل:

قال الإمام الحسن عليه السلام: (**لا تجاهد الطلب جهاد الغالب، ولا تتكل على القدر اتكال المستسلم، فإن ابتغاء الفضل من السنة، والإجمال في الطلب من العفة، وليست العفة بدافعة رزقاً، ولا الحرص بجالب فضلاً، فإن الرزق مقسوم واستعمال الحرص استعمال المآثم**)[2].

فنرى أن الإمام الحسن عليه السلام يستخدم الألفاظ بدقة عالية، تناسب المضمون، وتنطبق عليه تماماً، وتعطي معناها الحقيقي لا المجازي، فعندما يقول الإمام عليه السلام (**لا تجاهد الطلب جهاد الغالب**) نفهم أن العمل هو حالة عملية غاية في الصعوبة؛ لأن العمل له أصول وأدبيات وأحكام يجب الحفاظ عليها، أما من الناحية الدينية

---

(١) مجتمعنا، محمد باقر الحكيم، ص١٨٦.

(٢) تحف العقول عن آل الرسول، ابن شعبة الحراني، ص٢٣٣.

فللعمل أحكام في الحلال والحرام، على المسلم الالتزام بها وعدم تركها لكي يكون العمل محللاً والناتج حلالاً، وأما من الناحية الإنسانية فللعمل شروط من شأنها أن تحافظ على حقوق الناس وعدم غبنهم كي تجري أمور الحياة بنحو صحيح وسليم، ولا يظلم أحد لأخيه الإنسان، فيكون سبباً في خراب المجتمع وعدم استقامة الحياة.

عُدَّ العمل جهاداً في الإسلام، وعبر عنه النبي ﷺ بالجهاد الأكبر، وهو الكد على العيال وتوفير سبل المعيشة وخدمة والمجتمع بتقديم وتوفير احتياجاته اليومية في أي مجال من مجالات الحياة، ومعنى الجهاد هو المشقة كما جاء معناها في قواميس اللغة في باب و(جهد) وأصله المشقة، يقال: جهدت نفسي، وأجهدت، والجهد الطاقة[1] أي أن الجهاد بذل الطاقة وما في الوسع لإنجاز شيء، ولا يراد منه هنا في قول الإمام الحسن عليه السلام الجهاد بالمصطلح الشرعي، بل المصطلح اللغوي.

---

(١) معجم مقاييس اللغة، أبو الحسن أحمد بن فارس، ج١ ص٤٨٧.

وعبر عن العمل بالطلب، أي إرادة تحصيل الشيء من المنافذ الشرعية له، فتكون الحصيلة أن الإمام الحسن عليه السلام يدعو إلى العمل وإن كان شاقاً ومتعباً وصعباً، لكنه هوية الوجود الإنساني والمقوم لكيانه البشري المجتمعي.

وهذا الطلب الشاق ليست غايته الحصول على القيمة المالية فقط، بل هو أولاً تقديم خدمة إنسانية للمجتمع الذي يقدم بدوره خدمة للفرد، فلا يستوجب العمل المغالبة مع الآخرين لقلب مفهومه من المعنى الإنساني إلى مفهوم المادية الخالصة.

فإن العمل جعل من أجل العمل لا من أجل الكسب المالي، فإنه تحصيل حاصل، أما المنافسة في العمل فهي أمر مشروع، بل ومحبوب من أجل تحسين العمل وتقديم ما هو أفضل وأنفع، فالإمام الحسن عليه السلام يحذر من مغبة تغيير المفاهيم الإسلامية التي ركزها الدين على أسس المودة الإنسانية والتكافل وتوفير مستلزمات المعيشة والحفاظ على الجنس البشري وتطوير ونمو الأمة الإسلامية، وهي مفاهيم عامة تنطبق على أي مجتمع سامٍ ناضج باحث عن كماله، ولا تختص بجنس أو قومية أو لون أو لغة،

بل ناظرة إلى الصفة الإنسانية الخالصة، والإمام الحسن عليه السلام ينطلق في مقولاته من هذا المنطلق الإنساني.

فارتباط العمل بالإيمان أمر ضروري، لا ينفك لتصحيح العمل، فالعمل سلوك خُلقي، يعتمد على ممارسة الفرد لنشاطه التجاري أو الحرفي بأسلوب المبادلة بين الأفراد من غير غبن أو مغالبة أو ظلم أو هضم للحق.

(ولا تتكل على القدر اتكال المستسلم)، العمل يحتاج إلى التوكل على الله تعالى والاتكال عليه، والإيمان به هو الذي يقسم الرزق ومن يعطي القوة والقدرة على العمل، وهو الحافز والدافع الحقيقي للفرد من أجل العمل والتكسب، هذا من جهة الدافع الداخلي للإنسان، أما الدافع الخارجي فهو شعور الفرد بالمسؤولية لتلبية حاجات المجتمع وتحصيل قوت عياله والحفاظ على حياتهم وتوفير أسباب المعيشة والراحة لهم.

أما من يتكل على القدر أنه السبب في جلب رزقه وعيشته، فإنه سيفقد أي دافع للعمل، فيكون ذلك الفرد خالياً من كل إيمان بالعمل، سواء الفردي أو الجماعي فـ«**التوكل على الله تعالى في العمل الاجتماعي والحركة السياسية في المجتمع صفة مهمة في القدوة بعد**

أن يبذل الإنسان كل جهده، ويستجيب لوظيفته في هذا العمل والحركة»[1]، إذن التوكل مدعاة للحركة والعمل، والاتكال على القدر مثبط لعزيمة الإنسان ورادع عن أي إنجاز، والاستسلام له مظنة في غير محلها، فالإسلام دين الواقعية والإيمان بالغيب والإمام الحسن عليه السلام يشير إلى مسألة عقَدية واجتماعية في الآن نفسه، فنحن لا نؤمن بالجبر ولا بالتفويض، بل أمر بين أمرين، أي الوسطية والاعتدال في جميع الأمور، أما اجتماعياً فإن على الفرد أن يسعى في تحصيل معيشته، ولا ينتظر من يقوم بهذه المهمة عنه، فكل إنسان مكلف بكفاية نفسه وعياله والكد عليهم بقيامه بعمل، يوفر له متطلباته، ولا يمكن له أن يعيش بسعادة ورفاهية وكفاية إلا مع الجماعة والتضامن فيما بينهم وقيام كل فرد بعمل ما يوفر به أحد متطلبات الجماعة، وهذا أمر عقلائي ومنطقي، أما أن يقوم الفرد بنفسه بجميع الأعمال فهو أمر صعب ونادر، ويضع الفرد في حرج ومشقة، ويلغي الدور الاجتماعي والطبيعي للإنسان؛ لأنه كائن اجتماعي.

---

(١) دور أهل البيت في بناء الجماعة الصالحة، محمد باقر الحكيم، ص١٣١.

ثم ينتقل الإمام الحسن عليه السلام إلى فقرة أخرى، يبين فيها أهمية العمل وفضله في حياة الأمة وأدبيات العمل (**فإن ابتغاء الفضل من السنة**)، أي السعي للحصول على الرزق والاكتفاء الذاتي مما شجعه عليه الشريعة، وأوصى به النبي صلى الله عليه وآله وأهل البيت عليهم السلام بل ومارسوه عملياً، وجعل الإسلام شرف المرء في عمله وأن من لا يعمل فهو عالة على المجتمع.

(**والإجمال في الطلب من العفة**)، إن ابتغاء الطلب في الرزق يجب أن يتأتى بالتأني والتروي والحكمة والصبر لا العجلة والشراهة والتهور، فالعمل يحتاج إلى العقلانية والتدبير ﴿**هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ**﴾[1]، فالعمل مشوب بكثير من الإشكالات، وعلى المرء أن لا يقع فيها، سواء كانت شرعية أم خُلقية أم فنية، وغاية الطلب أن يكون حلالاً ليطيب لكاسبه، قال رسول الله صلى الله عليه وآله (**العبادة سبعون جزء، فضلها طلب الحلال**)[2] وأن لا يصرف أكثر وقته في العمل، بل يجعل له

---

(١) الملك: ١٥.

(٢) الكافي الكليني، ج٥ ص٧٨، ح٦.

قسم من الوقت، فالانشغال الدائم في العمل يسلب حقوق نفسه والآخرين، ويحول حياته إلى ماكنة من العمل، لا روح فيها، فالعمل ليس غاية، بل وسيلة للحياة، والاستغراق فيه يؤدي إلى المادية وغلبة الجانب الحيواني على الجانب الإنساني، فعلى المرء أن يقسم وقته بين العمل والعبادة والعلاقات الاجتماعية.

ويصف الإمام الحسن عليه السلام هذا الأمر بالعفة، فالنفس تعف عن طلب المزيد إذا اكتفت، وحصلت على مبتغاها وغايتها من الرزق وقوام الحياة، وهي التفاتة اجتماعية من لدن الإمام الحسن مهمة جداً، فالمجتمع الذي يكرس كل وقته في العمل، ويهمل باقي جوانب الحياة يقع في مشكلة كبيرة كما هو الآن في الغرب الذي جعل العمل أساس كل شيء، وأنزل المرأة أيضاً للعمل، وأضاع الأسرة ودورها في بناء المجتمع روحياً وخُلقياً.

وبالمقابل فإن الحرص في العمل ومحاولة تكريس جميع الوقت والجهد له ظناً من الفرد أن العمل كلما زاد الاهتمام به في الوقت والجهد فإن الناتج سيكون أكبر والثروة سوف تزداد أكثر، فتكون امكاناته المادية أقوى، وبالتالي ستعطي له سلطة اجتماعية، وهو خطأ

فـادح وفهـم خـاطئ لمفهـوم العمـل؛ لأن الاهـتمام بالعمـل ونوعـه وزيـادة كفاءتـه واتقـان مهاراتـه أمـر محبـوب ومطلـوب للتطـور وزيـادة الإنتاج، ولكـن بالقـدر المعقـول وبالحـدود المتعارفـة، والالتـزام بأصـول العمـل وأدبياتـه وقوانينـه، إمـا أن يكـون هـو الوسـيلة والغايـة والهـدف فإنـه سـيذهب بالفضـل والغايـة والهـدف السـامي مـن العمـل، وسـينعكس ذلـك عـلى روح الفـرد وأخـلاق، ويـؤثر عـلى شخصـيته المعنويـة، فيفقـد بـذلك حسـه الإنسـاني وهويتـه الاجتماعيـة، فالمعادلـة مغلوطـة في حسـابات مـن يجعـل العمـل شـغله الشـاغل عـلى حسـاب باقي نشاطات الحياة.

ولذلك قـال الإمـام الحسـن عليه السلام **(ولا الحـرص بجالـب فضـلاً)** ثـم يعلـل الإمـام ذلـك بقولـه **(فـإن الـرزق مقسـوم، واسـتعمال الحـرص اسـتعمال المـآثم)** أي أن الفـرد قـد يغفـل أن العمـل فيـه جانبـان، الأول واقعـي، وهـو سـعي الإنسـان في التحصـيل، والآخـر غيبـي، وهـو التوفيـق الإلهـي وتقسـيم الـرزق الـذي يكـون بمقـادير الله تعـالى، فقـد ينجح الفـرد في الجانـب الأول، لكنـه لـيس بالضـرورة أن يكـون موفقـاً في الجانـب الآخـر، والـرزق يحتـاج إلى النشـاط الإنسـاني في الخـارج

لكي يكون سبباً في وصول الرزق إليه، ومن يظن أن الحرص في العمل وحصر الرزق على الواقع الخارجي فإنه يتحمل إثماً بعدم إيمانه بالله، وأن الرزق بيده، يوزعه كيف يشاء، ومتى يشاء، أي أن الإمام الحسن عليه السلام يقسم العمل إلى النشاط الإنساني المصحوب بالإيمان المطلق بأن الرزق مقسوم من الله وأنه مهما حاول فإنه لا يزيد رزقه، ولا ينقصه، بل إن زيادة حرصه وتركيزه على قوة الفرد وإلغاء القوة الإلهية تكون سبباً في اكتسابه المآثم وتضييع وقته وجهده من غير نتيجة، وهي معادلة غاية في الدقة والواقعية، يطرحها الإمام الحسن عليه السلام في الحياة الاجتماعية العملية لكي لا يذهب الإنسان بعيداً اعتماداً على قدراته الذاتية، وأنها هي فقط ما يحقق الإنجاز، بل هي الخطوة الأولى والثانية يتكفلها الله تعالى، فعليه تقسيم وقته بين العمل والعبادة والتربية النفسية والعلاقات الاجتماعية مما يحقق المفهوم الأمثل للفرد والمجتمع.

الحث على العمل:

بما أن العمل هو محور الحركة والنشاط الإنساني فقد حاز على عناية الفلاسفة والمنظرين وعلماء الاجتماع من حيث ارتباط علم الاقتصاد بعلم الاجتماع ارتباطاً وثيقاً، فالعمل من أساسيات القوام

الاجتماعي، وقد أكد القرآن الكريم وأهل البيت عليهم السلام على العمل كثيراً في مواطن عدة تنبيهاً وتشجيعاً على تحمل أفراد المجتمع مسؤولياتهم في إغناء المجتمع وكفايته وعدم الاتكال والدعة.

ويظهر هذا المعنى من قول الإمام الحسن عليه السلام **(اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً، واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً)**[1].

هذه المقولة على قلة كلماتها إلا أنها تتضمن برنامج عمل حياتي كامل وترغيباً للعمل منقطع النظير، لم يوجد في أي رأي أو نظرية فكرية أو فلسفية أو اقتصادية، وهي باعثة على إدامة الحياة والحفاظ على حيويتها، وهي أيضاً في الوقت نفسه موازنة رائعة وجميلة بين الحياة الدنيا والآخرة وعملية التواصل بينهما بمنهجية ثابتة وواضحة وخالية من أي تعقيد.

الإمام الحسن عليه السلام لا يلغي المجال الدنيوي لصالح الآخرة كي يعيش الإنسان حالة الرهبنة، ولا يلغي المجال الأخروي، فيحول الإنسان إلى مادي مجوف وفارغ روحياً، بل يوازن الحالة الداخلية والخارجية للفرد، فالعمل ضرورة حياتية لا بد أن يقوم كل فرد

---

(١) كفاية الأثر، الخزاز القمي، ص٢٢٧.

بدوره في تهيئة ودعم الحالة الاقتصادية لأمته ومجتمعه على أن لا يتقاطع العمل مع علاقة الفرد بربه وأسرته ومجتمعه، فلكلٍّ وقته ومقداره واستحقاقه.

نلمس من تعبير الإمام الحسن عليه السلام أن العمل يستحق أن تبذل فيه كل مجهودك الفكري الإبداعي والبدني للوصول إلى حالة الكمال في العمل والإنتاج وعدم التقاعس والتكاسل والخمول في أداء العمل، وأن يكون للفرد طموح في تقديم ما هو أفضل والترقي في صنعته أو حرفته أو تجارته إلى أعلى مرتبة خدمة لمجتمعه وتحقيقاً لقدراته التي وهبها الله تعالى له، وهي من مكملات مروءة المرء، ومن متممات شخصيته، فمن يضع في حسبانه أنه سيعيش أبد الدهر فإنه سيسعى، ويتحفز في عمله دون رادع نفسي أو مانع خارجي يمكن أن يلوي عنان عزيمته، فيفجر كل طاقاته ومواهبه.

وتعبير الإمام الحسن عليه السلام دقيق كما هو الحال باستخدام كلمة (**كأنك**)، وهي للتشبيه، أي ليس حقيقياً بل مجازي، وهو تشبيه لحال من يعيش أبداً، وهو أمر مستحيل، فلا بد للفرد من نهاية، ولكن يريد الإمام أن يعطي مدى بعيداً للعامل وأملاً في الحياة

وانتعاشاً للنفس لحثها على دفع الفرد للعمل بحرية وانطلاق، وهذا من أبرز المبادئ الاقتصادية في العمل وتحسين نفسية الفرد العامل وإرشاد للمجتمع والأمة على العمل الدؤوب لتحقيق ذاتها والاستفادة من الثروات الطبيعية التي جعلها الله تعالى للناس.

ومن الطاقة البدنية والعلمية التي وهبها تعالى للإنسان، ومهد له سبل استثمارها، أن مفردة العمل في الاقتصاد الإسلامي تم التنظير لها ووضع القوانين لأصول العمل وأساليبه، ويجوز منه، وما لا يجوز وأدبيات كل عمل وأخلاقيات التعامل وربط العمل بالمعنى الديني والإنساني وإعطائه قيمة معنوية إضافة للقيمة المادية، فالعمل هو بالأصل عملية نشاط إنساني وحركة اجتماعية ضرورية للحفاظ على الجنس الإنساني وتوفير احتياجاته، وعلى كل فرد أن يعمل إلى آخر لحظة من حياته واعتماد مبدأ التخادم مع مجتمعه ليكون فرداً نافعاً لا عالة على المجتمع، والتكافل مع محيطه البشري ضمان ديمومة الحياة.

وفي رواية أخرى عن الإمام الحسن عليه السلام في الصدد نفسه تبين أدبيات العمل ومضمونه الخُلقي والإنساني والديني حيث يقول:

(واعلم أنك لا تكتسب من المال شيئاً فوق قوتك إلا كنت فيه خازناً لغيرك، واعلم أن في حلالها حساباً، وفي حرامها عقاباً، وفي الشبهات عتاباً، فأنزل الدنيا بمنزلة الميتة، خذ منها ما يقيك، فإن كان ذلك حلالاً كنت قد زهدت فيها، وإن كان حراماً لم يكن فيه وزر، فأخذت كما أخذت من الميتة، وإن كان العتاب فإن العتاب يسير، واعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً، واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً)[1].

هذه الرواية ذات بعد اقتصادي واجتماعي عميق وبعيد وتربية خُلقية عالية، أدب رفيع وحكمة وموعظة بليغة، لا تصدر إلا من بيت العلم والحكمة والبلاغة ومنبع العلوم والأصالة محمد وآل محمد عليهم السلام.

الوصية الأولى تتعلق بكسب المال وتوفير القوت والمردود المادي للفرد الساعي لكفاية نفسه وعياله، وأن كل ما على الإنسان أن يخطو خطوات سليمة وصحيحة في طلب الرزق، أما الباقي فقد تكفل به رب العابد، ويجب أن يكون في مظنون الفرد ومعتقده أن تقدير الرزق ليس بيده، وأنه مهما سعى فإنه لن ينال أكثر من

---

(١) كفاية الأثر، الخزاز الضمي، ص٢٢٧.

استحقاقه المقسوم لـه، وأن الـرزق الـذي يـأتي الفـرد عليـه أن يأخـذ منـه كفايتـه وكفايـة عيالـه، ومـا زاد منـه فـإن لغـيره حقـاً عليـه منـه، ولـيس وجوبـاً شرعيـاً، بـل هـو منحـى خُلقـي إنسـاني تكـافلي، يمليـه عليـه وجوده وتكوينه الإنساني.

نعـم قـد أوجبـت الشـريعة مجموعـة مـن الفـرائض والأحكـام الماليـة المتعلقـة بالمكاسـب مثـل الزكـاة والخمـس والكفـارات، وبعضـها مسـتحبة كالصـدقات والهـدايا، ولكـن مـا يهمنـا في النظـام الاجتماعـي هـو الـدافع الإنسـاني في العطـاء الـذي يجذبـه لفعـل الخـير والشـعور بمعاناة الآخرين وحاجتهم لسد احتياجاتهم من الفقراء والمساكين.

فالمجموعـة البشـرية وحـدة واحـدة إذا فُكِّكـت أوجـدت الظلـم والطبقيـة والفقـر والتعسـف بحقـوق الآخـرين، والإسـلام يحـث دائـماً، ويشجع عـلى التربيـة الخُلقيـة والاجتماعيـة التـي تضـمن المصـير المشـترك بـين أفـراد الأمـة وتكـافلهم، وكـان مـن أصـدق المصـاديق هـو الإمـام الحسـن عليه السلام الـذي شـارك، وقاسـم أموالـه مـع النـاس والفقـراء لرفـع الحيـف عـنهم والحفـاظ عـلى كيـانهم الاجتماعـي والاقتصـادي حتـى عرف عنه بأنـه (**كـريم أهـل البيـت** عليهم السلام) لكثـرة عطائـه وجـوده وحنكتـه في إدارة الحياة الاقتصادية للأمة الإسلامية.

وهو هنا يؤكد على أهمية هذا المعنى بأن الفرد إذا حصل على كفايته فعليه أن يعلم أن المال الزائد على مؤنته هو بمثابة خزين اقتصادي يتداول مع الباقين من أفراد مجتمعه لبقاء كفتي الميزان متساوية، فكنز المال واحتكاره ضد المفاهيم الإسلامية والخُلقية والإنسانية وهادمة للنظم الاجتماعية وتنبيه الإمام الحسن عليه السلام لتلافي أي انحراف قد يقع من سوء استخدام المال بخزنه أو تبذيره أو الإسراف فيه.

وإنما عبر الإمام الحسن عليه السلام بأن الفرد يكون خازناً لتلك الزيادة المالية لوضعها في محلها، فهو أمين عليها ومسؤول عنها، وهو تعبير علمي دقيق وموضوعي لتعليم الناس حسن التصرف بأموالهم، وأن الأموال وإن تفرقت في أيدي الناس إلا أنها تمثل وحدة اقتصادية واحدة تشمل الجميع.

ما أجمل هذا التنظير، وما أبدع هذا الفكر في فلسفة الاقتصاد والمجتمع، وما أبعد النظر في حل المشكلات التي تواجه المجتمعات في بنائها، يقدمه لنا الإمام الحسن عليه السلام من منظور تربوي خُلقي فاضل ومتكامل لتحقيق أهداف الرسالة الإسلامية السمحاء في مواجهة التطرف الإنساني وكبح شهواته وغرائزه المادية ونوازعه

التملكيــة وتــذكيره بحقيقــة أن الملكيــة في أصــلها هــي لله، ومــا فــوض للإنسان يجري التصــرف فيـه بحسـب قـوانين وقواعـد شرعيـة وخُلقيـة ملزمة.

ثــم بعــد ذلــك يــذكر الإمــام الحســن عليه السلام القــانون الإلهــي في المحاسـبة عـلى المكاسـب، وهـو لا يخلـو مـن ثلاثـة أمـور، فـإنْ كـان المكسب من وجه شرعـي ومحلـلاً فإنـه سيحاسـب في كيفيـة كسـبه للـمال وطريقة معاملتـه ونوعهـا، والثـروة ورأس المـال هـل حصـل مـن طريـق شرعـي أو لا؟ وطريقـة صرف المـال هـل كانـت في محلهـا الشــرعي أو لا؟

أمـا إن كـان المكسـب مـن الحـرام فإنـه تنتظـره العقوبـة الربانيـة لإفسـاده المعاملـة وعـدم التزامـه بالـدين ودسـتوره الشــرعي وإفسـاد المجتمـع وخروجـه عـن المنظومـة الإسـلامية والخُلقيـة التـي رتبهـا الله تعـالى لشـؤون الخلـق وتوزيـع معاشـهم وحرمـان الغـير مـن حقـوقهم الشــرعية والإنسـانية، أمـا فـيما اشـتبه مـن المعـاملات عـن غـير قصـد ونية سـوء فإنـه سـيعاقب عـلى تقصـيره في عـدم الـتعلم ومعرفـة أحكـام المعاملات الشــرعية أو عـدم التفاتـه إلى بعـض الجزئيـات مـن الأحكـام التي يجب الالتزام بها في العمل.

هـذا تقسـيم متكامـل لنتـائج العمـل، ويضـع الحـدود للعامـل والضـوابط المطلوبـة لخـوض أي نـوع مـن العمـل، فـلا تؤخـذ الأمـور على عواهنها، ولا يظـن العامـل أن العمـل يعنـي مطلـق الحريـة مـن غـير قيود، بـل هنـاك محـددات تضـع للعامـل منهاجـاً وخطـة عمـل، لا يحيـد عنهـا لتجـري الأمـور بنسـق واحـد وطريقـة مـثلى، تـرضي الجميـع، ولا تسمح لأحد بالتعدي على الآخر.

بعـد ذلـك يبـدأ الإمـام الحسـن عليه السلام بتأديـب العامـل وتعليمـه السـلوك الصـحيح والتفكـير المنطقـي المعقـول في حقـائق الأمـور، ويصـور الحيـاة الـدنيا التـي يقـع فيهـا العمـل سـاحة للاختبـارات والامتحانـات، فيطلـب الإمـام الحسـن عليه السلام مـن الفـرد المسـلم أن ينـزل الـدنيا منزلـة الميتـة التـي لا ينتفـع منهـا، ولا حيـاة لهـا للاسـتفادة منهـا، فليأخـذ منهـا بقيـة شرهـا، ويـدفع مكرهـا، ويغنيـه عـن الحاجـة، فـإن استطاع فعـل ذلـك، وحصّـل الحـلال كـان زاهـداً في اللجـوء إليهـا، فـما حاجـة الانسـان إلى الميتـة، وإن كـان حرامـاً، وكـان فيـه وزر، يتبعـه عقوبـة، فيكـون المـأخوذ مـن الـدنيا كالمـأخوذ مـن الميتـة، وإن كـان مكروهاً وجائزاً عند الضـرورة فالعتاب عليه يكون يسيراً.

فالـدنيا دار زوال، لا يـؤمن جانبهـا، ولا يـؤمن نائلهـا، تعطـي القليل، وتأخذ الكثير، تغـرر بأهلهـا، ولا تـدوم لأحـد مـنهم، والتشـبيه بالميتـة تعبـير بلاغـي رائـع وتصـوير أقـرب مـا يكـون للواقـع، يضـع الإنسان أمام حقيقـة هـي أن الـدنيا محطـة مـن المحطـات، تنقـل الإنسـان بـين عوالمهـا، والتمسـك بهـا مـن الجهـل ونقـص العقـل لمـن يفطـن، ويتنبـه إلى حقيقـة الخلـق والتكـوين ونـواميس الطبيعـة، فلـيس مـن المنطقـي أن الإنسـان يتعامـل مـع الميتـة كـما يتعامـل مـع الكـائن الحـي، فالـدنيا هـي ميتـة، والآخـرة هـي الحيـاة الحقيقيـة والأبديـة، فليعمـل الإنسان على أخـذ مـا يكفيـه عـلى تجـاوز هـذه المرحلـة والوصـول إلى مـا هـو أبقـى، وهـو الآخـرة، فعـلى العامـل الالتـزام بشـروط العمـل وأدبياتـه وأوامـره ونواهيـه، وهـو مـن أفضـل مـا يمكـن وضـعه قواعـد للعمل والعامل في مضمار تنظيم المجتمع.

وظيفة العامل:

إن إنجـاز العمـل يتطلـب أن يكـون العامـل عـلى قـدر مـن المسؤولية الأخلاقيـة والمهنيـة والدينيـة، تضـعه أمـام واجباتـه في أنـه فـرد

صالح أو طالح بحسب إنجازه للعمل بالضوابط والشروط الموضوعة والمفروضة عليه.

قال الإمام الحسن المجتبى عليه السلام: **(المسؤول حر حتى يعد ومسترق المسؤول حتى ينجز)**[1].

من يقرأ هذه العبارة يجد أنها روح العمل ومحور الواجب الوظيفي، تقرر أن أي عامل يجب عليه أن يتخذ ذلك الشرط برنامجاً له وعقيدة في عمله تشمل كل صاحب عمل ووظيفة، وهي أدق ما يمكن أن يوصف، ويقنن للعامل.

اختار الإمام الحسن عليه السلام لفظ المسؤول، وهو لفظ غاية في الدقة، فكل صاحب عمل هو مسؤول مهما كان نوع عمله أو وظيفته، فهو مسؤول عن أداءه بأفضل صورة وأجود نوع، سواء كان العمل حرفياً أو إدارياً، فكل عامل يكون في مساحته من الحرية ما دام لم يعِد أحداً بإنجاز عمل ما، أما إذا أعطى وعداً، سواء كان بعقد أو إجارة أو جعالة أو أي شكل من أشكال التعامل فإنه عندها سيكون أسير وعده ومكبلاً بشرطه في إنجاز العمل، فإذا أنجزه

---

(١) تحف العقول، ابن شعبة الحراني، ص٢٣٦، ح٤١.

أصبح في حلٍ من سائله، وقد عبر الإمام الحسن عليه السلام بأنه مسترق أي يكون رقاً وعبداً لالتزامه أمام الآخرين لزوماً شرعياً وقانونياً وخُلقياً، وهو مبدأ مهم في أصول العمل، لا ينظر إلى هوية المقابل ومنصبه وشرفيته ووجاهته الاجتماعية، بل إلى حاجته لإنجاز عمله الذي قصده فيه، وهذا السلوك مؤسس لنظام اقتصادي واجتماعي ناجح وخالٍ من أي فساد أو تقصير اتجاه المجتمع وحقوقه عليه، وهو أيضاً يمثل قيمة خُلقية ومثلاً أعلى في تربية المجتمع والأمة على احترام العمل وحقوق المواطن في إنجاز عمله، وهذه القاعدة الحسنية تجري على الفرد وعلى المجتمع، فكما أن الفرد مسؤول أمام المجتمع، كذلك المجتمع مسؤول أمام الفرد في احترام حقوقه، فالحكومة التي تمثل الدولة المقننة والمديرة لأمور الناس ملزمة ومسؤولة عن توفير وقضاء جميع احتياجات الشعب الذي انتخبها من أجل إدارة شؤونه وتنظيمها.

يقول تعالى ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾[1] تأكيداً منه تعالى على دقة العمل والمسؤلية

---

(١) الزلزلة: ٧ – ٨.

التي يتحملها العامل وإن كانت بسيطة كما يتصورها هو فإنجاز العمل وإن كان العمل هامشياً إلا أنه يعد إنجازاً وخطوة اجتماعية مغيرة ومحركة لنشاطه وأي تأخير أو إهمال أو تقاعس فإنه يؤدي بالنتيجة إلى خلل اجتماعي، يقول أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام «**قيمة كل امرئ ما يحسنه**»[1] أي أن التقييم الاجتماعي للفرد يكون بقدر ما يحسن ذلك الفرد من عمل وإنجاز ومهارة في الأداء ونوعية في الإنتاج ومقدار التزامه في عمله، فإنه بالتالي يدل على مقدار علمه وإيمانه بمبادئه وقيمه الدينية والخُلقية والاجتماعية، وبعكسه فإنه يدل على عدم وعيه وقلة كفاءته وبعده عن محيطه الإنساني وعدم نضوجه الفكري.

هذا مضمون قول الإمام الحسن عليه السلام في توجيه العامل في تحمل مسؤوليته في أداء عمله، وهي أنضح قاعدة يمكن وضعها للعمل والعامل الموظف قضاء حوائج الناس وسد معاشهم والمساهمة في رفع شأن الأمة اقتصادياً واجتماعياً.

---

(١) نهج البلاغة، قصار الحكم، الرقم: ٨١.

وفي رؤيـــة أخـــرى للإمـــام الحســـن عليه السلام في معالجـــة الشـــؤون الاجتماعيـــة وتصـــحيح مســـار الأمـــة والحفـــاظ عـــلى كيانهـــا وقوامهـــا الخُلقـــي والاقتصـــادي، يطـــرح مفهومـــاً جديـــداً في التعامـــل مـــن حكمـــة أو موعظة تدل بالدلالـــة الالتزاميـــة عـــلى مـــراد آخـــر للإمـــام عليه السلام اذ يقـــول: **(الوعد مرض في الجود، والإنجاز دواءه)**[1].

وكذلك قوله: **(الإنجاز دواء الكرم)**[2].

مـــن المعـــروف أن لفـــظ الإنجـــاز يـــدل عـــلى العمـــل، فكـــل عمـــل يـــؤدي إلى حركـــة ونشـــاط وتغيـــير هـــو إنجـــاز في المعنـــى الاصـــطلاحي، وكـــل مـــن يأخـــذ عـــلى عاتقـــه تحمـــل مســـؤولية العطـــاء أن يكـــون بقـــدر الالتزام، يقـــول رســـول الله صلى الله عليه وآله: **(المؤمنـــون عنـــد شروطهـــم)**[3] وهـــو يشـــبه الجـــود والعطـــاء، والـــذي هـــو صـــفة إنســـانية محبوبـــة وســـلوك اجتماعـــي مهـــم، والوعديـــة قيـــد وشرط يأخـــذه المعطـــي عـــلى نفســـه أشـــبه بـــالمرض الـــذي يصـــيب الإنســـان، ولا بـــد مـــن علاجـــه، ويكـــون الـــدواء لهـــذا

---

(١) تحف العقول، ابن شعبة الحراني، ص٢٣٦، ح٣٧.

(٢) المصدر نفسه، ح٣٨.

(٣) التهذيب، الطوسي، ٧: ٣٧١، ح٦٦.

المرض هو إنجاز العمل، سواء كان عطاء وجود وكرم، أو حتى يتعداه إلى أي عمل، فأداء العمل صفة محمودة إذا كانت فيها خدمة ومنفعة للناس، سواء كان بأجرة أو بغيرها.

وكذلك قوله: «الإنجاز دواء الكرم» يحمل المعنى نفسه، ولكن بصيغة أخرى حيث قدم الإنجاز على أنه العمل الذي يتم به الكرم، فالكرم ليس مجرد صفة يحملها الانسان، بل هي عمل ينجز، والكرم تعبير عن العطاء بأي صورة كان حتى ولو كان خدمة عامة أو عملاً وظيفياً إذا قام الإنسان بأدائه فإنه يدل على كرم أخلاقه وجود عطائه الإنساني، فمعنى الجود والكرم يتعدى معنى العطاء دون مقابل فقط، فمن الممكن أن يعطي أي إنسان، لكن لا يكون العطاء مقترناً بالنسبة الصادقة والإخلاص في العمل، فلا يؤدي معناه، ولا يرجى مبتغاه، فكل عمل، سواء كان بأجرة أم لا، يكون مصحوباً بالإيمان والعقيدة في العمل، فإن هذا هو المطلوب، وهو المشار إليه في قول الإمام الحسن عليه السلام الذي يبتغي من مواعظه وحكمه تنضيج الأداء المجتمعي وإعطاء العمل دوراً أساسياً في حياة الأمة.

الحث على العمل:

قال الإمام الحسن عليه السلام في حديث: (**استثمار المال تمام المروءة**)[١].

مبدأ آخر يضيفه الإمام الحسن عليه السلام ضمن تشريعاته الاقتصادية الاجتماعية في أصول العمل ومتعلقاته، وهو مبدأ الحث على العمل وجعله من مكملات مروءة المرء وتمام إنسانيته، وربط العمل بشخصية الإنسان أمر مهم جداً، يؤكد عليه الإمام الحسن عليه السلام كما أكد جده رسول الله صلى الله عليه وآله بقوله: (**إن إصلاح المال من الإيمان**)[٢]؛ لأن قيمة الإنسان تكمن في إخلاصه في عمله ووعيه في أدائه فالملكية الشخصية ضمن القانون الشرعي مما أباحه الإسلام، ونظمه بقوانين عدة، وجعل الملكية الشخصية محترمة، لا يجوز التجاوز عليها، فحرم السرقة والغبن والاستيلاء غير الشرعي لها، وفي الوقت نفسه أمر باستثمار تلك الثروة وعدم تجميدها وكنزها مما يعطل حركة العمل و النشاط الاجتماعي، فسلب الإسلام حق الملكية لمن لا يزرع أرضه، ومنع الاحتكار، وحرم الربا، ودعا

---

(١) الكافي الكليني، ج١ ص١٥ ح١٢.

(٢) وسائل الشيعة، ١٢: ٤٠.

لإشراك المجتمع في الثروات وتقسيمها بعدالة بين أفراد الجماعة، فمن كان يملك رأس مال فعليه أن يحسن التصرف به من خلال تشغيله والاستفادة منه في الإنتاج وتحسين الوضع الاقتصادي للمجتمع؛ لأنه جزء من هذه المنظومة، وعليه القيام بما يحتمه عليه مسؤوليته ضمن الجماعة.

واختيار الإمام الحسن عليه السلام لفظ (**استثمار**) فيه دلالة واضحة وقوية على أن المراد هو زيادة الإنتاج، فلم يقل (**استغلال**)، لأن هذا اللفظ يدل على المنفعة الشخصية ومجرد العمل للكسب، أما الاستثمار فإنه يدل على زيادة الإنتاج والإثمار والمنفعة العامة، وهي ملاحظة جليلة تنبئ عن إمكانية المعصوم في توجيه أكثر من أمر بلفظ واحد وقابلية العبارة لأكثر من فهم.

الإمام الحسن عليه السلام دقيق في اختيار اللفظ لإيصال مراده وجعل استثمار المال هو تمام المروءة وكمال شخصية الفرد فـ«**قد تكون النقطة الوحيدة التي تتفق عليها المذاهب الإسلامية والرأسمالية والماركسية جميعاً على الصعيد المذهبي هي تنمية الإنتاج والاستفادة**

من الطبيعة إلى أقصى حد ضمن الإطار العام للمذهب»[1] فإن عملية الإنتاج تحتاج إلى تفاعل جميع طبقات المجتمع المتضمن للأفراد، كلٌّ حسب طبيعة عمله مما يتفق مع الإطار العام والمنظومة الاقتصادية المتشكلة بحسب التوافق والتعاقد الحاصل في بناء هيكلية تضمن حصول الجميع على حقوقهم المالية.

إذن من أساسيات وأصول العمل تفصيل النشاط الاقتصادي وتوفير احتياجات الجماعة والمساهمة الفاعلة والجدية في تطوير أساليب العمل وثقافة العامل في معرفة أدبيات عمله، إضافة إلى إتقانه لأسلوب عمله وتطوير قابلياته الذاتية.

هذه نظرة فاحصة ورأي حصيف وتقنين بأعلى مستوى في المجال الاقتصادي، تلمسه في هذه المقولة الحسنية التي يتراءى لقارئها استخدام مصطلح اقتصادي حديث، وهو الاستثمار، والذي هو محور الدراسات الحديثة في الوقت الحاضر، فما أروع الفكر المعصومي عند التنظير في مختلف العلوم الإنسانية والطبيعية، بحيث أنه يشعر بأن المعصوم قد تكلم بلغة منسجمة مع كل عصر

---

(١) اقتصادنا، محمد باقر الصدر، ص٦١٥.

بل هم من يؤسس للمصطلحات العلمية وابتكار المواضيع وتفريعها.

سئل الإمام الحسن عليه السلام: **(من أحسن الناس عيشاً؟ قال: من أشرك الناس في عيشه)**.

العيش لا يقاس بمدى رفاهيته واستقراره بما يفيض على الفرد من مكاسب تغنيه، وتضعه في حالة سعادة واكتفاء معيشي، يؤمن له ولعياله عدم الفقر والحاجة، بل إن حسن العيش يتمثل في مشاركة الآخرين والتضامن معهم والتحمل عنهم ما يتحملون.

وإن من مصاديق هذا القول العمل الذي يقوم به الفرد خدمة لمجتمعه وتلبية لمتطلباته، فكل عمل يصدر من أفراد المجتمع يصب في الازدهار المعيشي لكل مكوناته، فلولا إنجاز الأعمال لوقع المجتمع في مشاكل كثيرة تؤدي به إلى الانهيار والفناء فمن يتجشم عناء العمل، وغايته سد النقص السوقي للمجتمع يكون قد ساهم، وشارك الباقين في ردء الخطر وإبعاد مشكلة الفقر التي تحيط بأي أمة لا يتحمل أفرادها مسؤوليتهم في إنعاش الوضع الاقتصادي والتجرد من أي غاية شخصية فهو بالتالي أيضاً يحتاج للجماعة

لتوفير باقي شؤون الحياة الكثيرة، فالمشاركة أمر ضروري للجماعة في التكامل والتكافل.

استخدم الإمام الحسن المجتبى عليه السلام بلاغة عالية في الرد على السؤال (**من أحسن الناس عيشاً**) والرد على بالنسق السؤالي نفسه (**من أشرك الناس في عيشه**) لكنه في الوقت نفسه يعطي معنى آخر مغاير لمفهوم السؤال، فالسؤال عن أفضل الناس في أسلوب حياته ومقدار ثروته ورفاهية عيشه والمتنعم بمكاسبه، ولكن الإمام الحسن عليه السلام يرفض هذا التقويم، ويقوّم السؤال بإجابة رائعة، تدل على روح الجماعة وأصالة المجتمع والإيمان بالإنسان أنه محور الوجود، ولا يمكن له العيش بمفرده من غير إشراك الآخرين معه لتتم بذلك إنسانيته، فالرابط بين الأفراد هو روح التعاون بينهم وشعور بعضهم بالآخر واندماجهم في جسد واحد هو المجتمع، فإشراك الناس في عيش الفرد هو أجلى صور التكافل الاجتماعي والإحساس بالمسؤولية امام الناس المحيطين به، هذه هي رسالة الإمام الحسن عليه السلام التي يوجهها بقوله المبارك في العيش المشترك.

الصداقة:

يتميز علم الاجتماع بعنايته بالعلاقات الإنسانية المتنوعة، علاقة الفرد بالفرد أو علاقة أفراد الأسرة مع بعضهم أو علاقة أفراد المجتمع عموماً بجميع أصنافه، لكن من أبرز العلاقات الاجتماعية والتي ركز عليها فلاسفة علم الاجتماع والمنظرون له، إضافة إلى النظام الإسلامي الذي شرع لجميع العلاقات، وهذبها، وقننها بأسلوب يحافظ على جماليتها وأصالتها تلك العلاقات الإنسانية.

ومن تلك العلاقات علاقة الصداقة التي ذكرت في روايات وأخبار أهل البيت عليهم السلام وفي القرآن الكريم كما في قوله تعالى ﴿**فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ * وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ**﴾[1] أي أن الصديق الحميم يكون شافعاً ومخلصاً من العقاب الأخروي إشارة إلى مكانة الصديق عند الإنسان. ورد عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام في هذا الصدد قوله: (**لا عليك أن تصحب ذا العقل وإن لم تحمد كرمه، ولكن انتفع بعقله، واحترس من سيء أخلاقه، ولا تدعن صحبة الكريم وإن لم**

---

(١) الشعراء: ١٠٠ – ١٠١.

تنتفع بعقله، ولكن انتفع بكرمه بعقلك، وافرر كل الفرار من اللئيم الأحمق)[١].

توجيه رائع من الإمام علي عليه السلام لاختيار الصديق الصالح الذي ينتفع به ومنه، وعن الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام قال: (**يا شيعة آل محمد، اعلموا أنه ليس منا من لم يملك نفسه عند غضبه، ومن لم يحسن صحبة من صحبه، ومخالفة من خالفه، ومرافقة من رافقه، ومجاورة من جاوره، وممالحة من مالحه**)[٢] ما أجمل هذا التنظير التربوي والواقعي في المجتمعات الصالحة.

إذا كانت الصداقة بحسب الموازين الشرعية والنظريات الفلسفية والاجتماعية فإنها تخلق علاقات في غاية الروعة والتقارب والتجانس الاجتماعي يؤدي إلى نشوء أمة سليمة من الأمراض وصادقة في تعاملاتها ومنتجة ثقافياً واقتصادياً وسياسياً وظهور بيئة تحترم أفرادها، وترفع من مستواهم الخُلقي، وتسمو بهم إلى مراتب عليا، وتحقق المدينة الفاضلة مبتغى كل الأنبياء والصالحين، يقول

---

(١) وسائل الشيعة، ٨: ٤٠٩، ح١.

(٢) وسائل الشيعة، ٨: ٤٠٢، ح٣.

الإمام الحسن عليه السلام: (**اعرف الناس بحقوق إخوانه وأشدهم قضاء لها، أعظمهم عند الله شأناً ومن تواضع في الدنيا لإخوانه فهو عند الله من الصديقين ومن شيعة علي بن أبي طالب عليه السلام**)[1].

صفات الصديق:

نذكر نصاً للإمام الحسن المجتبى عليه السلام لعله من أجمل النصوص في معنى الصداقة الحقيقية القرآنية والإنسانية، يقول الإمام الحسن عليه السلام في إحدى خطبه الشريفة (**أيها الناس، إنما أخبركم عن أخ لي كان من أعظم الناس في عيني، وكان رأس ما عظم به في عيني صغر الدنيا في عينه، كان خارجاً من سلطان بطنه، فلا يشتهي ما لا يجد، ولا يكثر إذا وجد، كان خارجاً من سلطان فرجه، فلا يستخف له عقله ولا رأيه، كان خارجاً من سلطان الجهالة، فلا يمد يده إلا على ثقة لمنفعة، كان لا يشتهي، ولا يتسخط، ولا يتبرم، كان أكثر دهره صامتاً، فإذا قال بذ القائلين، كان لا يدخل في مراء، ولا يشارك في دعوى، ولا يدلي بحجة حتى يرى قاضياً، وكان لا يغفل عن**

---

(١) الاحتجاج، الطبرسي، ٢: ٢٦٧.

إخوانه، ولا يخص نفسه بشيء دونهم، كان ضعيفاً مستضعفاً، فإذا جاء الجد كان ليثاً عادياً، كان لا يلوم أحداً فيما يقع العذر في مثله حتى يرى اعتذاراً، كان يفعل ما يقول، ويفعل ما لا يقول، كان إذا ابتزه أمران، لا يدري أيهما أفضل نظر إلى أقربهما إلى الهوى، فخالفه، وكان لا يشكو وجعاً إلا عند من يرجو عنده البرء، ولا يستشير إلا من يرجو عنده النصيحة، كان لا يتبرم ولا يتسخط، ولا يتشكى، ولا يتشهى، ولا ينتقم، ولا يغفل عن عدو، فعليكم بمثل هذه الأخلاق الكريمة، إن أطقتموها، فإن لم تطيقوها كلها فأخذ القليل خير من ترك الكثير، ولا حول ولا قوة إلا بالله)[1].

منظومة من الجواهر السنية وقلادة من الدرر البهية وسلسلة من القلائد الذهبية وأسطر نورانية وفكر ثاقب، يصف به الإمام الحسن عليه السلام منظومة خُلقية متكاملة وصفات المؤمن الحقيقي التي يجب توفرها في كل شخص طامح للعيش في فضيلة وأمة جليلة.

يصف الإمام الحسن عليه السلام الصديق بالأخ دلالة على قرب الصديق الروحي، وجعله بمثابة الأخ، وهو في حقيقة الأمر يعطي

---

(١) الكافي الكليني، ٢: ٢٣٧، ح٢٦.

صورة للفرد الأمثل والإنسان الأكمل والأنموذج والقدوة التي يجب اتباعها من قبل الناس.

ثم يدرج الإمام الحسن عليه السلام الصفات الفاضلة التي يجب أن تكون في الصديق لمن يريد أن يتخذ صديقاً له بأن يكون قد صغرت الدنيا بعينه، ويكون خارجاً عن سلطان الشهوة من الأكل والفرج والجهالة في العلم، ولا يتشهى، ولا يتسخط، ولا يتبرم، عاقل حكيم، لا يشتغل بالمراء، متفقه في أمور دينه، فلا يدلي بشهادة إلا أمام القضاء، متقٍ وَصول مع إخوانه وأرحامه، ولا يتكبر عليهم ومؤثر لهم على نفسه، وكان ضعيفاً مستضعفاً مع الناس، أما إذا جد الجد في مواجهة الأعداء كان ليثاً عادياً، قليل الملامة مع أصدقائه إذا أمكن الاعتذار لهم، وكان موافقاً فعله لقوله، سواء قال أم لم يقل، كان مخالفاً لهواه، يخفي وجعه وألمه، ولا يظهره إلا لمن يبرئه مداراة للناس، ولا يستشير إلا أهل العلم والحكماء ممن يجد عندهم الإجابة، هذه الأخلاق الكريمة التي يندر وجودها كلها عند شخص واحد هي من مكارم الأخلاق وفضائل الأفعال، فمن لم يطق تحملها جميعاً فليتخلق ببعضها إن استطاع، فإدراك القليل أفضل من ترك الجميع.

نجد في هذه الخطبة أن الإمام الحسن عليه السلام قد صاغ برنامج عمل متكامل للإنسان، يقيه من الزلل، وينمي فيه الروح الإيمانية والإنسانية، وينقله من عالم الجهل والإحباط إلى عالم العلم والتقوى والمعاني الراقية، فيخلصه من براثن الأحقاد والكراهية والتدني الإنساني الذي يصل به إلى الحيوانية.

إن من القضايا الجذرية التي تمس حياة المرء عدم اعتنائه واستغراقه بأمور الدنيا، فإذا وصل إلى كفايته أصبح الزائد ترفاً والترف يؤدي بالإنسان إلى الحذر والدعة وقلة النشاط، وينعكس ذلك على الوضع العام للمجتمع، فمن صغرت الدنيا بعينه أصبح يرى الدنيا بمقاييسها الحقيقية، وأن العيش فيها لا يقتصر على جمع الثروة والانهماك بالعمل والغفلة عن باقي جهات الحياة العديدة، فمن تمكن من ضبط نفسه، وأخذ من الدنيا ما يحافظ على ديمومته وبقائه وحياته، فإنه سوف يعزف عن الزائد منها وقاية لنفسه واحتراماً لذاته الإنسانية.

وهذا سبب في احترام ذلك الإنسان الروحي والمعنوي والذي يمثل أنموذجاً حقيقياً للإنسان.

انما وجدت شهوة الطعام والشراب والجنس لغايات نبيلة، وهي الحفاظ على النوع البشري واستمرار حياته، وجعل الله تلك الشهوة محفزة للفرد على الأكل والشرب والتكاثر، ولكن إذا تجاوزت الحد المطلوب تحولت إلى مرض فتاك للفرد وللأمة، يهدم بنيتها الخُلقية والتربوية.

والإمام الحسن عليه السلام يبين حقيقة هذا الأمر، وهو أن الإنسان مخلوق سامٍ، خلقه الله، وكرمه، وجعله في حد وسط، فإما يرتقي إلى مصافّ الملائكة إذا عف نفسه، وضبط شهواته، فإنه بالطبع سيرتقي روحياً، أما إذا أطلق لنفسه العنان، وغلب غرائزه وشهواته على نفسه فإنه سيتدنى إلى مراتب الحيوانية، فأين سيكون من المجتمع الفاضل الذي يصبو الكل إليه؟

ومن نتائج ضبط النفس أن الإنسان سيكون مسيطراً على عقله وتسديد رأيه، ويتجه باتجاه الكسب العلمي لرجاحة عقله حينئذ، فيصبح رشيداً يحسب خطواته وأفعاله وأقواله بدقة وعقلانية، ويكون مؤهلاً لاختيار من يعتمد عليه، ويكون ثقة في التعامل معه والانتفاع منه علمياً وسلوكياً وأخلاقياً، ومن صفات ذلك الفرد الأنموذجي أنه لا يقع تحت تأثير غرائزه التي تدفعه

لفعل الشر أو العصبية أو السخط على الآخرين والتبرم والهروب من مسؤولياته الاجتماعية وواجباته أمام محيطه الإنساني والحياتي، وأن يتسم بالحكمة في القول والفعل، فلا يتكلم إلا عند الحاجة للكلام وإبداء الرأي أو السؤال والجواب عنه بمقداره.

هذه الصفات تجعل له تقديراً ووقعاً ومكانة في نفوس الناس ومصداقية في العلاقات المجتمعية، ولا يدخل في جدال لا جدوى منه إلا أن يكون منتجاً وموصلاً إلى الحقيقة، فإنه بذلك سيعزز ثقة الآخرين به وبفكره ورأيه.

أما إذا طلب في شهادة في القضاء لإثبات حق فإنه لا يدلي بها وبدليله وحجته إلا أمام صاحب الاختصاص، وهو القاضي الموكل بفض النزاعات بين الناس ورد الحق لصاحبه، فإنه بذلك سيحقق العدالة الاجتماعية، ويكرس القانون الشرعي أو الوضعي الذي يحكم المجتمع، فيكون مساهماً في الحفاظ على هيبة الدولة والقضاء وملبياً لدعوة اشادة الدولة العادلة والمدينة الفاضلة التي تتطلب احترام الجمهور لهيأته المنتخبة من قبل الشعب لتنظيم الشأن الداخلي والخارجي للأمة.

ومن صفات الصديق التي يجب توفرها فيه أن يكون مخلصاً ووصولاً لصديقه، لا يغفل عن مواساته في النكبات والمحن، ومتراصفاً معه في تحمل ما يصيبه من أذى أو فاقة، مشاركاً له في أفراحه وأتراحه، غيوراً عليه وعلى مصالحه مؤثراً لهم على نفسه، لا يخصها بشيء دونهم وهو من أجلى مصاديق الأخوة الإيمانية والإنسانية وصورة مشرقة لطبيعة التعامل للأفراد فيما بينهم.

وعليه أن يكون ضعيفاً مستضعفاً مع الناس سهل الجانب مرناً، وليس الضعف هنا صفة سلبية إذا كانت تمثل سلوكاً أدبياً وخلقياً في التعامل بين الناس، وليس المقصود أن يكون ضعيفاً في ذاته، بل في علاقته مع الآخرين التي تقتضي التسامح والتواضع والمحبة والصبر والأناة والإيثار والرحمة معهم، أما إذا جد الجد وتعرض الصديق أو المجتمع لخطر داخلي أو خارجي فانه سيكون شديداً وقوياً في مواجهته والدفاع والذب عن الحق، وأن يكون ليثاً عادياً، وهو ليس تناقضاً في الذات، وإنما هي معرفة في كيفية التحكم بالقوى الإنسانية ووضع الأمور في محلها والتعامل مع الناس، كلٌّ بحسبه، ومن أبرز تلك الصفات التي على كل صديق أن يتحلى بها هي التجاوز عن الخطأ والمسامحة وقبول الاعتذار، فمن

طبيعة الإنسان أنه يخطئ إلا من عصم، وهم الأنبياء والأئمة عليهم السلام، وما دام أنه معرض للخطأ فعلينا عدم ملامته على فعله إذا احتملنا منه الاعتذار، وهي من أروع وأنقى صور علاقة الصداقة.

بالتأكيد إن تلك الصفات لا يكون لها قيمة إذا لم يتبعها فعل وحركة تحققه، فالفعل متحقق سواء قال أم لم يقل، أعلن عنه أم لم يعلن، فالمهم أنه قد أجرى الفعل الصالح، سواء وعد به أم لم يعد، وهذا من الأدب الراقي والخلق الحميد، فليس بالضرورة أن يكون الفعل الصادر مسبوقاً بتصريح منه، بل إن بعض الأفعال يكون أداؤها بالخفاء أفضل كالصدقة وعيادة المريض وزيارة الأرحام والأصدقاء وغيرها من الأفعال التي لا تكون إلا بالخفاء أو عدم الإعلان عنها لإثبات أن فعلها لا لأجل مصلحة شخصية وانما ايماناً بالثواب أو احتراماً للعلاقة الإنسانية التي تربطهم.

ثم إنها إحدى الصفات المهمة التي يواجهها الفرد في مسيرته الحياتية والتي تحدد ذلك المسار، إما نحو الصواب أو نحو الخطأ، فإذا ما عرض عليه أمران، ولا يعلم في أيهما المصلحة والنفع عرضهما على نفسه فما قبلته النفس رفضه، وما رفضته النفس قبله؛ لأن النفس عادة تطمح لما يرضيها، وما يرضيها بالتأكيد هو امر

دنيوي، فالنفس تنجذب إلى ما يريحها، فتكون مخالفتها أولى لمن يريد تغليب لغة العقل على لغة الشهوة، فيختار الأمر الذي لا يحبه، فالنجاة فيه بالأمان من الوقوع في شباك الدنيا وغرورها الموقع في الهاوية.

عندما يمر الفرد بحالة من الألم والصراع النفسي فإنه يحتاج إلى جهة يشكو إليها حاله ومعاناته، وهذه الجهة يجب أن يكون لديها الثقة التامة بأنها هي من يعالجه من معاناته وآلامه ووجعه، وهي إما جهة روحية بأن يتجه إلى الله تعالى بالتوسل إليه باعتباره الخالق والبارئ والعارف بخبايا النفس أو إلى أحد المؤمنين، كأن يكون صديقاً مخلصاً يبث إليه حزنه وشكواه، وهي إشارة لطيفة وجليلة في إخفاء الإنسان حزنه وهمه وعدم الإخبار به لكي لا يسبب الألم للآخرين الذين تربطهم به علاقة المحبة والمودة، أو يكون على الصعيد المادي بأن من يمرض لا يظهر مرضه إلا على الخبير به والمعالج له، وهو الطبيب، فمن المستحب شرعاً عدم الإخبار عن المرض إلا بعد ثلاثة أيام.

إن في تلك الصفة جنبة إنسانية رفيعة من عدم تسبيب الأذى للناس والأصدقاء خصوصاً من باب المحبة، فالمحب يتألم إذا أصاب من يحبه ضرر أو مرض، فما أجمل وأحلى تلك العلاقة.

وفي النصح على الفرد أن يستشير من يجد فيه الحكمة والإخلاص في النصيحة عالماً وذا تقوى، فإنه سوف يجد عنده ضالته وإجابة سؤاله، فالمسألة لا توجه إلا لمن نثق به، ونظن رجاحة عقله، وهي من صفات الفطن الذي لا ينخدع بالكلام، ويميز الناس، ويضع مسألته في محلها لحصوله على مراده، إن مجموع هذه الأخلاق الحسنة من عدم التبرم والتسخط وعدم الشكوى وعدم التشهي والرحيم في قومه والشديد على عدوه، تلك الأخلاق الكريمة التي إذا توفرت في الفرد فإنه هو من يستحق مصطلح الصداقة، وهو المؤهل للمصاحبة، فمثله يكون ناصحاً وصديقاً يحفظ السر، ويعين على النوائب، لا يغدر، ولا يفجر، ويكون عوناً على استكمال النفس والحصول على الفضيلة، ويكون الاختبار لمن يحمل هذه الصفات بالمقدر المستطاع منها، والتخلق بها بما نطيقه أفضل من تركها كلها.

إن هـذا الإطـار العـام لمكـارم الأخـلاق الـذي يضـعه الإمـام الحسن عليه السلام، ويصف به أخـاً لـه أو صـديقاً قـد جمـع أهـم متعلقـات الفـرد مـع محيطـه الخـارجي ومـا يمكـن أن يواجهـه في الحيـاة الاجتماعيـة وكيفية التعامل مـع الأحـداث التـي يعاصرهـا بـأن يكـون لـه بنيـة ثابتـة مهما تعـاطى مـع تلـك الأحـداث وعقيـدة قويـة وإيـمان راسـخ بحقانيـة تلك الصفات وإنها مبادئ الفضيلة للإنسانية جمعاء.

قال تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ﴾[1]، وقال رسـول الله صلى الله عليه وآله: **(المرء على دين خليله، فلينظر أحدكم من يخالل)**[2] وعن أمير المؤمنين عليه السلام، قال: **(قارن أهل الخير تكن منهم، وباين أهل الشـر تبن عنهم)**[3] وقال عليه السلام **(الصديق الصدوق من نصحك في عيبك وحفظك في غيبك، وآثرك على نفسه)**[4].

وعن الإمام الحسن المجتبى عليه السلام: **(اصحب من إذا صحبته زانك، وإذا خدمته صانك، وإذا أردت منه معونة أعانك، وإن قلت صدق قولك، وإن**

---

(١) الفتح: ٢٩.

(٢) الأمالي، الطوسي، ٥١٨، ح٤٢.

(٣) نهج البلاغة، ج٣: ٥٣، ح٣١.

(٤) ميزان الحكمة، الريشهري، ٢: ١٥٨٩.

صلت شد صولك، وإن مددت يدك بفضل مدها، وإن بدت عنك ثلمة سدها، وإن رأى منك حسنة عدها، وإن سألته إعطاك، وإن سكت عنه ابتداك، وان نزلت إحدى الملمات به ساءك)[1].

ومن الروايات المهذبة والمؤدبة والحاثة على اختيار الصديق ذي الصفات الكريمة ومن يزين صاحبه إذا صاحبه حيث يقول الإمام الحسن عليه السلام: **(كان للحسن بن علي بن أبي طالب عليهما السلام صديق، وكان ماجناً، فتباطأ عليه أياماً، فجاءه يوماً، فقال له الحسن عليه السلام: كيف أصبحت؟ فقال: يا بن رسول الله أصبحت بخلاف ما أحب، ويحب الله، ويحب الشيطان، فضحك الحسن عليه السلام ثم قال: وكيف ذاك؟ قال: لأن الله عز وجل يحب أن أطيعه، ولا أعصيه، ولست كذلك، والشيطان يحب أن أعصي الله، ولا أطيعه، ولست كذلك، وأنا أحب أن لا أموت، ولست كذلك، فقام إليه رجل، فقال: يا بن رسول الله ما بالنا نكره الموت، ولا نحبه؟ فقال الحسن عليه السلام: إنكم أخربتم آخرتكم، وعمرتم دنياكم، فأنتم تكرهون النقلة من العمران إلى الخراب)**[2].

---

(١) شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد، ١٨: ١١٣.

(٢) معاني الاخبار، الصدوق، ٣٨٩، ح٢٩.

في هـذه الروايـة إشـارة لطيفـة، وهـي أن الصـديق إن كـان ماجنـاً فلا يستدعي أن نهجـره، وننبـذه، بـل عـلى الفـرد أن يكـون مسـؤولاً عـن إصـلاحه وتوجيهـه وإرشـاده إلى الصـواب وإلى الحـق، فالإسـلام ديـن المحبـة والسـماحة، وهـا هـو الإمـام الحسـن بـن عـلي عليه السلام، وهـو إمـام معصـوم يصـرح بـأن لـه صـديقاً، ولكـن هـذا الصـديق مـاجن، ولم يقاطعه أو يعاقبه، ولكـن عاملـه عـلى أنـه صـديق ومـن وظيفـة الصـديق الوقـوف إلى جنبـه والأخـذ بيـده ودفعـه بالاتجـاه الصـحيح، فهـي مـن أهـم واجبـات الصـداقة؛ لأن الصـداقة معنـى إنسـاني وقيمـة حضـارية عاليـة تنشـأ مـن مشـاعر الإنسـان الصـادقة في علاقتـه مـع النـاس، فـإن كـان الصـديق متخلقـاً بـأخلاق كريمـة ونبيلـة اسـتفدنا منـه، وإن كـان منحرفـاً عـن جـادة الصـواب صـححنا مسـيرته بالتـأثير عليـه وبيـان الحقيقة له.

وهذا المعنـى لعلـه مـن أفضـل أمثلـة المعـاشرة الاجتماعيـة وطبيعـة العلاقـات الأخويـة المجتمعيـة التـي يظهـر بهـا معنويـة الفـرد مـن دون أي شرط دينـي أو اقتصـادي أو مصـلحي، وهـو مـن أبـرز محـاور هيكليـة العمـران المـدني، فلـم يسـتنكر الإمـام الحسـن عليه السلام عـلى المقابـل

فعلـه متناسـياً واجبـه اتجاهـه، وينكـر علاقتـه، أو يتنكـر لهـا بصـديق مـاجن، وهـو ابـن رسـول الله ﷺ ليعطـي درسـاً اجتماعيـاً مهـماً في هـذا الصدد، وحـين يغيـب عنـه، ولم يتواصـل ذلـك الصـديق يتفقـده الإمـام الحسـن عليه السلام، ويسـأل عـن حالـه وسـبب غيابـه، والسـؤال بكيـف أصـبحت؟ مـا أروع هـذا التعامـل، ومـا أحوجنـا إلى هـذه الأخـلاق الحميدة المتجسـدة في الإمـام الحسـن عليه السلام، فقـد تعامـل معـه الإمـام عليه السلام بـما هو لا بـما هـو المقابـل، وبأخلاقـه لا بـأخلاق ذلـك الصـديق؛ لأن الفـرد ينطلـق في تعاملـه مـن قاعدتـه الأخلاقيـة ومكنونـه الفكـري، ويحسـبه هـو فمـن غـير المنطقـي أن نعامـل النـاس بحسـب أخلاقهـم هـم ومعتقـداتهم وتوجهـاتهم، وإلا أصـبحت العلاقـة بيـنهم غـير منتجـة وذات طابع واحد.

ويجيـب ذلـك الصـديق بأنـه أصـبح بخـلاف مـا يحبـه بـأن يكـون فاضـلاً متكـاملاً وسـلوكه منـتظماً ضـمن الأسرة الاجتماعيـة، وبخـلاف مـا يحـب الله تعـالى أن يكـون عليـه مـن الطاعـة لـه والانقيـاد لأوامـره ونواهيه، وأن يكـون عبـداً صـالحاً ومؤمنـاً، بـل صـار عـلى خـلاف إرادة الله تعالى الـذي خلـق الإنسـان سـليم الفطـرة، ووهـب العقـل، وأرسـل لـه بالرسـالة الحقـة ليسـتقيم في حياتـه، ويكـون عنصـراً مؤمنـاً ومـؤثراً

في محيطه الخارجي، ويشارك أقرانه في صناعة الحياة النزيهة الشريفة الفاضلة، ولكن أصبح كما يحب الشيطان من اتباع شهواته والميل لغرائزه وإرضاء رغباته ليكون تبعاً لإرادة الشيطان، وهذا الاعتراف يدل على مصداقيته، وأنه لا زال يحمل بذرة الخير وإمكانية التغيير، وهذا ما أراد الإمام الحسن عليه السلام بيانه للناس بإعطاء الفرصة الكافية للآخرين للإصلاح والتوبة وإعطائهم الأمل بوجود من يساندهم، ويقف معهم، وأن المجتمع مستعد لاستقبالهم إذا أرادوا تغيير واقعهم والانضمام لمحيطهم والعيش معهم بسلام وأمان واحترام.

ثم بعد ذلك يضحك الإمام الحسن عليه السلام في محاولة لنقل مشاعره اتجاهه وسروره لما لمس من مصداقية في كلامه، وأنه واعٍ لمعنى الصالح والطالح من الناس، وبأن مقابلة الآخر بالبشاشة والمرونة يفتح الباب أمام المقابل للإقبال عليه والقبول له وعدم إظهار التجهم وملامح الغضب، فإنها ستبعده، وتغلق امامه أي باب للإصلاح.

بعدها يبدأ الإمام الحسن عليه السلام خطوة جديدة بالاستفسار عن سبب انتقاده لنفسه، فبعد أن بين الأخلاق المذمومة للفرد من قبل

ذلك الصديق يبدأ بذكر الأخلاق المحمودة، وهي تربية نفسية يقوم بها الإمام الحسن عليه السلام لذلك الصديق تدريجياً، فيقول: إن الله تعالى يحب أن يكون الفرد مطيعاً وأنا عاص، والشيطان يحب أن أكون عاصياً لله، وأنا كذلك.

هذه مقارنة لطيفة وواقعية يجريها ذلك الفرد بين طريق الحق وطريق الباطل، وبين الحق الإلهي الضائع وتسويلات الشيطان التي فرضت نفسها عليه، وهو في الوقت نفسه يريد أن يطيع الله، ولكنه لم يطعه، ولا يريد أن يستمع إلى الشيطان، ولكنه قد أطاعه، أي أنه قد وقع بين أمرين وفي صراع نفسي شديد بين واقعه الماجن المرير وذاته السليمة الرافضة لهذا الانحراف.

والإمام الحسن عليه السلام يدرك هذا التناقض الذي وقع فيه صديقه، وأصبح يساعده بالاستماع إليه وتشجيعه للتغيير ونبذ الصفات السيئة، وهو منتهى الإتقان والعقلانية الاجتماعية وإعطاء مساحة واسعة للأفراد للدخول في المنظومة السياسية المدنية وكسب فرد صالح بدل إبقائه في انزلاقاته الفكرية وترويضه على الانقلاب على واقعه الخارجي غير المتوافق مع ذاته غير الشريرة والباحثة عن الخير.

يعلمنا الإمام الحسن عليه السلام بأن الإنسان ما دام أنه متغير، ويعيش تجاذبات نفسية، فيكون معرضاً للأخطاء والانحرافات وإمكانية تصحيحها، والامثلة على ذلك كثيرة ممن كانوا من الصالحين، ثم شذوا، وتغيروا، وسقط في الرذيلة والانحراف، وممن كان منحرفاً، ثم استوى، ورجع إلى ذاته، واتبع الحق، فلا يوجد ثابت، ولكن يبقى طريق الحق أوضح، ومنهاجه أبلغ، ومن يتبع القدوة كما في هذه الرواية ينجح، حيث جعل ذلك الصديق من الإمام الحسن عليه السلام قدوة له للاسترشاد برأيه وأخذ نصيحته.

هكذا يجب أن يكون الصديق رحب الصدر ومستمعاً جيداً وناصحاً مخلصاً وقدوة في الأخلاق والسلوك ومصاحباً في الشدائد والمحن كما هو في الأفراح والمسرات، ومما نسب إلى أمير المؤمنين عليه السلام قوله: (**الصديق نسيب الروح**)[1] ويقول عليه السلام: (**إنما سمي الصديق صديقاً؛ لأنه يصدقك في نفسك ومعايبك، فمن فعل ذلك فاستنم إليه فإنه الصديق**)[2]. ما أنصع هذا الفكر الاجتماعي الفائض

---

(١) شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد، ٢٠: ٣٠٠، ح٣٢٩.

(٢) عيون الحكم، علي بن محمد الليثي، ص١٧٨.

بالإنسانية والعقلانية، كلمات نورانية تحيي القلوب، وتجلي النفوس، وتربي الأمة على معاني الأدب والخلق الرفيع، وتؤطر العلاقات الاجتماعية بإطار المحبة والتفاهم بالصدق.

ضوابط اختيار الصديق:

لابد أن تتوفر عدة خصال في الفرد ليستحق أن يكون صديقاً وصاحباً، وتكون منسجمة مع تعاليم الشريعة الأخلاقية والمبادئ الإنسانية وتعاقد البشر في العيش التوافقي الجامع لكل الأذواق والصفات الحسنة.

يقول الإمام الحسن عليه السلام موصياً بعض ولده: (**يا بني لا تواخ أحداً حتى تعرف موارده ومصادره، فإذا استنبطت الخبرة، ورضيت العشرة فآخه على اقالة العثرة والمواساة في العسرة**)[1].

من يستقرئ النظريات الاجتماعية، ويقرأ الكتب المؤلفة فيها فإنه لا يجد زيادة على ما قاله أهل البيت عليهم السلام في كلماتهم القصار الكبيرة في المضمون والمغزى، بل لم يستطع الفلاسفة والمنظرون الوصول إلى ما شرعه المعصومون في هذا المجال، فنرى كلماتهم

---

(١) تحف العقول، ابن شعبة الحراني، ص٢٣٣، ح٢.

الشريفة تؤكد دائماً على الأخوة الإيمانية البعيدة عن المصالح الشخصية والأنانية لدوام بقائها وانعكاسها إيجابياً على الصالح العام، يقول الله تعالى ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ وقال ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾ ذلك الارتباط الروحي مع الجماعة المجتمعين على الخير والبر والطاعة، وهو مورد استئناس الفرد مع جنسه، فلا يستطيع العيش روحياً إلا معهم المستلزم للتودد إليهم ومشاركتهم في السراء والضراء، وتلك المؤاخاة الصادقة هي ما يعبر عنها بالصداقة التي دخلت في حيز تنظير الفلاسفة القدماء في رسم معالم السياسة المدنية وتكوين المدنية الفاضلة.

الإمام الحسن عليه السلام بحكمته العالية يضع ضوابط تلك الصداقة ومقدمات اختيار الصديق الصالح، فيقول (**لا تصاحب أحداً حتى تعرف موارده ومصادره**) فمن الضروري معرفة خلفيات الشخصية التي تريد مصاحبتها بالبحث ومعرفة أصله ووالديه وتربيته البيتية ونشأته الأسرية المؤثرة في طباعه وأخلاقياته؛ لأنه سيترك أثره على من يصاحب، وينقل تلك المكتسبات، سواء كانت إيجابية أو سلبية، فإما أن يرفعه روحياً ومعنوياً أو يهوي به سلوكياً

واجتماعياً، وكذلك البيئة المحيطة بذلك الشخص إن كانت بيئة صالحة أو فاسدة فإن الإنسان ابن بيئته ومحيطه الذي يعيش فيه، فهو يمثل انعكاساً لها ولسلوكياتها المستقيمة أو المنحرفة، وأيضاً معرفة صفاته ونعوته المتخلق بها، فهي صورة لشخصيته المنبثقة عن مجموع تلك الصفات، فإن كانت حسنة كان شخصية محترمة ومؤدبة ومهذبة ومرنة وذات تأثير إيجابي، أما إذا كانت سيئة فإنها سترمي بظلالها على الشخص المرافق لها، شاء أم أبى، لأنها قضية طبيعية لا يمكن إنكارها أو تكذيبها.

والبحث أيضاً عن علاقاته الاجتماعية وتعاملاته مع الآخرين ومدى انسجامها مع المجتمع، فلكل مجتمع -إضافة إلى ثقافته الدينية- ثقافة اجتماعية تشمل الأعراف والتقاليد والأدبيات التي توافق عليها ذلك المجتمع، فمن يخالفها يصبح شخصاً شاذاً اجتماعياً وذا سلوك مغاير لمن حوله، لا يؤثر فيهم، ولا يؤثرون فيه، بل إنه سيتقاطع معهم عملياً، وينقطع التواصل فيما بينهم، فلا يكون ذا قيمة اجتماعية ومرفوضاً في أوساطهم لعدم التزامه بالقوانين المجتمعية العقدية المتسالمة لديهم.

يجب كذلك ملاحظة الأماكن التي يرتادها، هل هي مما يرضي الله تعالى والمجتمع الصالح أو يرتاد أماكن الفساد التي تطبع عليه بطابع الانحراف والفساد الخُلقي؟ ويحاول أن يسحب صاحبه إليها لإيقاعه في مستنقعها الضحل والقذر، فيشوه مبادئه الخُلقية والأدبية.

ومن الأمور المهمة متابعة تعامله مع الناس إن كان تعاملاً إنسانياً من حيث مرونته وتسامحه ومصداقيته ومودته للآخرين وحرصه على مقدساته وأمته ووطنه والدفاع عنهم إذا واجهوا خطراً عدائياً، هل يتحمل مسؤولياته الإنسانية والخُلقية والقانونية اتجاههم؟ هل هو ملتزم بالواجبات والحقوق التي يمليها التعاقد الاجتماعي والقانون الشرعي؟ هل يحترم مجتمعه، ويحمل شعور وجوده بينهم على أنه فرد صالح ومنتج؟ كل هذه الأمور علينا أخذها في الحسبان ومراعاتها والعناية بها.

أيضاً التقصي ومعرفة طبيعة عمله إن كان عاملاً منتجاً نافعاً لجماعته أم متكلاً كسولاً يتكل على غيره في كسب رزقه وإذا عمل فهل إن عمله شرعي أو لا؟ هل يتقاطع مع مصلحة المجتمع أو لا؟

لأن الشأن الاقتصادي مهم في حياة الأمم والحرص على كون الفرد آخذاً بدوره في خدمة الناس أم عنصراً فاسداً ومفسداً في تركيبة المجتمع.

كل هذه الخلفيات المكونة لشخصية الصديق مهمة في اتخاذ القرار بمصاحبته ومؤاخاته أم لا، وقد أوجزها الإمام الحسن عليه السلام بكلمة واحدة جامعة مانعة مختصرة مؤثرة بلطافتها في نفس المتلقي.

ثم يعطي الإمام الحسن عليه السلام النتيجة في هذا البحث قائلاً: (**فإذا استنبطت الخيرة، ورضيت العشرة فآخه**) أي بعد حصول الاستخبار عن حال ذلك الفرد المراد اتخاذه صديقاً ومعرفة أحواله وموارده ومصادره، وأنه مؤهل لصداقته أو غير صالح لمنحه تلك الثقة، وهذا العنوان المهم في حياة أي شخص؛ لان مصاحبته تعد جزء من تكوين الشخصية، وامتداد تأثيرها طويل وبعيد في بناء العلاقة الصادقة والصالحة معه.

بعدها يوصي الإمام الحسن المجتبى عليه السلام ولده بأنه إن عثر على ذلك الشخص فإن عليه واجبات اتجاهها، يجب مراعاتها وإعطائه حقه من تلك الصداقة من إقالة العثرة، فالإنسان معرض للخطأ،

وهـذا لا يعنـي مقاطعتـه وإهمالـه، بـل مسـاعدته في تصـويب خطـأه وتصـحيح مسـاره ورعايتـه في العسـرة مثـل مشـاركته في اليسـر، فالصداقة ليست في حالة واحـدة مـن اليسـر، فـإذا مـا تعـرض للنوائـب والمحـن والخلـل تركنـاه، ولم نعـتنِ بـه، فهـذا لـيس مـن أدب الصـداقة والأخوة الإيمانية.

وفي حـديث عـن النبـي محمـد صلى الله عليه وآله: (**لينصـح الرجـل مـنكم أخـاه لنصـيحته لنفسـه**)[1] وورد عـن الإمـام الصـادق عليه السلام: (**أن الرجـل ليصـدق حتـى يكتبـه الله صـديقاً**)[2] إظهـاراً لأهميـة الصـدق في العلاقـة مع الإخوان فـ«**مـن الحقيقـة بمكـان أن هنـاك غايـات سـامية لا تتحقـق إلا بالتفـاهم الصـحيح والتعـاون المثمـر البنـاء وتبـادل الثقـة والائـتمان بـين طبقـات المجتمـع وأفـراده**»[3] فـلا بـد إذن مـن البحـث المضـني قبـل اختيـار الصـديق الحقيقـي الـذي يبـادل صـديقه كـل مشـاعر المحبـة والمـودة والصـدق والإخـلاص والنصـيحة، فيكتمـل معـه روحيـاً،

---

(١) الكافي، الكليني، ج٢ ص١٦٦.

(٢) الكافي الكليني، ج٢، ص١٠٥.

(٣) الرؤية الإسلامية في الحالة الاجتماعية، صالح الخرسان، ص٤٠.

ويستكمل معه الفضائل الخلقية، ويكون سنداً له في مواجهة تحديات الحياة الكثيرة ومطباتها العديدة، فتمتزج الأفكار لتنتج سلوكاً موحداً، يتفق والشرائع الدينية والفطرة الإنسانية السليمة لتكوين خلية ناضجة وعتيدة تتجاوز كل معوقات الفشل والفساد والإحباط والتدني، وتقدم أنموذجاً طيباً وصالحاً، يقتدى به في صناعة الحياة الكريمة.

الأخلاق:

يعد مقياس الأمم في تطورها وتحضرها وثقافتها وتقدمها العلمي والاجتماعي الأخلاق التي تحملها تلك الأمة لأن؛ الأخلاق هي الدافع الحقيقي والوازع النفسي لتقديم ما هو أفضل على صعيد التعامل الإنساني أو العمل؛ لأنه يكون الفرد ملزم ذاتياً في أي فعل يقوم به، وهو قانونه الحقيقي في أدائه، أما القوانين الخارجية فلا تتعدى كونها منظمة لأفعال الإنسان وسلوكه العام في المجتمع وآلية تعامله وطبيعة علاقاته مع الآخرين.

وعبر القرآن الكريم عن هذا المعنى بوصفة للنبي محمد ﷺ، وهو الفرد الأمثل والإنسان الأكمل بقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ

عَظِيمٍ﴾[1] إفهاماً لنا بأن روح المجتمع تتمثل بالأخلاق التي تصنع الإنسان المثالي المهيأ لأي أمر إلهي للقيام به إيماناً منه بأحقيتها وصوابها، فهي صادرة من أحكم الحاكمين، وهي أيضاً كفيلة بإحاطة الإنسان بإطار من الجمال في رؤيته للناس بعين لا ترى إلا الجميل، فتدفعه للتعامل معهم بالإحسان واللطف والتسامح والثقة، أما أهل البيت عليهم السلام فإنهم كانوا القدوة والأنموذج في حمل الصفات الأخلاقية قولاً وفعلاً وممارسة، وشهد لهم بذلك العدو قبل الصديق، وتأسى بهم المسلم وغير المسلم لما شاهد فيهم من صفات كريمة تعبر عن المعنى الحقيقي للإنسان.

أصناف الناس:

يقول الإمام الحسن المجتبى عليه السلام في الأخلاق الاجتماعية **(الناس أربعة، فمنهم من له خلق، ولا خلاق له، ومنهم من له خلاق، ولا خلق له، قد ذهب الرابع، وهو الذي لا خلاق له، ولا**

---

(١) القلم: ٤.

خلق له، وذلك شر الناس، ومنهم من له خلق وخلاق، فذلك خير الناس)[1].

يقسم الإمام الحسن عليه السلام الناس إلى أربعة أصناف، وهو تقسيم موضوعي وعلمي، فالقسم الأول من يكون له خلق، ولكن هذا الخلق خال من أي التزام ديني، فتكون أخلاقه فارغة ومن غير معنى واقعي، فلا يستفيد هو منها، ولا ينتفع غيره بها، لأن الدين هو المنظم لحركة الإنسان، فالأخلاق وحدها لا تؤدي الغرض كاملاً، فكل شيء يحتاج إلى تقنين، وهذا الصنف ليس هو المطلوب في الحياة الاجتماعية؛ لأنه يفتقر للمحور الثاني المكمل له.

أما الصنف الثاني، وهو من له خلاق وخلق، فهو بالعكس من الصنف الأول؛ لأن الدين والحظ والنصيب منه أمر مطلوب، وهو التزام بالشريعة، سواء كانت الإلهية أم الإنسانية، ولكن هذا الالتزام مادي خالٍ من أي روح، فالفرد لا يحكم من الخارج فقط، بل يحتاج إلى التزام ذاتي داخلي، يكون مع الالتزام الخارجي وحدة متكاملة هي الإنسان الصالح، أما افتقاد الجانب الروحي

---

(١) الخصال، الصدوق، ٢٣٦، ح٧٧.

والأخلاقي فيجعل منه فرداً غير كامل وغير مؤهل للانخراط بالحياة الاجتماعية، والقسم الثالث، وهو من لا خلق له، ولا خلاق، فهذا عنصر فاسد ومضر بالمجتمع منسلخ عن مفاهيمه وغاياته النبيلة في العيش بين الناس باحترام محفوف بالمعرفة بالحقوق والواجبات، فيكون ذلك الشخص وجوده ضرر على المجتمع وشر محدق به، فلا يرتجى منه الخير والمنفعة، فلا رادع له لا داخلي ولا صاد له عن فعل أي معصية، ولا ورع له في فعل أي منكر، وهذه مشكلة اجتماعية يجب أن يوضع لها حد وحل لئلا تتمدد، وتترك آثاراً سلبية عليه، تكون عواقبها وخيمة، وهذا الصنف مرفوض دينياً واجتماعياً وساقط عن كل الاعتبارات الإنسانية.

أما الصنف الرابع، وهو الصنف المطلوب، وهو من كان له خلق وخلاق، أي يتمتع بكلا الأمرين اللذين يكمل بعضهما بعضاً، فمن يملك الصفات الأخلاقية يكون مؤهلاً في أخذ دوره في الحياة الاجتماعية على أنه عنصر فعال ومؤثر بما يحمل من سجايا مقومة لسلوكه ومعاملاته ولعلاقاته الإنسانية التي تدخل الأخلاق في كل

مفصل منها، وأما التزامه بالقانون المنظم لذلك السلوك ولتلك العلاقات فإنه سوف يضعه على المسار الصحيح في نشاطه ضمن جماعة تعتمد عليه في ضبط الموازين الحياتية التي تحتاج إلى الكفاءة الإنسانية على المستويين الأخلاقي والعملي، وهذا الصنف الذي يعبر عنه الإمام الحسن عليه السلام بأنه خير الناس أي الفرد الذي يمثل الوسطية والاعتدال في مسيرة الأمة كما يقول رسول الله صلى الله عليه وآله (**خير الناس من نفع الناس**) والمنفعة تحصل بتقديم الخدمة في جميع مجالاتها مزينة بالأخلاق الحميدة، إن ذلك الفرد الصالح هو اللبنة الرئيسة في بناء المجتمع على مرتكزات قوية ومتينة وثابتة.

إن هذا الفكر الاجتماعي الواسع والمنفتح في رؤيته على المصلحة العامة يؤسس لفكر اجتماعي واعٍ وناضج، يتماشى مع جميع العصور ومع جميع النظريات الإنسانية، فلا شك، ولا ريب أن الإمام الحسن عليه السلام هو خلاصة الفكر البشري، إضافة إلى أنه مترجم للوحي الإلهي في نشر مفاهيم الخير والمحبة والسلام.

الخلق الحسن:

إن فضيلة الأخلاق على غيرها من السجايا الإنسانية مما لا يختلف عليه اثنان، فهي قيمة إنسانية عليا ومبدأ بشري ينبع من الفطرة والتجربة الإنسانية التي اكتشفت أن المقوم الحقيقي والأصيل لكينونة الإنسان هي الاخلاق الحسنة.

وقد عبر الإمام الحسن عليه السلام عن ذلك المعنى بتعبير مختصر ولطيف ومحبب للسامع إذ يقول عليه السلام: **(أحسن الحسن الخلق الحسن)**[1].

إن الإنسان له محاسن كثيرة ومزايا عديدة، وكل منها له سمته وخصائصه، فالجمال من المحاسن للإنسان، فإذا كان ذا حسن في شكله وهيأته قد وهبه الله تعالى إياها، وهي صفة مطلوبة في كل إنسان، الجمال التكويني والتجميل بالملبس وتنظيم الهيأة، هذا من الأمور الاجتماعية المحبوبة والمطلوبة وكثيراً ما اكد عليها الإسلام

---

(١) الخصال، الصدوق، ٢٩ ح١٠٢.

قرآنيا ﴿خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾[1] وحديثياً ما ينقل عن الإمام الحسن المجتبى عليه السلام، فإن الإمام الزكي عليه السلام كان إذا قام إلى الصلاة لبس أجود ثيابه، فقيل له: يا ابن رسول الله، لم تلبس أجود ثيابك؟ فقال: (**إن الله جميل يحب الجمال، فأتجمل لربي، وهو يقول ﴿خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ فأحب أن ألبس أجود ثيابي**)[2].

فالاهتمام بالمظهر مما يعتني به الإسلام، ويحث على الظهور بمظهر جميل ومنظر لطيف، يسر الناظر، ويعكس جمال الإسلام وفكره الاجتماعي في الاهتمام بالمظهر العام للإنسان؛ لأنه يعكس الثقافة الإسلامية وحضورها في الذوق العام الإنساني، ومما يستحسنه الإسلام وكذلك النوع البشري عامة جمال الكلام وصحة اللسان في نطقه واختياره لعبارات المودة والمحبة في حديثه مع الناس وفي أدبيات حواره معهم، فللقول تأثير كبير في انسجام الناس وتقارب أفكارهم وزيادة اللحمة بين أبناء الأمة الواحدة والاهتمام بجمالية الكلام وحسنه محل اهتمام العقلاء والمفكرين

---

(١) الأعراف: ٣١.

(٢) تفسير العياشي، محمد بن مسعود العياشي، ٢: ١٤، ح٢٩.

والخطباء والفلاسفة والعلماء؛ لأنه آلية إيصال الأفكار، فهو ترجمة لمشاعر الإنسان وأحاسيسه وأفكاره ومعتقداته، وهو من أبرز أساليب التواصل الاجتماعي، ومن محاسن الإنسان الثروة والمال إن كانت من طريق شرعي وعقلائي من غير غصب للحقوق وانتهاك للمصالح العامة، فإنه يكون زينة للفرد إن أحسن استخدامه لمنفعة مجتمعه وإصلاح حال جماعته، فيكون مردوده ايجابياً على شخصه وعلى أمته ومن حوله في إظهار ما أنعم الله تعالى عليه.

ومن الحسن أيضاً أن يكون للفرد الأولاد والذرية والوجاهة الاجتماعية التي تضع الفرد في واجهة الجماعة ومتصدراً لرأيهم، وهذا من الصفات الجميلة التي يتصف بها الفرد، وهناك كثير من الصفات الحسنة التي تجمل الإنسان، وتحسنه، ولكن أحسن هذه الصفات هي الصفات الأخلاقية التي تحسن أي عمل، فما قيمة الجمال الشكلي إن لم يكن معه خلق؟ وما قيمة المال والثروة وصاحبها لا يملك أخلاقاً؟

ولا يمكن أن يجتمع الكلام الحسن مع عدم الأخلاق، فكل مبدأ للحسن والجمال والوجاهة وغيرها من مميزات وسمات الإنسان تصبح بلا قيمة إذا لم تحكمها الأخلاق الحسنة الكريمة،

فهي الرابط الذي يجمع محاسن الفرد، وهو المسؤول عن تحسينها أو تقبيحها؛ ولذا قال الإمام الحسن الزكي عليه السلام: إن أحسن الحسن الخلق الحسن، أي أفضل ما يزين الإنسان هو اخلاقه وإن كان فقيراً بسيطاً في هيأته، ولكن راجح في عقله كريم في نفسه متصف بصفات الخير والسماحة والإيثار والطيبة والكرم وغيرها من مكارم الأخلاق.

هذا الفرد هو المطلوب اجتماعياً والمرغوب إنسانياً والأنموذج الذي يعول عليه في تربية مجتمعه ورفد أفراده بالقيم الحياتية السامية ومظهر للفرد المؤمن العقيدي الصالح.

ورد عن أبي عبد الله عليه السلام أنه قال: (**قال النبي صلى الله عليه وآله: ألا اخبركم بأشبهكم بي؟ قالوا: بلى يا رسول الله، قال: أحسنكم خلقاً، وأليكم كنفاً، وأبركم بقرابته، وأشدكم حباً لإخوانه في دينه، وأصبركم على الحق، وأكظمكم وأحسنكم عفواً، وأشدكم من نفسه إنصافاً في الرضا والغضب**)[1].

وقال رسول الله صلى الله عليه وآله: (**حسن الخلق يثبت المودة**)[2].

---

(١) الكافي الكليني، ٢: ٢٤١، ح٣٥.

(٢) تحف العقول، ابن شعبة الحراني، ص٤٥.

وعن أمير المؤمنين عليه السلام، قال: (**عنوان صحيفة المؤمن حسن خلقه**)[١].

تضافرت الاخبار على أهمية حسن الخلق في حياة الفرد والأمة وتهذيبها للعلاقات العامة والخاصة، فالأخلاق ركن من أركان بناء أي مجتمع صالح.

الأخلاق العملية:

١. لا تقتصر الأخلاق ومكارمها على الصفات والسجايا النفسية فقط بل تحتاج إلى ممارسة فعليه وتطبيق عملي خارجي ينقل به الفرد تلك الصفات الحميدة إلى واقع ملموس، فلا قيمة للمعنى إذا لم يظهر على فعل الإنسان، يقول الإمام الحسن عليه السلام: (**إذا لقي أحدكم أخاه فليقبل موضع النور من جبهته**)[٢].

إن نقل المشاعر والأحاسيس إلى الآخرين أمر ضروري ومهم في تناغم العواطف وتفاعل النفس مع البيئة الاجتماعية التي يعيش

---

(١) بحار الأنوار، المجلسي، ٦٨: ٣٩٢، ح٥٩.

(٢) تحف العقول، ابن شعبة الحراني، ص٢٣٦، ح٢١.

فيها الفرد، فالحياة الجامدة الخالية من أي حركة ونشاط إنساني تصبح غير مؤثرة وجافة عاطفياً، وتحيل المجتمع إلى مجموعة من الطقوس الفارغة البعيدة كل البعد عن حقيقة الإنسان المجبولة على التعامل المباشر وطبيعته التي جانب منها روحي، والآخر مادي، وهي متناسقة فيما بينهما؛ لذا يجب أن تكون العلاقة مع الناس على المستويين الجوهر والمظهر لتصل الرسالة كاملة.

قال الله تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ﴾[1]، إن الالفة بين الناس والمحبة والأخوة بينهم وحسن الخلق ترفع من شأن الإنسان عالياً، وتعطيه مقبولية لديهم بالصفات والمناقب وكذلك السلوك في التعامل، وبعكسه فإن كان فظاً وسيئ الخلق، فإن الناس سوف تبتعد عنه، وتتركه، وتتحاشاه خوفاً من فعله وتقية من لسانه، فيكون خارج المنظومة الاجتماعية.

يعطي الإمام الحسن عليه السلام مثالاً رائعاً لحسن التعامل وتجسيد الخلق في العلاقة مع الآخر، فيها جنبة خُلقية، وأخرى اجتماعية،

---

(١) آل عمران: ١٥٩.

فعند لقاء أحد من الإخوة عندها كيف نعبر عن حبنا له واحترامنا وشوقنا لشخصه؟ ما هي الممارسة اللائقة بحقه؟ كيف أستقبله بطريقة توحي له بمدى اعتزازي به وقبولي له؟ فيجيب الإمام الحسن عليه السلام عن هذه التساؤلات بلمحة براقة وصورة راقية بأن تقبله في موضع النور من جبهته، وهو موضع السجود، أي أن الإمام الحسن عليه السلام قد ربط بين المعنى الايماني والعلاقة الاجتماعية، وتعلق كل واحدة منها بالأخرى تعلق وثيق، فالأخوة الإيمانية منبثقة عنها كل المعاني الإنسانية الرابطة للبشر مع بعضهم، إن اختيار الإمام الحسن عليه السلام لهذا المعنى اختيار مدروس نابع من معرفة الإمام عليه السلام بطبيعة المجتمع واحتياج أفراده إلى التواصل والتفاهم، خصوصاً إذا كانت تلك العلاقة مبنية على أساس الإيمان والدين الجامعة لكثير من نقاط الالتقاء بين الناس.

وهذا العمل هو بذاته كفيل بتحرير المرء من كل قيود الأنانية وسحبه إلى حضيرة المشتركات الإنسانية التي تذوب فيها كل معاني الفردية والخصوصية المصلحية.

٢- إن تماسك المجتمع وتآصره وقوته في الحفاظ على كيان الفرد والأسرة واحترام الخصوصيات والسكوت على بعض سلبياتهم وعدم نشر الفحشاء والمنكر وما لا يحب الفرد إعلانه مما يحط من كرامته الإنسانية وإفشاء خصوصياته الأسرية، وبهذه الجزئية يقول إمامنا الحسن المجتبى عليه السلام: (**إذا سمعت أحداً يتناول أعراض الناس فاجتهد أن لا يعرفك، فإن أشقى الأعراض به معارفه**)[1].

جعل الإسلام للفرد وللأسرة قدسية، ومنع أي قول أو فعل يمس بهذا الكيان، وشدد على احترام الفرد بغض النظر عن انتمائه الديني أو القومي، فهو بالتالي إنسان، وله حقوقه الإنسانية، والإسلام له ادبياته وتربيته وأخلاقياته الملزمة للفرد إن أراد أن يكون مسلماً بحق، إن من الأمراض الاجتماعية الفتاكة الفضول لمعرفة سلبيات الآخرين والتوغل في خصوصياتهم مما يثير عواطفهم واستفزازهم في مشاعرهم، وبالتالي صدور أفعال سلبية على جميع الأطراف.

---

(١) الدرة الباهرة، الشهيد الأول، ص٢٢، ح٤٣.

إن من أكثر ما يثير الفرد هو المساس بعرضه، ولأن المسلم غيور، بل وكل إنسان حر يكون غيوراً على عرضه، فيكون حريصاً على عدم المساس به فعلاً أو قولاً، فإنسانية الإنسان ومروءته تحركه للحفاظ على كيانه وشرفه وكرامته، فلا يسمح لأي شخص أو جهة مهما كانت التجاوز على هذا المعنى الحساس في حياة كل شخص، ولكن البعض ممن لا يلزمه دينه ولا إنسانيته ولا نظامه الاجتماعي لا يتورع، ولا يمتنع من أن ينال من أعراض الناس، سواء كان فيهم عيب فعلاً أم لا، وغايته تفكيك اللحمة الاجتماعية وإيقاع الفتنة بين الناس ليتنافروا، ويتباعدوا، فيضعف المجتمع، ويفقد ثقته، ويتوحد في معيشته، وينطوي على نفسه ليتقي شر تلك الفتنة، فيصبح المجتمع ضعيفاً متفرقاً بعيش على أنه أفراد متفرقون لا جماعات وهو إصابة الأمة في مقتلها بسبب هذا التصرف المشين.

ولذا حذر الإمام الحسن عليه السلام من مصاحبة ومجالسة مثل هؤلاء؛ لأنه مرض معدٍ يصيب كل من يخالطهم، فيفسد المجتمع، ولا يكون في مأمن في أن ينال ذلك الشخص من عرضه، فالأسلم له هجره والابتعاد عنه والاشارة عليه بالخطر، وبهذا سوف

ينحصر التعامل معه ويُقضى على هذه الظاهرة الاجتماعية عملياً كي لا تتسع رقعتها والتحديد من نشاط هؤلاء المفسدين، فإنه أكثر ما يتعرض لمن هم حوله، فعلى الفرد الاجتهاد في عدم معرفته. إن تشخيص هذه المشكلة الاجتماعية من قبل الإمام الحسن عليه السلام ووضع الحل لها يدل على الفكر النير للإمام ومعرفته للتركيبة الاجتماعية بدقة والحفاظ على الأمة من تضعيفها وتفكيكها ونبذ أي عنصر سلبي فيها.

يقول الإمام الحسن عليه السلام: (**إن من أخلاق المؤمنين قوة في دين وحزماً في لين وإيماناً في يقين وحرصاً في علم وشفقة في مقت وحلماً في حكم وقصداً في غنى وتجملاً في فاقة وتحرجاً عن طمح وكسباً من حلال وبراً في استقامة ونشاطاً في هدى ونهياً عن شهوة، إن المؤمن عواذ بالله، يحيف على من يبغض، ويأثم فيمن يحب، ويضيع من استودع، ويحسد، ولا يطعن، ويعترف بالحق وإن لم يشهد عليه، وينابز بالألقاب، في الصلاة متخشع، وإلى الزكاة مسارع وفي الزلات وقور وفي الرخاء شكور، قانع بالذي عنده، يدعى ما ليس له، يجمع في قنط، ويغلبه الشح عن معروف يريده، يخالط الناس ليعلم،**

ويناطق ليفهم، وإن ظلم أو بغي عليه صبر حتى يكون الرحمن الذي ينتصر له)[١].

وقال عليه السلام: **(يا ابن آدم عفّ عن محارم الله تكن عابداً، وارض بما قسم الله سبحانه تكن غنياً، وأحسن جوار من جاورك تكن مسلماً، وصاحب الناس بمثل ما تحب أن يصاحبوك به تكن عدلاً)**[٢].

وسئل عن الصمت، فقال: **(هو ستر العمر وزين العرض، وفاعله في راحة، وجلسيه آمن)**[٣].

الرئاسة:

عند رسم معالم أي مدينة فاضلة عند الفلاسفة والمفكرين والأنبياء والمصلحين وعلماء الاجتماع فان من أبرز أركان تلك المدينة، بل هي الأهم إطلاقاً هو انتخاب الرئيس الصالح الذي يدير شؤون المدينة أو المجتمع بحكمة وعقلانية وشجاعة وعلم وبصيرة

---

(١) أعلام الدين في صفات المؤمنين، الديليمي: ١٣٧.

(٢) كشف الغمة، الإربلي، ٢: ١٧٩.

(٣) كشف الغمة، الإربلي، ج٢ ص١٩٤.

وأن يكـون عـلى قـدر عـالٍ مـن الأخـلاق والأدب والعلـم والتواضـع فهـو يمثـل رأس الهـرم والأنمـوذج للمجتمـع، فمـن يسـتحق هـذا المنصـب يجـب أن يكـون هـو الأكفـأ بـين الموجـودين، وهـو مـا يقتضـيه العقل والمنطق، فمـن يملـك المـؤهلات جميعهـا هـو مـن يقـود المجتمـع، ويـديره بكفـاءة عاليـة وحسـن تـدبير لكـي يجعـل المجتمـع في سـعادة وراحة، ويحقق العدالة الاجتماعية بين الناس.

وقـد اختلـف المنظـرون في ضـوابط وشروط اختيـار رئـيس الجماعـة الصـالحة، فقسـم انـتهج المـنهج الإلهـي في كيفيـة اختيـاره كالأنبيـاء الـذين بعـثهم الله تعـالى قـادة للبشـر في أممهـم، والأوصـياء الـذين نصـبوا مـن بعـدهم، وكـذلك أئمـة الهـدى ومصـابيح الـدجى والعـروة الـوثقى المعصـومون مـن الزلـل والخطـأ اعـتماداً عـلى قاعـدة العصـمة، وأنهـم كـاملون مـن جميـع جـوانبهم الروحيـة والبدنيـة والعلمية والخلفية.

والقسـم الآخـر انـتهج المـنهج الإنسـاني في اختيـار وتنصـيب الرئيس للدولة أو الحكومة التـي تعاقـد عـلى بنائهـا النـاس لتنظـيم أمـور حيـاتهم ووضـع شروط يجـب أن تنطبـق عـلى الشـخص الـذي يتصـدى

لهذا المنصب البارز والمسؤولية الكبرى، والتي ينبغي أن لا تسلم إلا لمن يستحق أن يكون في هذا الموضع، والاختيار الإنساني قطعاً يكون ناقصاً، فالشروط والضوابط التي يضعونها ناتجة عن تجربتهم الشخصية غير الكاملة، وبالتالي فإن اختيار رئيس الحكومة أو الدولة أو الأمة لا يأتي مطابقاً لمواصفات الشخصية الكاملة التي يجب أن تحكم المجتمع من حيث الحكمة والعلم والشجاعة وغيرها من الصفات.

وهنا يضع الإمام الحسن المجتبى عليه السلام قواعد اختيار الرئيس الصالح لحكم المجتمع، فيقول في كتاب كتبه لمعاوية بن أبي سفيان، يقرعه فيه، ويبكته بأمور كانت فيه: (**ثم وليت ابنك، وهو غلام يشرب الشراب، ويلهو بالكلاب، فخنت أمانتك، وأخزيت رعيتك، ولم تؤد نصيحة ربك، فكيف تولي على أمة محمد صلى الله عليه وآله من يشرب المسكر، وشارب المسكر من الفاسقين، وشارب المسكر من الأشرار، وليس شارب المسكر بأمين على درهم، فكيف على الأمة؟ فعن قليل ترد على عملك حين تطوى صحائف الاستغفار**)[1].

---

(١) دعائم الإسلام، القاضي النعماني، ٢: ١٣٣ ح٤٦٨.

يحـدد الإمـام الحسـن عليه السلام في هـذا الكـلام الرائـع معـايير الحكـم ومقاييس الحاكم الـذي ينتخـب مـن قبـل الجمهـور، ويـتم التعاقـد معـه، فيكـون أمينـاً علـيهم وعـلى أرواحهـم وأمـوالهم، فمـن كـان يشـرب الخمر فإنه يكون فاقداً للشـرعية مـن حيـث أنـه خـرج عـن نظـام الـدين الذي شرعه الله تعالى للناس، وأيضاً بأن السكر يذهب بالعقل.

ومن أبرز صفات الحـاكم العقـل، فكيـف يحكـم مـن لا عقـل لـه؟ بالتأكيـد أن حكمـه سـيكون مجافيـاً للحـق، وبـذلك سـتفقد العدالـة، وينتشـر الفسـاد، فيكـون قمـة الهـرم سـبباً في هـدم بنائـه وتقـويض دعائمه، وقد عبر الإمـام الحسـن عليه السلام عـن شـارب الخمـر بأنـه فاسـق، أي لا حريجـة لـه، ولا صـاد لـه عـن فعـل المحـارم والمنكـرات والبغـي والفسـاد، وهـو أيضـاً مـن الأشرار، أي مـن الـذين لا خـير فـيهم، وفاعـل الشـر طاغيـة مسـتهين بالعبـاد والـبلاء، ولا يحـافظ عـلى المقدسـات ونفسـه مائلـة إلى الظلـم وغـبن الحقـوق، فهـو لـيس بـأمين عـلى المجتمـع وعـلى مصـالحه ونظامـه الاقتصـادي، فـإذا كـان لا يـؤتمن على المال، فكيـف يـؤتمن عـلى النفـوس والأعـراض والمقدسـات والقـيم والأخـلاق والمبـادئ للأمـة، فمـن بـاب أولى أنـه سـيخون الأمانـة، ولا يلتـزم بالعقـد الاجتماعـي الـذي فـرض عليـه مقابـل تسـنمه لمنصـب

الرئاسة الذي رشح له على أنه فرد من المجتمع وتحمل مسؤوليته، فهو تكليف لا تشريف، ومن يتصدَّ له عليه أن يكون بقدر المسؤولية، وإلا فإنه يكون قد أخل بالعقد، وتنصل عن التزاماته اتجاه جمهوره والناس الذين انتخبوه، فليكن مستعداً للعقوبة الدنيوية بإزاحته عن منصبه، والأخروية بحسابه أمام ربه.

إن الرئاسة تدخل ضمن النظام الاجتماعي الذي يشمل الفرد والجماعة، ويكون الاختيار بحسب غاية المجتمع، فإن أرادت مجتمعاً صالحاً وأمة رشيدة ومدينة فاضلة، وأخلاقها كريمة فإنها ستختار شخصاً صالحاً لقيادتها لمبتغاها، أما إذا كانت لا تهتم بالقيم الأخلاقية والقيم الإنسانية فإنها ستختار من يحقق لها مصالحها الشخصية ورغباتها الذاتية، فكلٌّ بحسبه وبالضوابط التي يضعها للانتخاب.

ومن يطالع رواية الإمام الحسين بن علي عليه السلام سيجد أن الرئاسة في الفكر الإسلامي وتشريعاته هي أمر إلهي لا يمكن تجاوزه أو التخلف عنه، إذ يقول الإمام الحسين عليه السلام: (**قال رسول الله صلى الله عليه وآله لعلي عليه السلام: انا أولى بالمؤمنين منهم بأنفسهم، ثم أنت يا علي أولى بالمؤمنين من أنفسهم، ثم بعدك الحسن أولى بالمؤمنين من أنفسهم،**

وبعده الحسين أولى بالمؤمنين من أنفسهم، ثم بعده علي أولى بالمؤمنين من أنفسهم ثم بعده محمد أولى بالمؤمنين من أنفسهم، وبعده جعفر أولى بالمؤمنين من أنفسهم، وبعده موسى أولى بالمؤمنين من أنفسهم، ثم بعده علي أولى بالمؤمنين من أنفسهم، ثم بعده محمد أولى بالمؤمنين من أنفسهم، ثم بعده علي أولى بالمؤمنين من أنفسهم، ثم بعده الحسن أولى بالمؤمنين من أنفسهم، والحجة بن الحسن أولى بالمؤمنين من أنفسهم، أئمة أبرار هم الحق، والحق معهم)[1].

هذه الرواية تبين التنصيب الإلهي لقادة الأمة الإسلامية متسلسلين، وأنهم أولى بالمؤمنين من أنفسهم دلالة على اكتمالهم النفسي والفكري والإيماني والأخلاقي والبدني الذي أهلهم لشغل هذا المنصب العظيم والخطير، فمن يقود الأمة يجب أن يكون هو الأفضل بينهم، فيرجع الناس إليه لاحتياجهم إليه، ولا يرجع هو لأحد لعدم احتياجه إليهم، فهو الفرد الأمثل والأكمل والأنموذج والقدوة للجميع، وهذا خلاصة الفكر الإنساني المستقيم والسليم لمعرفة من يستطيع القيام بمهام الرئاسة والإمامة للمجتمع والأمة.

---

(١) كفاية الأثر، الخزاز القمي، ص١٧٧.

إن مقتضى الرئاسة أن يقوم بإدارة شؤون الناس وفض نزاعاتهم وتنظيم أمور معاشهم وحمايتهم وتوفير الأمان لهم وتحقيق العدالة الاجتماعية بين الأفراد وإدارة النظم الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والعسكرية والأخلاقية بكل حكمة ووعي وإخلاص مقدماً المصلحة العامة على مصلحته الشخصية وأن يكون شجاعاً للدفاع عن الأمة من أي خطر قد يواجهها، وهذه الصفات جميعها اجتمعت وتوفرت بالنبي محمد صلى الله عليه وآله والأئمة الأطهار عليهم السلام، فكانوا بحق قادة المجتمع والمصلحين لمشاكله والقادرين على حل أزماته، ووضع سنن الحياة الكريمة وآداب المعايشة مع الآخرين، وشرعوا القوانين بما منحهم الله تعالى من صلاحية تشريعية، فوضعوا طريقاً ومنهاجاً لتنظيم سلوكيات المجتمع، وقاموا بالتأثير المباشر على الناس بمعايشتهم ومصاحبتهم وتربيتهم على السلوك الحسن والأخلاق الحميدة، فأوجدوا فرداً ناضجاً ومجتمعاً واعياً لفهم الدين والعمل به على أنه نظام حياتي وعلاج ناجع من سلبيات الماضي المكتسبة وتهيئة النفوس للترقي في تعاملها وعلاقاتها الاجتماعية؛ لذا فإن النبي صلى الله عليه وآله وأهل البيت عليهم السلام هم أنموذج لقادة

المجتمع، سواء كان بحسب الاعتقاد الذي يعتقده المسلمون أم بحسب التجربة الإنسانية السليمة والباحثة عن الحقيقة والكمال، فإن كلا الحالتين تشير إلى أن المعصومين هم من ينطبق عليهم مصطلح الرئاسة الاجتماعية انطباقاً تاماً.

هذا عرض موجز لمصطلح الرئاسة في فكر الإمام الحسن عليه السلام ضمن دائرة النظام الاجتماعي والتي سدد رؤيتها الإمام الحسن عليه السلام قولاً وسلوكاً في علاقاته الاجتماعية التي تميزت باهتمام الإمام الحسن عليه السلام بالمجتمع كثيراً إثر الظروف التي عاصرها والتي مر من خلالها المجتمع بإخفاقات كثيرة ومشاكل جمة، أثارها أعداء الإسلام لتفريغ الدين من محتواه وتفكيك الأمة الإسلامية، ولكن الإمام الحسن عليه السلام استطاع وبفكره أن يسد جميع الثغرات بممارسته لموضوع الكرم والتأديب والحفاظ على أمن المجتمع وتربيته على الأخلاق والمبادئ الحرة ورفع مستواه الإيماني والثقافي بالمواعظ والحكم.

****

خاتمة

هـذه هـي بعـض ملامـح الفكـر الاجتماعـي للإمـام الحسـن الزكـيعليه السلام الـذي استخلصـته مـن مقولاتـه الشـريفة الزاخـرة بـالعلوم والمعـارف، فكلـمات أهـل البيـت عليهم السلام لمـن يتـدبرها، ويتأمـل في أبعادهـا يجـد كـماً هـائلاً مـن معطيـات الحيـاة والتـي تسـاعد في وضـع قوانينـه ونظمه الاجتماعية والعلمية وغيرها.

إن المقارنة بـين الفكـر القـديم للفلاسـفة اليونـان ومـا نظـروا إليـه في الاجـتماع، وكـذلك مـا ذهـب إليـه المفكـرون والفلاسـفة المسـلمون وفلاسـفة الغـرب ومفكـروهم ومنظـرو علـم الاجـتماع وبـين فكـر الإمام الحسن عليه السلام فإنـه يجـد مـن يقـارن بينهما البـون الشاسـع والتفـاوت الكبير بـين الفكـرين، فـما صـدر عـن المعصـوم هـو أكثـر عمقـاً ونضـجاً وصحة من أقرانـه، ولا شـك فـإن المعصـوم يحمـل رسـالة السـماء والتـي لا تقبـل الخطـأ مـن حيـث التنظـير إضـافة إلى أن الإمـام الحسـن عليه السلام وأهـل البيـت قـد مارسـوا، وطبقـوا في الأخـذ لجميـع الأمـم الإنسـانية والاعـتماد عـلى مـنهجهم القـويم، فـلا يبقـى شـك في كماليـة فكـرهم

وتقدمه على غيره، وإنما قدمت البحث في الفصلين الأول والثاني مقدمةً مقارنة للباحث في هذا المجال والمستقصي الحقيقة بموضوعية وعلمية.

وهذه محاولة لفتح الباب لدراسة كلمات أهل البيت عليهم السلام من زوايا أخرى توائم التطور واللغة الحديثة في الحاضر والمستقبل، وأسأل الله تعالى أن أكون قد وفقت في هذا الطرح، وأوصلت الفكرة التي من أجلها ألف الكتاب.

والحمد لله رب العالمين.

الفهرس

الإهداء ٧

مقدّمة المركز ٩

مقدمة ١١

الفصل الأول ١٩

الفكر الاجتماعي: ٢٢

علم الاجتماع: ٢٤

أهمية الفكر الاجتماعي: ٢٥

الفرق بين الفكر الاجتماعي وعلم الاجتماع: ٢٦

نشأة الفكر الاجتماعي: ٣١

الفكر الاجتماعي اليوناني: ٣٣

أفلاطون: ٣٤

فكر أفلاطون الاجتماعي:..... ٣٥

فكر أرسطو الاجتماعي: ٤٤

أبرز آراء أرسطو الاجتماعية:..... ٤٥

رواد علم الاجتماع:..... ٥٥

هربرت سبنسر: (١٨٢٠-١٩٠٣) م ٦٥

آراء سبنسر الاجتماعية: ٦٧

توماس هوبز: (١٥٨٨ – ١٦٧٩) م..... ٧٣

آراء توماس هوبز الاجتماعية:..... ٧٥

جون لوك: (١٦٣٢ – ١٧٠٤) م..... ٨٣

نظريته في علم الاجتماع: ٨٤

ماكيا فللي: (١٤٦٩ – ١٥٢٧) م ٨٨

تنظيرات ماكيا فيللي الاجتماعية:..... ٩٠

كارل ماركس: (١٨١٨ – ١٨٨٣) م ٩٤

المجتمع في النظرية الماركسية: ٩٦

الفصل الثاني ١٠٣

رواد علم الاجتماع من المسلمين: ١٠٥

١- ابن خلدون: (٧٣٢ – ٨٠٨) هـ ١٠٧

العمران البشري: ١٠٩

العمران الحضري: ١١٣

وجوه المعاش: ١١٥

الفارابي: (٢٦٠ – ٣٣٩) هـ ١١٧

المدينة الفاضلة: ١١٩

السياسة المدنية: ١٢٥

ابن رشد: (١١٢٦ – ١١٩٨) م ١٢٧

الفلسفة الاجتماعية والسياسية لابن رشد: ١٢٩

علم الاجتماع في الإسلام:..... ١٣٧

الفصل الثالث ١٥٥

الفكر الاجتماعي للإمام الحسن عليه السلام: ١٥٧

الفرد الفاضل:..... ١٦٢

المودة:..... ١٩١

الشح:..... ١٩٦

الصمت:..... ٢٠١

حفظ اللسان: ٢٠٤

المزاح:..... ٢٠٧

العقل: ٢١٠

المجد:..... ٢١٣

الطاعة والمعصية:..... ٢١٥

الفرد الطالح:..... ٢٢١

الجهل: ٢٢٤

الكلفة: ٢٢٨

اللؤم: ٢٣١

المجتمع الفاضل: ٢٣٥

العلاقات الاجتماعية الصالحة: ٢٣٨

وصايا الإمام الحسن عليه السلام الاجتماعية: ٢٩٠

التكافل الاجتماعي: ٣٤٧

التكافل العلمي والمعرفي: ٣٥١

التكافل الاقتصادي: ٣٥٧

حقوق الناس: ٣٦٩

العمل: ٣٧٧

آداب العمل: ٣٧٨

الحث على العمل: ٣٨٦

وظيفة العامل:..... ٣٩٥

الحث على العمل:..... ٤٠١

الصداقة:..... ٤٠٦

صفات الصديق: ٤٠٨

ضوابط اختيار الصديق: ٤٢٥

الاخلاق: ٤٣١

أصناف الناس:..... ٤٣٢

الخلق الحسن: ٤٣٦

الأخلاق العملية: ٤٤٠

الرئاسة:..... ٤٤٦

خاتمة ٤٥٥

الفهرس ٤٥٧

من أجل التواصل بين المركز والقارئ

عزيزي القارئ الكريم..

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

نشكر لك اقتناءك كتابنا: (الفكر الاجتماعي للإمام الحسن عليه السلام للسيد زيد الحلو) ورغبة منا في تواصلٍ بنّاء بين المركز والقارئ، وباعتبار أن رأيك مهمٌ بالنسبة لنا، فيسعدنا أن تُرسل إلينا دائماً بملاحظاتك، لكي ندفع بمسيرتنا سوياً إلى الأمام.

الاسم الثلاثي واللقب: ..... الوظيفة (اختياري): .....

المؤهل الدراسي: ..... السن (اختياري): .....

العنوان (اختياري):

الدولة: ..... المدينة: ..... الحي: ..... الشارع: ..... رقم الدار: ..... ص ب: .....

الهاتف (اختياري): .....

البريد الألكتروني: .....

❖ من أين عرفت هذا الكتاب؟

○ أثناء زيارة مكتبة ○ ترشيح من صديق ○ إعلان ○ معرض ○ غيرها

❖ من أين اشتريت الكتاب؟

اسم المكتبة أو المعرض: ..... المدينة: ..... العنوان: .....

❖ ما رأيك في الكتاب؟

○ ممتاز ○ جيد ○ عادي (لطفاً وضح لِمَ) .....

❖ ما رأيك في إخراج الكتاب؟

○ عادي ○ جيد ○ متميّز (لطفاً وضح لِمَ) .....

❖ ما رأيك في سعر الكتاب؟

○ مناسب ○ معقول ○ مرتفع (لطفاً أذكر سعر الشراء) ..... العملة: .....

عزيزي القارئ انطلاقاً من أن ملاحظاتك واقتراحاتك سبيلنا للتطوير وباعتبارك من قرائنا فنحن نرحب بملاحظاتك النافعة... فلا تتوانَ ودَوّن ما يجول في خاطرك:

.....

.....

.....

.....

عنوان المراسلة:

العراق- النجف الأشرف- شارع المثنى- مركز الإمام الحسن عليه السلام للدراسات التخصصية

الموقع الرسمي: www.imamhassan.org | البريد الألكتروني: info@imamhassan.org

هاتف: ٠٠٩٦٤٧٨٠٣٣٥٨٠٢٠ | /AlimamAlhasan47